التصوير السياسي والاجتماعي في روايات صنع الله ابراهيم

بحث جامعي لنيل شهادة

الدكتوراه

الباحث

محمد واثق حسين

تحت إشراف

البروفيسور مجيب الرحمن

مركز الدراسات العربية والأفريقية
مدرسة دراسات اللغة والأدب والثقافة
جامعة جواهر لعل نهرو بنيو دلهي – ١١٠٠٦٧

2017

مركز الدراسات العربية و الإفريقية
Centre of Arabic and African Studies
School of Language, Literature and Culture Studies
Jawaharlal Nehru University, New Delhi – 110067
जवाहरलाल नेहरू विश्वविद्यालय, नई दिल्ली-110067
Gram: JAYENU Tel : 26704253 Fax: 91-11-2671 7525

Dated: 21/07/2017

DECLARATION

I hereby declare that the research work done in this Ph.D. Thesis entitled **"Depiction of Society and Politics in the Novels of Son'allah Ibrahim"** ***(Al-Tasweer al-Ijtimaii wa al-Siyasi fi Riwayat Son'allah Ibrahim)*** submitted by me is an original research work and it has not been previously submitted for any other degree in this or any other university or institution.

Md. Wasique Hussain

MD. Wasique Hussain
(Research Scholar)

Mujeebur Rahman

Prof. Mujeeebur Rahman
(SUPERVISOR)
CAAS / SLL&CS
JNU New Delhi – 110067

Centre of Arabic & African Studies
SLL & CS
Jawaharlal Nehru University
New Delhi-110067

Prof. Rizwanur Rahaman
(CHAIRPERSON)
CAAS / SLL&CS
JNU New Delhi - 110067

تقديم البحث

تفيدنا دراسة الأدب العربي الحديث أنه أساساً مستوحى من واقع الحياة الاجتماعية. نطلع من خلال دراسة أصنافه المختلفة من الشعر والنثر، وعلى وجه الخصوص، القصة والرواية أنه وثيق الصلة بالمجتمع يتأثر به ويؤثر فيه ويصور كل ما يحدث فيه من تحولات اجتماعية وسياسية وثقافية تصويرا صادقا ودقيقا مما أهّل الرواية العربية –بوجه خاص- لتكون ديوان العرب في العصر الحاضر. حقق الأدب العربي الحديث أيضا مستوى عال من النضج الفني والغزارة الإنتاجية حتى صار الأدب العربي الحديث – بكل جدارة واستحقاق– يضاهي الآداب العالمية كماً وكيفاً .

حقق الأدب العربي نقلة نوعية في الفترة التي تلت الحرب العالمية الأولى(1914م-1918م) إذ ظهرت حينها عدة أعمال أدبية كانت على قدر كبير من النضج الفني. وبالأخص ظهرت مدرسة جديدة من الروائيين وكتاب القصص القصيرة. وفي هذه الفترة أخرج مُحَمَّد حسين هيكل (1888م-1956م) "رواية زينب" في سنة 1914م. تحتل هذه الرواية مكانة خاصة في تاريخ الأدب العربي الحديث لكونها الرواية الفنية الأولى حسب رأي النقاد. والذي يهمنا هنا أن هذه الرواية تصور الريف المصري وتصفه وصفا مستوعبا فصارت بذلك رواية الواقعية الاجتماعية التي قدمت دراسة سوسولوجية للريف المصريوباتت الرواية بذلك مَعلماً للرواية العربية الفنية. ومنذ ذلك الحين أخذ الروائيون العرب يهتمون اهتماماً بالغاً بالنواحي الفنية للرواية. في

مطلع الثلاثينيات من القرن العشرين ظهرت روايات قيمة وبارعة على أيدي رواد الرواية العربية من أمثال عبد القادر المازني (1889م – 1949م)، بروايته "إبراهيم الكاتب" (1931م) التي عرضت لمحة للأوساط الأدبية والثقافية التي كان هو يختلف إليها، وتوفيق الحكيم (1898م - 1987م) بروايته "عودة الروح" (1933م) التي صورت كفاح المصريين في ثورة 1919م المصرية ضد الاحتلال الانجليزي على مصر، و رواية "يوميات نائب في الأرياف" (1937) التي رصدت عادات وطرائق مجموعة مختلطة من الناس من القضاة والضباط والحراس والعمائد في مصر. وروايات طه حسين، وروايات الروائي العبقري نجيب محفوظ في فترة الأربعينيات. في الواقع، أثرت جميع الوقائع السياسية اللاحقة مباشرة على الأدب العربي الحديث، وقد اضطلع الأدب العربي الحديث بشعره وقصصه ورواياته ومسرحياته بمهمة تمثيل وتصوير كل ما كان يدور في المجتمعات العربية من صراع وكفاح وتحول بشكل رائع فصارت بذلك ملحمة المجتمع العربي في طور تحوله السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي علماً أن الفترة ما بين 1923م و1952م اتسمت بعدم الاستقرار السياسي في تاريخ مصر على وجه الخصوص وفي تاريخ العالم العربي بوجه عام. وكما نعلم فإن هذه الفترة شهدت الكفاح المكثف من النشطاء السياسيين في مصر.

ولأسباب كثيرة، أهمها خيبة أمل المثقفين و الكتاب والأدباء من ثورة 1952 في مصر، بدأ اللون السياسي يطغى على الرواية العربية إذ بدأ الكتاب يعبرون عن خيبة أملهم في الثورة ومآلها، إذ لم تتحقق الحرية والدولة المثالية التي حلموا بها من هذه الثورة،

فاستمر قمع الحريات والتنكيل والتعذيب واستشرى الفساد السياسي في المجتمع. في الجقيقة شهدت مصر في بداية قيادة "الثورة" جوا متغيرا. فقد اتخذ الرئيس المصري جمال عبد الناصر (1954م- 1970م) مشاريع عديدة لتنمية مصر، من بين هذه المشاريع مشروع بناء السد العالي بأسوان مهم جدا. كان مشروع بناء السد العالي يستهدف تعصير وتحضير مصر وتنميتها اقتصاديا وتكنولوجيا. ثم إن جمال عبد الناصر استطاع أن يصمد أمام الإمبريالية الأمريكية والعدوان الإسرائيلي، مما خلق أملا جديداً بين الشعب المصري بصورة عامة. ولكنه سرعان ما تغير الجو السياسي في مصر، إذ أن طريقة عمل جمال عبد الناصر دفعت مصر إلى الدكتاتورية. فالذي تلا أن جمال عبد الناصر أخذ يركز لمسلطة السياسية في يده وأيدي النخبة العسكرية وأنشأ نظاما استبدادياً . ففي بداية سنة 1953م نفسها أعلن قانونا جديدا فرض بموجبه الحظر على جميع الأحزاب السياسية. وكانت الوحدة الاشتراكية العربية الحزب الشرعي الو حيد خلال فترة 1962م – 1976م. وعملت الحكومة الناصرية على قمع كل المعارضات السياسية، سواء أكانت علمانية أم دينية. وبالنتيجة، كانت الحكومة الناصرية متركزة على فرد واحد مما أدى إلى الحكم الدكتاتوري في مصر. وبالنتيجة أصيب المثقفون بخيبة أمل ويأس شديدين مما اضطر هم إلى النقد اللاذع للحكومة وسياساتها القمعية المناهضة للشعب من خلال رواياتهم وقصصهم سواء بطريق مباشر أو غير مباشر.

وفي أعقاب هذا التطور الجديد، أخذت آمال الناس تخمد وساد المجتمع المصري جو من الإحساس بالإحباط واليأس. وتفاقم هذا الجو السلبي إثر هزيمة أو نكسة

1967م. أوقعت إسرئيل في حرب 1967م هزيمة مخزية على العالم العربي. كانت نكسة 1967م نقطة تحول في الأدب العربي. عملت هزيمة 1976م على تصعيد المشاعر السلبية في نفوس المثقفين المصريين. فاجتمع القهر السياسي والشعور بالعنة السياسية والإحباط النفسي و الإحساس بعدم قدرتهم على تغيير واقع وطنهم الحبيب. وتولد لديهم الإحساس بعدمية وعبثية الأشياء وفقدان الذات. المهم هنا أن هذه المشاعر السلبية انعكست على الأدب العربي الذي تطور في هذا المناخ. يجدر بالذكر أن الخمسينيات و بداية الستينيات تتميز بسيادة المسرحيات، والفترة التي تلت نكسة 1967م تنتمي إلى كتاب الروايات والقصص القصيرة. والجيل الذي جاء بعد نكسة 1967م يسمى بـ"جيل الستينات". تعكس الروايات التي أخرجها هذا الجيل هذا الجو السياسي القمعي وكذلك الجو الاجتماعي العام الذي اتسم باليأس والشعور بالخيبة. على سبيل المثال الرواية الأولى نفسها لصنع الله ابراهيم، رواية "تلك الرائحة" الصادرة في سنة 1966م تصور كيف يعيش الناس في هذا المناخ السياسي في عصر جمال عبد الناصر. ومن بين ما ترسم الرواية لنا أن الناس، بدافع الخوف من السلطة السياسية، لا يريدون أن يتحدثوا عن السياسة والأحول الاجتماعية التي أخذت في الانحطاط والتدهور والتردي. ولإحساسهم بأنهم لا يستطيعون أن يغيروا شيئا من أحوالهم لجأوا إلى الاستهلاكية، فكل ما يتحدثون هو عن السينما ونجوم السينما والأزياء الجديدة والسلع الإلكترونية الجديدة. ويهم أن التغيير الذي لحق بنفسية المصريين انعكس على الأدب العربي وخاصة الرواية العربية ليس في المواضيع فحسب بل في الشكل والفن كذلك،

حيث أن هذا الجيل الجديد وجد أسلوب وتقنيات روايات "الواقعية الاشتراكية" التقليدية غير ملائمة للتصوير عن الواقع، فلجأوا إلى التجريب والتجديد في الشكل الروائي. ولحسن حظهَم ُ لهم الأمر حيث أن الآداب الغربية لحقت بها التغييرات أيضا، وخاصة في فرنسا والولايات المتحدة. تأثر هذا الجيل بما يسمى"الرواية الجديدة". كما أنه تأثر بأفكار فرانز كافكا وسارتر والبرت كامو وهيمنجواي. والروائيون العرب من الجيل القديم أنفسهم جربوا في رواياتهم تصوير الواقع الجديد، من أمثال نجيب محفوظ برواياته "اللص والكلاب" الصادرة في سنة 1961م و"السمان والخريف" الصادرة في 1962م، وخاصة "الشحاذ" الصادرة في 1965م، و"ثرثرة فوق النيل" الصادرة في 1966م، و"ميرامار" الصادرة في سنة 1967م. يستخدم نجيب محفوظ في رواية ميرامار تقنية تيار الوعي، التي هي ميزة بارزة للروائيين في جيل الستينات، وكما أن رواية "ثرثرة فوق النيل" تتمحور حول موضوع الاغتراب، الموضوع المحبب لدى جيل الستينات.

فالروايات التي نشرت لجيل الستينات طغى عليها التجريب الشكلي، بالإضافة إلى طغيان المواضيع السياسية.فروايات هذا الجيل لا تلتزم بالبناء التقليدي. فلا تتكون رواياتهم من نمط الحبكة الروائية التقليدية مثل البداية والعقدة والحل. والحبكة الروائية التي نجدها في هذه الروايات ضئيلة وضيقة جدا. أصبح البناء يتكون من بنى جزئية ضيقة. وعكس البطل كشخصية رئيسية في الروايات التقليدية، نجد في الرواية الجديدة "البطل المضاد". "البطل المضاد" يعني ،كما يبدو من الكلمة نفسها، الشخصية الرئيسية التي

تحمل الأوصاف المخالفة للبطل، فلا يتسم البطل المضاد، عكس الأبطال التقليدية، بسمو الأخلاق والمثالية والشجاع والهمة والقوة والإيثار بالذات. وإنه، إنما يتصف بقلة الثقة بالنفس، والضعف النفسي، والعجز، واليأس والقنوط، ضلال الهدف والهدى، وقد يقتله الشك في قدرته، إنه يشعر أنه لا يستطيع أن يتحكم بقدره، كما أنه لا يستطيع أن يغير قدر وطنه. في الحقيقة كان البطل المضاد تقنية ملائمة للتعبير عن الاغتراب والشعور بالإحباط والمشاعر السلبية الأخرى التي عانى منها هذا الجيل الجديد.

أما الروائي صنع الله ابراهيم – الذي نحن بصدد دراسة رواياته من ناحية التصوير السياسي – فهو من أبرز نجوم جيل الستينات. وهو من رواد هذا الجيل من الروائيين. فبينما أقبل الآخرون على النزعات الجديدة في أعقاب نكسة 1967م، رصدت روايته الأولى الصادرة في سنة 1966م المناخ السياسي القمعي في الفترة الناصرية. صورت هذه الرواية القمع والقهر وكبت الحريات في شكل جريئ جدا، ولو في صورة موحية غير مباشرة.

صنع الله إبراهيم من مواليد القاهرة، ولد الروائي الكبير في عام 1937م لوالد قد تجاوز عمره الخمسين سنة، ولأم كانت ممرضة لدى زوجة أبيه الأولى، وانتمى أبوه إلى الطبقة المتوسطة العليا، بينما تنتمي أمه إلى الطبقة الدنيا. وقد كان لهذ التناقض الطبقي أثر بالغ على التكوين النفسي لصنع الله إبراهيم وكذلك على أدبه. كان الروائي صنع الله ابراهيم متواضع الأداء في الدراسة، ولم تستسغه الحياة المدرسية، فلجأ إلى عالم الوحدة

والخرافات والقصص والمسرحيات. حفل شبابه بنشاط سياسي كبير جدا، وقد ظهر لدى الروائي ميل إلى النشاطات السياسية في سن مبكرة، فقد أخذ يشترك في المسيرات والاحتجاجات والتظاهرات السياسية وهو لم يتجاوز العقد الثاني من عره بعدُ . ففي بداية سنة 1952م اشترك الروائي في التظاهرات المتعددة التي وقعت في "جامعة القاهرة".وفي منتصف سنة 1952م التحق بجامعة القاهرة، وكان يريد أن يدرس القانون والنقد المسرحي، إلا أنه لم يستطع أن يستسيغ تفاصيل القانون، فركن إلى الصحافة والسياسة، وقرر في هذه المرحلة من حياته أن يجعل منهما هدفاً له. وفي عام 1959م ألقي القبض عليه في سياق حملة شنها جمال عبد الناصر على اليساريين. ظل الروائي سجينا سياسيا حتى1964م. وفي السجن شغف بالقراءة، حيث كان السجن مزودا بمكتبة جيدة. وتعرف في السجن على العدد الكبير من الأدباء والنقاد العرب والغربيين، وهنالك قرر صنع الله إبراهيم أن يقف نفسه للكتابة. نُشر لصنع الله إبراهيم عدة روايات وقصص قصيرة. ومن أهم رواياته: تلك الرائحة 1966م، و نجمة أغسطس 1974م، واللجنة 1981م، و بيروت بيروت 1984م، وذات 1992، وشرف 1997م، ووردة 2000م، وأمريكانلي 2003م، ويوميات الواحات 2005م، والتلصص2007م، والعمامة والقبعة 2008م، والقانون الفرنسي2008م، والجليد 2011 م، وبرلين 69 2014م.

من حيث الحجم تتوزع روايات صنع الله ابرهيم إلى قسمين، الروايتان الثانيتان الأوليان اللتان تشتملان على تلك الرائحة الصادرة في سنة 1966م ورواية الروية الغير

المطبوعة قصيرة، ورواية اللجنة التي طبعت لأول مرة في سنة 1981م رواية قصيرة. فإن رواية تلك الرائحة، قصيرة جدا، بالكاد تكاد تصل إلى خمسة وثلاثين صفحة، كما أن رواية اللجنة بالكاد تصل إلى مائة وخمسين صفحة. في الواقع، المناسب أن يطلق عليهما ما يسمى في اللغة الانجليزية "novella" وأما بقية الروايات المتكونة من نجمة أغسطس وذات وبيروت بيروت وشرف ووردة وغيرها فهي روايات طويلة. في الحقيقة، إن الروايات من أمثال ذات وشرف (خاصة) ووردة طويلة جدا. وفيما يتعلق بالبنية السردية ومستوى السرد في روايات صنع الله ابراهيم، فإنه قد استخدم في معظم رواياته صيغة المتكلم أو الذي يسميه جرار جينيت بـ "التقنية السردية الهوموداثجيتيكية" (Homodeigetic narrative) حيث يشترك السارد كشخصية روائية. في الحقيق إن السارد/ أو الراوي في هذه الروايات كلها شخصية رئيسية يلعب دور "البطل المضاد" كما رأينا في الفصل السابق. يتألف هذا القسم من الروايات من "تلك الرائحة" و"نجمة أغسطس" و"اللجنة" و"بيروت بيروت" و"وردة" و"أمريكانلي" و"العمامة والقبعة" و"القانون الفرنسي" و"الجليد" و"التلصص". وإن جميع هذه الروايات تقريبا تتضمن عناصر السيرة الذاتية، وخاصة رواية تلك الرائحة ونجمة أغسطس وشبه السيرة الذاتية "التلصص". و مما لا شك فيه أن هذه الروايات المذكورة تتضمن الكثير من عناصر السيرة الذاتية، من تجارب الحياة اليومية والتجارب السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي عاشهاالروائي، إلا أنه ليس من المناسب أن نقرأ هذه الأعمال كلها كأعمال سيرة ذاتية، لأن العمل الرواية قبل كل شيئ عمل فني يتكون من الخيال

والواقع. في الحقيقة إننا نرى أن الروائي هو نفسه يحذرنا من أن نقرأ هذه الروايات كسير ذاتية. "ولكن المشكلة التي ما زالت تلاحقني، ونتيجة أيضا لأعمالي الأخرى، هي ميل القراء إلى اعتبار ما أكتبه واقعا مؤكدا حدث لي. السبب في ذلك بالطبع هو أني أفضل استخدام ضمير المتكلم لما يسبب لي من راحة (ولأني أيضا أميل إلى قراءة الروايات التي تستخدمه) وأني أستعين ببعض المواقف والخبرات التي مررت بها بالفعل، كما أن أغلب أعمالي تشير عادة إلى شخصيات وأحداث حقيقية. لكن ما أكتبه لا يمكن اعتباره من قبيل السيرة الذاتية وبعبارة أخرى، فإذا كنت أستعين ببعض الخبرات الشخصية فإنها تتعرض لكثير من التحريف والتغيير طبقا لأهداف العمل." هذا، وإن عددا من رواياته تماهي كثيرة من سيرته الذاتية، من أمثال تلك الرائحة ونجمة أغسطس وخصوصاً التلصص.

تحكي رواية تلك الرائحة قصة معتقل سياسي سرح من السجن بعد مدة طويلة. وبعد الانصراف إلى الحياة المدنية يعيش في اغتراب كامل، لأن الحياة السياسية في مصر بعد تولي عبد الناصر الرئاسة المصرية كانت تجتاز مرحلة يئسة. رواية "نجمة أغسطس" رواية سياسية حادة تصور الجو العام حينذاك في المجتمع المصري، بما فيه دكتاتورية عبد الناصر وشعور اليأس العميق بين المصريين.وإن هذه الرواية تُمثّل أهم نموذج للروايات العربية التي كتبت على نمط "الواقعية الجديدة" أو "الحساسية الجديدة" التي كانت نتيجة التمرد على "الواقعية الاشتراكية" أو "الواقعية التقليدية". يعتبر النقاد رواية اللجنة أكثر روايات صنع الله نجاحا. تصور هذه الرواية الأحوال الاجتماعية

والسياسية المصرية بعد ما جاء الرئيس السابق المصري مُحَّد "أنور السادات" بتغيرين مؤثرين في السياسة المصرية: سياسة الانفتاح واتفاقية السلام مع اسرائيل. هذه الرواية عبارة عن هجاء ساخر لسياسة الانفتاح التي أسفرت عن الإنحطاط في مستوى معيشة الناس. وقد صور الروائي عن طريق حياة "ذات" المجتمع المصريَّ بكل سماتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية خلال فترات الرؤساء الثلاث. والرواية تصور ما رافق هذه الفترات من انحطاط في الظروف المعيشية وانحلال في الأخلاق العامة. تحكي الرواية قصة أشرف عبد العزيز سليمان أو "شرف". شرف شاب في أوائل العشرين من عمره، ولد في أسرة من الطبقة المتوسطة التي تشوهت حياتها بعوامل الانفتاح الاقتصادي و نظام السوق الحرة و الخصخصة و العولمة و السياسات النيولبرالية. تحتل رواية "التلصص" مكانة مميزة بين روايات صنع الله ابراهيم لأنها أقل سياسية وأكثر ذاتية . ترسم الرواية لنا صورة المجتمع القاهري قبل ثورة يوليو مع التركيز على فترة الأربعينيات من القرن العشرين. وقد تم تصوير المجتمع من خلال ما يرى الطفل من عادات و أطوار و عقائد الناس و التناقضات و التضادات المتواجدة في المجتمع المصري و خاصة التناقضات التي جاء بها العصر الجديد من تواجد الدين و الموضات والأزياء الغربية المنافية للدين. والرواية تضم الإشارات الكثيرة من مظاهرات الحداثة من السينما و نجومها المصرية منها و الغربية الشهيرة حينذاك و العمارات و البناءات الشامخة الجديدة و الرواية تعطينا تفاصيل كثيرة متعلقة بالمأكل و الملبس و المشرب وعلاقات الناس ببعضهم.

إن هـذا البحـث يتـألف مـن أربعـة أبـواب.البـاب الأول يتحـدث عـن الأحـوال السياسـية والاجتماعيـة في عصـر صـنع الله ابـراهيم وعـن حياتـه و أعمالـه. البـاب الأول يتـألف مـن ثلاثـة فصـول. يتحـدث الفصـل الأول عـن الاحـوال السياسـية والاجتماعيـة والاقتصـادية المصـرية في عصـر صـنع الله ابـرهيم ويعـالج مـا لحـق المجتمـع المصـري مـن تغيـرات في هـذه الفـترة؛ هـذا الفصـل يتنـاول أيضـا الاحـتلال الانجليـزي علـى مصـر وهكـذا يعطـي صـورة وجيـزة للأحـوال السياسـية تحـت الاسـتعمار. والفصـل الثـاني يتنـاول حيـاة الرائـي صـنع الله ابـراهيم مـن نـواحي شـتى، مـن نشـأته في بيئـة أسـرية متناقضـة، ونشـاطاته السياسـية والثوريـة، واعتقالـه في السـجن. والفصـل الثالـث يعطـي رسمـا وجيـزا لأعمـال صـنع الله ابـراهيم الروائيـة والأعمـال العلميـة الأخـرى. وفيمـا يتعلـق بالبـاب الثـاني، فإنـه يعـالج القضـايا السياسـية المصـرية كمـا تصـورها روايات صـنع الله ابـرهيم. يتكـون هـذالباب مـن ثلاثـة فصـول. الفصـل الأول يبحـث عـن السياسـة القمعيـة في الفـترة الناصـرية كمـا تصـورها روايـة "تلـك الرائحـة"، فيعـالج قمـع المعارضـة السياسـة وكبـت حريـة التعبـير في عهـد عبـد الناصـر. والفصـل الثـاني مـن هـذا البـاب يعـالج التنـاقض في السياسـة المصـرية كمـا تصـورها روايـة "نجمـة أغسـطس"، معالجـا التنـاقض في مشـاريع تنميـة مصـر المتمثـل في بنـاء السـد العـالي، والسياسـة القمعيـة المتمثلـة في كبـت الحـريات وانعـدام الديمقراطيـة و العدالـة الاجتماعيـة. وأمـا الفصـل الثالـث، فيتعامـل السياسـة المصـرية في عهـد مُحَّد انـور السـادات في ظـل سياسـة الانفتـاح كمـا تصـورها روايـة "اللجنـة". وأمـا البـاب الثالـث، فيبحـث القضـايا الاجتماعيـة المصـرية كمـا تصـورها روايات صـنع الله ابـراهيم. يتكـون هـذا البـاب أيضـا مـن ثلاثـة فصـول. الفصـل مـن هـذا البـاب يعـالج

القضـايا الاجتماعيـة المصـرية كمـا تصـورها روايـة "ذات". يتركـز هـذا الفصـل بصـورة خاصـة علـى المظـاهر الاسـتهلاكية في المجتمـع المصـري، والتنـاقض الطبقـي فيـه بسـبب تأثـيرات سياسـة الانفتـاح. والفصـل الثـاني يعـالج القضـايا الاجتماعيـة كمـا تصـورها روايـة "شـرف"، وتركـز خاصـة علـى التـأثيرات السـلبية لسياسـة الانفتـاح والعولمـة. وأمـا الفصـل الثالـث، فيعـالج القضـايا الاجتماعيـة المصـرية كمـا يعكسـها الطفـل السـارد في روايـة "التلصـص". والبـاب الرابـع يبحـث أسـلوب صـنع الله ابـراهيم وفنـه وتقنياتـه السـردية. يتكـون هـذا البـاب أيضـا مـن ثلاثـة فصـول. الفصـل الأول يبحـث في نوعيـة فـن الروائـي صـنع الله ابـرهيم، بمـا فيهـا التجريـب الشـكلي والبطـل المضـاد. والفصـل الثـاني يتحـدث عـن البـنى السـردية في روايات صـنع الله ابـراهيم، مـن السـرد ومسـتوى السـرد والحبكـة. وأمـا الفصـل الثالـث فيبحـث في المميـزات الخاصـة في التقنيـات السـردية في روايات صـنع الله اراهـيم مـن التنـاص والاسترجاع وتيار الوعي.

إنـني أشـكر الله ربي تعـالى علـى أنـه أعطـاني فرصـة قيمـة لأن أكمـل دراسـتي العليـا مـن هـذه الجامعـة الكبـيرة. وأتقـدم بجزيـل الشـكر والامتنـان إلى جميـع أصـدقائي وأسـاتذتي الـذين سـاعدوني ابـدا برحـب الصـدر، وأتقـدم بالامتنـان خاصـة إلى مشـرفي الأسـتاذ البروفيسـور مجيـب الـرحمن. وفي نهايـة المطـاف أشـكر أخـي الكبـير الـذي بسـببه اسـتطعت أن أحصـل عللا الدراسة العليا...وشكرا لرب العالمين.

الباب الأول:صنع الله إبراهيم، عصره وحياته وأعماله

الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية المصرية في عصر صنع الله ابراهيم

إن الباحث يستهدف في هذا الفصل الذكر الوجيز للأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية المهمة التي غيرت مجرى التاريخ المصري وأثرت المجتمع المصري تأثيرا جذريا من نواحي شتى.والتي كان لها أن تؤثر في التكوين النفساني للمجتمع المصري وتكوين الأديب الفنان صنع الله إبراهيم وكذلك على أدبه وفنه. لذلك فإن الباحث سيقتصرعلى هذه النقاط المهمة التي كانت من شأنها أن أثرت هذا الروائي الكبير صنع الله إبراهيم والتي قام هو لمعالجتها في روايته وكتاباته مع خلفية وجيزة للتأريخ المصري.

ولد صنع الله إبراهيم في 1937م أي في زمن كانت مصر فيه مستقلة من الناحية التقنية، ولكن القوات البريطانية ظلت تحتل منطقة قناة السويس طوال عشرين سنة أخرى. ثم إنه عايش عهود كل من جمال عبد الناصر وأنورسادات وحسني مبارك. قد شهدت مصر في القرن العشرين وما يليه من العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر تغيرات حاسمة هائلة من سياسية واقتصادية واجتماعية، مما أدى إلى تغيير مجرى المجتمع المصري تغيير جذريا كان من شأنها أن تترك آثارها إلى أمد مديد لا بأس بها.

وبصدد المجتمع المصري الحديث قد يهم ذكرالعنصران: الاستعمار والاستعمار الجديد. إنهما لعبا دورا جد هام في تشكيل المجتمع المصري الحديث و أثرا تأثيرا بالغا في

تغيـيره و تحويلـه. وعلـى أن القـوتين الاسـتعماريتين بريطانيـا و فرنسـا كـا تنـا تتنافسـان علـى السـيطرة علـى مصـر منـذ عصـر مُحَّد علـي إلا أن مصـر وقعـت في بـراثن الاسـتعمار حينمـا أعطـى الخـديوي سـعيد الأوربيـين حـق إنشـاء قنـاة السـويس. وترسـخ الاسـتعمار في عهـد إسماعيـل باشـا (1863-67) و (1867-79) متمخضـا عـن محاولتـه لتكـوين دولـة قويـة وتغيـير هويـة مصـر، ممـا دفـه إلى أن يحـاول الاسـتقلال بهـا عـن الإدارة العثمانيـة إلا أن طموحاتـه تسـببت في القضـاء عليـه، وإلقـاء مصـر في قبضـة القـوى الأوربيـة الإنجليزيـة والفرنسية. كـون اسماعيـل جيشـا قـويا وأشـاد المنشـآت العمرانيـة والقصـور، وانـدفع في إنشـاء القصـور وإقامـة الحفـلات وتقـديم الهـدايا. فاضـطر إلى الاسـتدانة، وسـاءت الأوضـاع الماليـة في الـبلاد وزادت ديـون مصـر في عهـده زيادة كبـيرة أدت إلى تـدخل إنجلـترا وفرنسـا في شـوؤن مصـرالداخلية بحجـة حمايـة ديونهـا، كمـا اضـطر إلى بيـع أسـهم مصـر في شـركة قنـاة السـويس[1] وقـد أدت السياسـة الماليـة السـيئة إلى خلـع إسماعيـل في 26 يونيـو 1879م وتنصيب إبنـه توفيـق باشـا خـديو مصـر.[2] وتوفيـق ورث عـن والـده تركـة ثقيلـة ممـا جعـل أيام حكمـه غـير سـعيدة عليـه وعلـى مصـر، فقـد انـدلعت في عهـده الثـورة العرابيـة الـتي كـان مـن نتائجها احتلال إنجلترا للبلاد سنة 1882م.[3]

[1] الأنصاري ، دكتور ناصر ،المجمل في تاريخ مصر، ص: 219 . و Marsot, Afaf Lutfi Al- Sayyid,A History of Egypt From the Arab Conquest to the Present, Pg. 82.

[2] المجمل، ص: 219

[3] ايضا، ص: 219

أسفرت الثورة العرابية التي اندلعت في عهد توفيق عن الاحتلال الإنجليزي على مصر الذي استمر حتى 1956م. المقصود هنا أهم نقاط الثورة العرابية التي تغيرت بها المجتمع المصري من تغييرات مهمة وليس المقصود ذكر تاريخ الثورة العرابية مع أسبابها كاملة. ترجع جذور الثورة العرابية إلى تهميش المصريين من المناصب العليا من الوظائف الحربية وحجزها عمليا للأتراك والجركسيين بينما كان الشعور الوطني لدى المصريين حينذاك في التصاعد حتى أن تبرز أهتاف "مصر للمصريين."[4]

1. وقعت أول وقائع الثورة العرابية في فبراير1881م وكانت مطالب أحمد عرابي وصحبه تتخلص في:

- عزول وزير الحربية
- تشكيل مجلس للنواب
- زيادة الجيش العامل إلى ثمانية عشر ألف جندي نصت على ذلك معاهدة لندن 1840م.
- تعديل القوانين العسكرية مما يحق العدالة والمساواة بين رجال الجيش.[5]

أما الواقعة الثانية من وقائع الثورة العرابية فكانت في 9 سبتمبر 1881م، وهي واقعة ميدان عابدين والتي طالب فيها أحمد عرابي ومعه الجيش ثلاث مطالب وهي:

- إسقاط الوزارة المستبدة برئاسة رياض باشا

[4] A History of Egypt,From the Arab Conquest to the Present. Pg: 86
[5] المجمل، ص:220

- تشكيل مجلس للنواب
- زيادة عدد الجيش إلى ثمانية عشر ألف جندي والتصديق على المطالب العسكرية السابق المطالبة بها.[6]

وظلت مصر تعاني من عدم الاستقرار والهياج والفوضى مدة من الزمن حتى أجيبت عدة مطالبه، ثم حينما اندلعت يوم 11 يونيو 1882م ثورة شعبية في الإسكندرية للتعبير عن سخطها على ما عرف ب"مذبحة الإسكندرية" والتي نتجت عن الشغب الذي حدث في المدينة بعد حادث المالطي ووجدت إنجلترا فرصة للتدخل.

وفي أعقاب هذه الواقعة نزلت القوات البحرية الإنجليزية على ميناء الإسكندرية وقامت بمحزرة الإسكندرية. وحسب المؤرخ عفاف لطفي السيد مرسوط كان الخديو توفيق قد دعا الإنجليز للإحتلال على مصر لكي يستعيدوا له سلطته، وكان يتوقع أن يتحقق هذا في وقت قليل وترجع إنجلترا بعده وتنخلع من مصر. ولكن الإحتلال الإنجليزي كان أن يستمر حتى 1956م.[7] ثم قبض على أحمد عرابي و تم تقديمه للمحاكمة وحكم عليه بالنفي إلى جزيرة "سيلان" وبدأت مرحلة أخرى من مراحل التأريخ المصري وهو احتلال إتجلترا وسيطرتها على الجيش والبوليس وشيئا فشيئا على باقي المرافق الهامة في الدولة.[8]

---

[6] ايضا، ص: 221

[7] A History of Egpyt from the Arab Conquest to the Present,Pg.88.

[8] المجمل، ص: 223

وفي يناير 1892م توفي الخديو توفيق وتولى مصر بعده عباس الحلمي الثاني. وحاول عباس أن ينتهج سياسة الإصلاح، فتقرب إلى المصريين الوطنيين، ومنهم الزعيم مصطفى كامل، مما أدى إلى الكراهية بينه وبين إنجلترا. وقد أخذت الحركة الوطنية للإستقلال من الاحتلال الإنجليزي في التصاعد بقيادة مصطفى كامل ودعم الخديو عباس الثاني. ولكن الإنجليز وجدوا في الطبقات الثرية أولياءهم الذين ساعدواهم على تنفيذ "الحماية المقنعة" التي استمر من 1882م إلى 1922م، إلا أن الحركة الوطنية نشبت نشوبا قويا فشهدت مصر الاحتجاجات والتظاهرات كمشهد طبيعي للحياة المصرية.[9]

وحينما نشأت الحرب العالمية الأولى (18-1914م) وجدت إنجلترا فرصة أخرى لتعزيز احتلالها على مصر، ففي 18 ديسمبر 1914م أعلنت إنجلترا عن الحماية على مصر وبهذا الإعلان تحولت الحماية المقنعة من 1882م على مصر إلى حماية سافرة.[10] وفي اليوم الثاني من الإعلان للحماية أصدر الوزير الخارجي البريطاني إعلانا آخر بخلع عباس الثاني من منصب الخديوية وتعيين حسين كامل(17-1916م) سلطانا على مصر.[11]، ومن قبل كانت إنجلترا قد ألغت تبعية مصر لتركيا ورفعت مصر إلى مستوى سلطنة، فتعين حاكمها الجديد كسلطان.

[9]: A History of Egpyt from the Arab Conquest to the Present Pg.98
[10]المجمل، ص:225
[11]ايضا، ص: 225

وفي أكتوبر1917م توفي السلطان حسين كامل وتعين أحمد فؤاد (23-1917م) كسلطان جديد، وبإنتهاء الحرب العالمية في نوفمبر1918م مع انتصار الإنجلترا زالت الأسباب التي بنت عليها إنجلترا فرض حمايتها على مصر، فبدأ الوطنيون المصريون يتحدثون في شأن إلغاء الحماية وجلاء إنجلترا عن مصر واستقلالها التام. وعقب توقيع إنجلترا لإتفاقية الهدنة مع ألمانيا، تشكل في مصر في نوفمبر1918م وفد من بعض أعضاء البرلمان برئاسة الوكيل المنتخب للجمعية التشريعية، وضم أعضائه علي شعراوي باشا وعبد العزيز فهمي، و من مهمة هذا الوفد السعي إلى الاستقلال. وفي يوم 13 من نوفمبر1918م قابل الوفد السيد ريجنالد ونجت المعتمد البريطاني في مصر وبلغوه أنهم بصفتهم نواب الأمة يطلبون من الإنجلترا الاعتراف بإستقلال مصر وطلبوا أن تسمع لهم إنجلترا التي فرضت على مصر الأحكام العرفية- بالسفر إلى باريس- لعرض مطلب مصر في الاستقلال والسيادة على مؤتمر الصلح المنعقد هناك، ولكن الإنجليز رفضوا سفر"الوفد" وقفوا منه موقف الخصومة وأنكرت إنجلترا عليهم من التحدث أو التفاوض بإسم مصر، فأصدرهؤلاء النواب نصا يتضمن توكيل المصريين لهذا الوفد في السعي للاستقلال لأي سبيل، وتم إرسال صور من هذا التوكيل إلى مختلف الهيئآت لأخذ التوقيع من الشعب عليه. وقد وقع على هذا التوكيل جميع فئات الأمة من الطبقة المثقفة أو من الطبقات العاملة أو الفلاحين.

وكانت السنة 1919م بكاملها مشتعلة بالاحتجاجات والتظاهرات فأمر بالقبض على زعماء الوفد ثم بنفيهم إلى مالطة، فبدأ يوم 9 مارس 1919م بالإضراب

والمظاهرات احتجاجا على القبض على زعماء الوفد، واندلعت الشرارة الأولى من المدارس العليا (الجامعات) والمدارس الثانوية واستمرت المظاهرات في اليوم التالي بل اشتدت وامتدت إلى الأقاليم وساد الاضطراب أنحاء البلاد حتى اضطرت الحكومة الإنجليزية إلى إطلاق سراح زعماء الوفد في 7 إبريل 1919م. وسافر الوفد إلى باريس إلا أن الاحتجاجات لم تهدأ. ثم إن المفاوضات فشلت، وطالب الوفد من الأمة استمرار الجهاد فتم اعتقاله هو وصحبه في ديسمبر1921م ونفوا في سيسل في 29 ديسمبر ثم إلى جبل طارق.

واستمرت روح الثورة بعد نفي سعد حتى اضطرت بريطانيا إلى إلغاء الحماية في تصريح 18 فبرائر1922م، فألغيت الحماية ورفعت الأحكام العرقية وتم الاعتراف بمصر كدولة مستقلة ذات سيادة.[12] إلا أن إنجلترا احتفظت بصورة مطلقة بأربع مسائل إلى أن يتم اتخاذ قرار في صددها فيما بعد والمسائل الأربعة هي:

1. تأمين مواصلات الإمبراطورية البريطانية (قناة سويس)
2. الدفاع عن مصرضد كل اعتداء أو تدخل أجنبي
3. حماية المصالح الأجنبية وحماية الأقليات في مصر
4. مسئلة السودان[13]

[12] المرسوط، ص: 97

[13] المجمل، ص: 232، المرسوط، ص:96

وقام السطان فؤاد بإعلان مصر كمملكة فتغير لقب الحاكم من السلطان إلى الحاكم. ومن قبل كانت لمصر تجربة دستورية سنة 1882م ولكن الدستور ألغى في العام الثاني، فأمر الملك فؤاد في إبريل 1823م بتأليف لجنة لوضع الدستور وصدر الدستور فعلا في 19 إبريل 1923. ثم صدر قانون الانتخاب في 30 إبريل 1923. أجريت ثلاثة انتخابات متتالية- يناير1924م - مارس 1925م - يونيو 1926م - أغسطس 1927م، فاز حزب الوفد بالأغلبية في كل من هذه الانتخابات وتم تعيين سعد كرئيس للوزراء. ثم توفي سعد زغلول في 1921م وانتهت فترة من أخص فترات التاريخ المصري المعاصر، وتبعه مصطفى النحاس كزعيم حرب الوفد وحاول مصطفى النحاس أن يتبنى الطريقة الدستورية والبرلمانية وكافح للحكومة الديمقراطية إلا أن الملك فؤاد (1922-36م) رفض إلا أن يحكم مصر بطريقة أوتوقراطية حتى أنه قام بالقضاء على حكومة الوفد في 1929م، فتعين على مصطفى النحاس أن يكافح ضد كل من الملك فؤاد والإنجلترا.

توفي الملك فؤاد الأول في 28 إبريل 1936م فتولى إبنه فاروق الأول، ولم يبلغ بعد إلى سن الرشد، ملكا لمصر، وخلال مدة حكم الملك فاروق الأول والتي استمرت حتى قيام ثورة 23 بوليو 1952م مرت البلاد بكثير من الظروف التي قد تكون متظافرة أدت إلى قيام ثورة 1952م، ففي 28 أغسطس 1936م وقعت وزارة الوفد برئاسة مصطفى النحاس باشا معاهدة مع الانجليز استمرت لعقدي قادمين. وفي سنة 1939م

قامت الحرب العالمية الثانية وأعلنت بريطانيا الحرب ضد ألمانيا وأيطاليا فكان من الضروري خروج معاهدة 1936م إلى حيز التنفيذ[14].

وبعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها وبدأت الدول المشاركة فيها في تنفيذ المعاهدات والتقاط الأنفاس بعد هذه الحرب الطويلة، تفجرت في المنطقة العربية مشكلة فلسطين واليهود الذين شكلوا دولة إسرائيل، وقامت حرب فلسطين ولا بد من الإشارة إلى أثر حرب فلسطين على مصر كان في أن هذه الحرب البوتقة التي نشأ فيها تنظيم الضباط الأحرار وانصهر فيها أعضاءه- كما أن أحد الأسباب الرئيسية المحركة للثورة كانت صفقة الأسلحة الفاسدة التي عقدت أثناء الحرب، وكان تأثرها سلبيا على كل من اشترك محاربا في هذه الحرب، وقد أشارت أصابع إلى بطانة السوء التي تحيط الملك فاروق، بل لم ينجح هو نفسه منها.[15]

وحدث آخر واجه مصرفي تلك الفترة وكان له تأثيره كبير على إشعال فتيل الثورة وهو إلغاء وزارة الوفد لمعاهدة 1936م في الثامن من اكتوبر1951م، فمنذ ذلك اليوم بدأت مرحلة جديدة من كفاح الشعب ضد الأحتلال البريطاني لمنطقة القناة، وكانت الحوادث تندرج وتتدافع يوما بعد يوم نحو الثورة، وكان الكفاح الشعبي الذي قام به الطلبة والفدائيون على ضفاف قناة السويس من أكتوبر 1951م إلى أواخر يناير

[14]المجمل،ص234&235.

[15]المجمل، ص: 225

1952م ضد القوات الانجليزية الذين اعتمد الشعب وجودهم في مركز الغاصب المحتل لمنطقة القناة تجب محاربتهم حتى يرحلوا عن البلاد.[16]

وانتشرت مظاهر الكفاح الشعبي المسلحة ضد البريطانيين ومصالحهم في منطقة القناة وكان الرد الانجليزي هو إقامة حكم عسكري في المنطقة لمواجهة هذا المد الشعبي المقاوم لوجودهم ولكن هذا القرار لم يضعف من المقاومة الشعبية بل زادها إصرار فخرجت المظاهرات تهتف ضد الاحتلال الانجليزي لمنطقة القناة، ولكنها أيضا وللمرة الأولى تهتف بسقوط الملك، فما أدى إلى إغلاق الجامعات والمدارس إلى أجل غير رسمي في 27ديسمبر1951م.

إلى ثورة 1952م

أعقب ذلك حدثين على جانب كبير من الأهمية. الأول هو مجزرة الإسماعيلية في 25يناير1952م والثاني في اليوم الثاني مباشرة هو حريق القاهرة يوم 26يناير 1952م، وانتهز الملك الفرصة فأقال وزارة الوفد برئاسة مصطفى النحاس باشا والتي كانت في الحكم منذ حوالي سنتين.

مجزرة الإسماعيلية:

كانت الإنجليز قد حشدوا قوات ضخمة من جيشهم وحاصرت مبنى محافظة الإسماعيلية (قوات الأمن) وأنذروهم بتسليم أسلحة جميع قوات البوليس وجلاء قوات

[16] المجمل، ص:236

الأمن ولما رفضت هذهه القوات الانصياع لهذا الإنذار ضرب الإنجليز المحافظة والثكناب بالمدافع والقنابل فدارت بين الجانبين معركة دموية ولكن غير مساوية.

حريق القاهرة:

يعد هذا الحادث من الأسرار الكبرى حتى اليوم، كاد هذا الحادث يدمر عاصمة مصر، فقد وقعت الحرائق وحوادث الإتلاف والسلب والنهب بمنطقة وسط القاهرة التجارية ونتج عنها خسائر جسيمة في الأرواح والممتلكات، وكان لها تأثير على اقتصاد البلاد وحركة التجارة فيها، فكان هذا الحادث إحدى الشرارات التي فجرت ثورة 23يوليو 1951م.

كان التجاوب بين الحيش والشعب قد تأصل منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، فعلى الرغم من أن الشعب لم يشارك في حرب 1948م إلا أنه تأثر بنتائجها وخاصة بصفقة الأسلحة القاسدة التي عاني الجيش، فكون بعض الضباط المتحمسين جماعة منهم أطلقوا عليها إسم الضباط الأحرار، جعلوا هدفهم إنقاذ البلاد بواسطة الجيش والشعب من الانهيار الذي أوصلتها إليه الأوضاع خاصة النظام الثلاثة الاحتلال والسراي والأحزاب السياسية[17] واجتمعت الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار أواخر سنة 1949م وكانت تضم في البوابة:

1. جمال عبد الناصر

[17] المجمل، ص:238

2. عبد الحكيم عامر
3. كمال الدين حسين
4. صلاح سالم
5. جمال سالم
6. حسن إبراهيم
7. عبد اللطيف البغدادي
8. خالد محي الدين
9. أنورسادات
10. زكريا محي الدين

انتخب عبد الناصر بالإجماع لرئاسة الهيئة وأعيد انتخابه في فبرائر 1952م وفي هذا الإجتماع اتفقوا على اختيار اللواء مُحَّد نجيب ليكون قائدا للحركة في يوم تنفيذها.

وفي فجر يوم 22 يوليو 1952م تقوم مجموعة الضباط الأحرار بحركة الجيش بقصد تطهير البلاد، وفي 26 يوليو طلبت من الملك فاروق مغادرة البلاد والتنازل عن عرش البلاد لإبنه الطفل أحمد فؤاد الذي ينادى به ملكا الملك بإسم الملك أحمد فؤاد الثاني ملك مصر والسودان.

وخلال السنة التالية لحركة الجيش التي حافظت في أول أيامها على الشكل الدستوري للبلاد، تتغير الأحوال شيئا فشيئا، فيتم تشكيل مجلس الوزراء برئاسة اللواء مُحَّد

نجيب قائد الجيش، ويضم إلى عضويته بعض الضباط الأحرار الذين يتولون أيضا نصيا من إدارة البلاد من خلال مجلس قيادة الثورة، ويصل الأمر إلى إلغاء الحكم الملكي وإعلان الجمهورية في 18 يونيو 1952م، وتعين اللواء مُحَمَّد نجيب رئيسا للجمهورة ورئيسا لمجلس الوزراء و رئيسا لمجلس قيادة الثورة معا، ولكنه نحي في نوفمبر1954م وتولى جمال عبد الناصر مقاليد الأمور بصفته رئيس الوزراء ورئيس مجلس قيادة الثورة إلى أن انتخب رئيسا للجمهورية في يناير1956م، وبعد وفاته سنة 1970م أعقبه أنورسادات رياسة الجمهورية ثم الرئيس حسني مبارك.

جمال عبد الناصر 1954م-1970

جاء الضباط الأحرار بتغير جذري في عملية الحكم، ففي 10ديسمبر 1952م أعلنت الحكومة سقوط دستور سنة 1923م، وفي 13 يناير 1953م تشكلت لجنة من خمسين عضوا لوضع دستور جديد يتفق أهداف الثورة، وقد وضعت إحدى اللجان الفرعية المنبثقة عن لجنة الخمسين تقريرا فيما بعد رأت فيه أفضلية النظام الجمهوري عن النظام الملكي. وفي 10 فبراير 1953م بصدر إعلان نظام دستوري مؤقت.

دستور 1956م:

كان التاريخ المحدد لإنتهاء الفترة الانتقالية هو 16 يناير 1956م وفي هذا اليوم أعلن عبد الناصر مشروع الدستور الجديد في خطاب عام وحدد الدستور يوم 23 يونيو 1956م موعدا لاستفتاء الشعب على الدستور وعلى رئاسة الجمهورية.

وبناء على النظام الدستوري الجديد ألغى مجلس قيادة الثورة كما ألغى منصب رئيس مجلس الوزاراء، فدستور 1956م يأخذ بالنظام الرئيس الذي يتولى فيه رئيس الجمهورية المستولية التنفيذية الكاملة يعاونها عدد من الوزراء.

وكانت مصرفيتلك الأثناء تعد لمشروع هام وهو بناء السد العالي وبصفة مبرئية، كان البنك الدولي بالإنشلء والتعمير قد وافق على إقراض مصرلإنشاء السد العالي، كذلك وافقت على تمويل جزء من القرض اللازم كل من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، ولكن هاتين الدولتين سحبنا هذه الموافقة، وكذلك فعل البنك الدولي كنوع من الضغط على مصرنظرا لإتجاههما نحو سياسة الحياد الإيجابي، وعدم الإنحياز وعدم الإنضمام للأهداف العسكرية، وكان الرد المصري على هذه الخطوة هو تأقيم أسهم قناة السويس في 26 يوليو 1956م حتى تتمكن مصرمن الاستفادة مدخل القناة في تشييد مشروعها العملاق مما أدى إلى العدوان الثلاثي على مصرفي 29 أكتوبر 1956م، واحتلت جيوش الدول الثلاث إسرائيل وإنجلترا وفرنسا على معظم شبه جزيرة سيناء ولكنها اضطرت بعد أقل من شهرين إلى الانسحاب تحت ضغط الجمهورالسياسة وحشد الرأي العام العالمي ضدها، وتم الجلاء في ديسمبر1956م.

الجمهورية العربية المتحدة:

وفي أول فبرائر1956م أعلنت مصروسوريا الوحدة بينهما إلا أن هذه الوحدة لم تستمرإلا ثلاث سنوات ونصف.

ميثاق العمل الوطني:

وفي مايو 1962م قدم عبد الناصرللأمة المصرية ميثاق العمل الوطني الذي ينشأ بمقتضاه الاتحاد الاشتراكي العربي، وفي سبتمر1963م يصدر إعلان دستوري لتنظيم أجهزة الحكومة، يتشكل بمتقتضاه مجلس للرئاسة برئاسة رئيس الجمهورية وعضويته تسعة أعضاء ينكمشون فيما بعد إلى سبعة فقط، ويكون مهمته وضع السياسة العامة ومراقبه تطبيقها ومجلس آخر هو المجلس التنفيذي يضم الوزراء، وفي مارس 1964م يصدر دستور جديد للبلاد ويعلن أنه دستورمؤقت لحين إصدار دستور دائم فيما بعد، مؤسس على تبنى النظام الاشتراكي الديمقراطي وبموجبه يتم إلغاء مجلس الرئاسة.

النكسة 1967م:

ويتعرض مصرلعدوان إسرائيلي على آراضيها في الخامس من يونيو 1967م ويتمكنه إسرائيل عن احتلال شبه جزيرة سيناء بقواتها وأمام هذه الهزيمة العسكرية والنفسية القاسية يحاول عبد الناصرأن يتنحى عن رئاسة الجمهورية إلا أن الجماهيرتصرعلى بقاءها.

وفي سبتمر1970م صدمت الجماهيرالمصرية والعالم العربي بالوفاء المفاجأة بعبد الناصر.

أنور السادات (81-1978م):

تولى أنورالسادات رئاسة جمهورية مصر بعد وفاة جمال عبد الناصر ورغم المشاكل التي واجهتها لمصر داخليا ورغم وجود الاحتلال الإسرائيلي على أراضيها إلا أنه مستمر في الجهود نحو الوحدة العربية، ففي ديسمبر1970م يتم توقيع اتفاق القاهرة بين الرئيس المصري أنورالسادات والرئيس السوري حافظ الأسد والرئيس الليبي معمر القذافي على قيام اتحاد بين الدول الثلاث، يطلق عليه اتحاد الجمهورية العربية ولكن هذا الاتحاد من الناحية العلمية لم يكن له نتائج إيجابية ملموسة ووجودها كان أميل إلى الناحية الشكلية.

الأحوال السياسية

يجدر بأن نذكر الأمور السياسية التي سلكها مُحَمَّد أنور السادات بالنسبة إلى الخارج والداخل علىحدة. ولما كانت قراراته السياسية تتعلق عامة بالخارج يتم التعامل معها أولا.

السياسة الخارجية

قد غير الرئيس أنور السادات السياسة المصرية الخارجية تغييرا جذريا، حيث أنه اقترب بمص من الولايات المتحدة وابتعد عن الاتحاد السوفيتي عكس المواقف السياسية التي سلكها جمال عبد الناصر سابقا. ولم يكن تغيير مجرى السياسة المصرية مجوفة وإنما نبع عن نظريته السياسية والاقتصادية. فإنه انتهج اللبرالية في السياسة والرأسمالية في الاقتصاد عكس جمال عبد الناصر الذي سلك مسلك الاشتراكية. أيا كان السبب، فقد

أحـدث أنـور السـادات تحـولا واضـحا مـن السـابق. وقـد حـدث التغيـير في مـرحلتين: قبـل حرب 1973م و بعدها.

كـان مؤظـف الاتحـاد السـوفيتي قـد قـاموا بخدمـة أغلـى بتـدرريب القـوات المصـرية ولكـن أنـور السـادات أعلـن فجـأة عـن أنـه قـد طلـب المـؤظفين السـوفيت أن يبركـوا مصـر.[18] وكـان لهـذا الأمـر أن يضـرب القـوات المصـرية حيـث أن السـوفيت كانـت قـد زودت مصـر بالتكنولوجيـا والتـدريب. وكـان السـادات يرجـو مـن هـذه الخطـوةللعم َ الأمريكـي لكـي يعـوق الحـرب مـع اسرائيل، ولكن الولايات المتحدة لم تقم بمساعدته عن أي طريق.

وبعـد حـرب 1973م كـان التحـول أي الاقـتراب مـن الـولايات المتحـدة والابتعـاد مـن الاتحـاد السـوفيت واضـحا إذ أن السـادات عـزز العلاعـة مـع الـولايات المتحـدة تعزيـزا وثيقـا وتنازل عن اتفاقية الصداقة كان وقعها مع الاتحاد السوفيتي.[19]

المهـم بالـذكر أن التحـولات الجميعـة الـتي جـاء بهـا السـادات في سياسـة واقتصـاد مصـر نبعـت عـن اقترابـه مـن الـولايات المتحـدة وأيديولوجيتـه اللبراليـة في السياسـة والرأسماليـة في الاقتصـاد، ممـا تمخـض عـن نفـوره عـن كـل مـا يتعلـق بالنظـام السـابق الناصـري، مـن الاشـتراكية والعلاقـة الوطيـدة مـع السـوفيت. ومـن هـذا المنطلـق كـان التطـور الجديـد الـذي

[18] Marsot, Afaf Lutfi Al Sayyid, A History of Egyplt : From the Arab Conquest to the Present, pg. 157.

[19] المصدر نفسه، ص158.

جاء به الرئيس السادات حدث في موقف مصر من اسرائيل بعد حرب 1973م. حيث أن اقترابه من أمريكا وتغيير الموقف من اسرائيل كانا قراري متلازمين.

حرب 1973م

قبل التعامل مع تغيير العلاقة مع اسرائيل علينا أن نتحدث عن حرب اكتوبر/ أو حرب 1973م، الحرب التي أثرت هي وما بعدها من قرارات مصرية المجتمع المصري والسياسة المصرية من نواحي شتى. في هذا الصدد لا تسعنا التفاصيل المتصلة بالحرب من الأسباب والمجريات، الذي همنا هو كيف أثرت الحرب ونتيجتها المجتمع المصري. النتيجة الأكثر أهمية أن حرب 1973م حطمت أسطورة أن القوات الاسرائيلية لن تقهرها العرب. قامت القوات المصرية والسورية بهجومات متواقتة واستطاعت أن تجتاح بالقوات الاسرائيلية في وقت قليل وصفعت العالم الذي لن يكاد يصدق أن القوات الاسرائيلية في حالة من الفوضى والتشتت.[20] ومن أهم نتائجها أن مصر استردت السيادة الكاملة على قناة السويس وجزؤ من أراضي شبه جزيرة سيناء وأهم شييئ أن العرب استردو الثقة بأنفسهم ولمح للمجتمع العربي أمل جديد في الحياة العالمية. ولكونه قاد العرب إلى الانتصار رحب العرب بالسادات كبطل وزعيم شجاع. إلا أنه لم يلبث أن وقع تحت الضغوط الأمريكية، فوقع معاهدة مع اسرائيل تحت الـ"دبلوماسية المككوكية" للزعيم الأمريكي "كيسنجر". تحت هذه المعاهدة انسحبت اسرائيل من قناة السويس. وإن

[20] Hopewood, Drek, Egypyt: politics snd Society 1945-1990, 3rd edition, Harper Collins , London, 1991, pg. 107.

المعاهدة نتجت عن تطورين آخرين، وهما زيارة السادات إلى يروشلم وتوقيع مصر على معاهدة "كامب ديفيد" عام 1978م. قد كون هذان التطوران تحويلا مهما في السياسة المصرية، وذلك اقتراب مصر م الولايات المتحدة المتصاعد مما يعني أن مصر الآن في خيمة الرأسماليين. وتحت معاهدة كامب ديفيد تم توقيع اتفاقية السلام بين اسرائيل ومصر في قيادة الرئيس الأمريكي "كارتر" في مارس 1979م. رضيت اسرائيل تحت المعاهدة بالانسحاب من سيناء، وسريعاما أنشئت بينهما علاقة دبلوماسية وتجارية، فسمح بالسفن الاسرائيلية لأن تمر عبر قناة السويس، وكذلك تولت الولايات المتحدة مراقبة سيناء.[21]

فازت مصر إلى هذا الحد إلا أن رئيس الوزراء الاسرائيلي ما زال يتفوه بالخطابات المسمومة، فأكد أن المستعمرات الاسرائيليو تستمر وكذلك تستمر يروشلم المتحدة وكما أنه ما زال يرفض وجود الدولة الفلسطينية.فبالنتيجة، لم تؤدي معاهدة طامب ديفيد ومعاهدة السلام إلا إلى أن السادات لم يستطع أن يفاوض إلا على سلام مستقر بمصر يمكّنه من أن يسترد شبه جزيرة سيناء. وذلك أدى إلى تنحية مصر من العالم العربي فتم فصله من "جامعة الدول العربية" وانقطعت علاقاتها الدبلوماسية مع الدول العربية. كما أن العدد الكبير من المصريين استنكروا كعاهدوكامب ديفيد لما فيها من فقرات بالنسبة للقضايا الفلسطينية التي لا تسوي أمرها وإنما نحتها وعلقتها. ومن نتيجة معاهدة السلام مع اسرائيل التي تستثني مصر من الدول المناوئة لاسرائيل، أنها

[21] المصدر السابق، ص110.

حولت الدول العربية الأخرى ضعيفة أنها فقدت القوات المكافحة الرئيسية. ونتيجة لذلك أصبحت اسرائيل أشد عنادا وعدوانية.

الأحوال السياسية الداخلية

وعلى الصعيد الداخلي يبدأ أنورالسادات بانقضاء على مأساو بمراكز القوى في حركة أطلقت عليها الصحافة إسم ثورة الصحيح، أي تصبح مسارة ثورة 1953م، ثم إنه بعرض على الشعب أخيرا الدستور الدائم للبلاد في سبتمبر 1971م الذي يعيد لمصرإسمها فيصبح جمهورية مصرالعربة بدلا من الجمهورية العربية المتحدة

من منطلق أيديولوجيته الاقتصادية والسياسية غير السادات السياسة الداخلية المصرية تغييرا راديكليا جذريا حيث أنه احتاجت إلى نظام سياسي مرن لكي ينفذ سياساته الاقتصادي دون عرقلة. فأقدم على وضع نظام لبرالي ديمقراطي. مع أنه لم يستطع أن يرسخ حياة سياسيةجديدة، إلا انه بادر على محاولات عديدة. وفي تغييراته السياسية يهم أن نذكر تغيرين، هدم ما سماه بـ"مراكز القوى" وأخرى "ثورة التصحيح".والذي كان يستهدف السادات هو القضاء على كل ما ينتمي إلى السياسة الناصرية التي كانت قائمة على اساس الاشتراكية والعدالة الاجتماعية، فكان من أهم مسؤلية الحكومة العمل على رخاء الناس. هدم السادات ما سماه بـ"مراكز القوى"، فنحى نخبة الضباط العسكرية، ونخبة الوحدة الاشتراكية العربية، وضباط الخدمة المخابراتية وضباط البوليس

التي تألفت هي منها. ومبادرته التي سماها بـ"ثورة التصحيح" التي جاء بها في مايو عام 1971م ، أضعف مراكز القوى عن كريق تطهيرها من مجموعة المؤظفين.[22] إنه ادعى أن الديمقراطية لم تترسخ إلا في نظام قانوني عادل يحترم حقوق الأفراد. وجاء بدستور جديد في سبتمبر لعام 1971م. وكذلك تم انتخاب المجلس الوطني الشعبي الذي شرع النقد والجدال بحرية تامة. ثم وضعت الوحدة الاشتراكية العربية تحت القيادة المدنية.

ولكن الواقع أنه لم يتم الانتقال إلى نظام لبرالي ديمقراطي حر. وذلك يرجع طريقة عمل السادات الأوتوقراطية المستبدة. وكان منطق النظام الابرالي يتطلب تعدد الحزبية. فعلى الرغم من أن السادات سمح بالمنابر السياسية المختلفة إلا أنه حظر الأحزاب التي نقدته ولم ترض بسياسة الحكومة. فهكذا تم كبت وجود الأحزاب السياسية المتعددة. في الحقيقة كانت هذه الخطوة تستهدف كبت الأحزاب المعارضة التي تنتقد الأقدام الخاطئة للحكومة. وإنه كذلك قمع أي معارضة له ورفض أي محادثة على إقدامه. وإنه قلما شاور وزراءه، وعلى العكس أخذ الإجراءات عكس مشاورتهم. ولكي يقمع معارضة وتقد مبادراته هو وعائلته أيضا جعل المجلس الوطني يشرع "قانون العيب" عام 1978م، الذي جعل جريمة أي نقد للحكومة واصفا إياه بالغير الخلقي والمضاد لصالح الوطن[23]. فهكذا كانت خطوات معظم السادات تنافي الديمقراطية التي دعا بنائها. وكان الرئيس المصري السابق قد رفع النقابة عن الصحافة تحت نظامه اللبرالي، ولطنه سرعان ما أعاده

[22] المصدر السابق، ص 112.

[23] المصدر السابق، ص115.

لكي يقمع نقد رئيس الجمهورية وتطرفاته قمعا كاملا. فقد تم استخدام هذا القانون في عام 1981م للقبض على مجموعة مختلطة من الناس وإيداعهم السجن. ضم هؤلاء المساجين كلا من المحاربين الإسلاميين والمثقفين العلمانيين والنسائيات من نحو الدكتورة نوال السعداوي، وحسين الكامل الصحفي الشهير، وكذلك الصحفيين الآخرون والأساتذة الجامعيين.[24] وتمخض الحكم القمعي الدكتاتوري الذي أنشأه أنور السادات رغم دعواه اللبرالية عن الاختلال بالتواصلات السياسية، مما أسفرت عن ظهور العدد الكبير من الفئات المعارضة الراديكلية المختلفة. والشيئ المهم أنه ظهر عدد كبير من المؤسسات الإسلامية الراديكلية عارضت السياسة الساداتية علاوة على معارضتها للتحديث والتعير والتغريب والتغيرات المتأثرة بالحضارة الغربية. فهكذا واجه السادات المعارضة من كل جانب.

الأحوال الاقتصادية والاجتماعية

بعد تولي رئاسة مصر، قلب الرئيس أنور السادات الاقتصاد المصري رأسا على عقب. فهجر الاشتراكية، وانتحى بالاقتصاد المصري ناحية النظام الرأسمالي المبني على السوق الحر. وفتح الاقتصاد المصري بعد حرب 1973م بما يسمى بـ"سياسة الانفتاح". كان المرجو والمستهدف من سياسة الانفتاح استجلاب الاستثمارات الأجنبية والحفز بالمشاريع والشركات الخاصة المحلية. وكان رجاء الحكومة والنخبة الجديدة أن تستجلب

[24] Marsot, Afaf Lutfi Al Sayyid, A History of Egyplt : From the Arab Conquest to the Present, pg. 163.

هـذه السياسـة الرأسمـال والتكنولوجيـا الغربيـة وأن تسـتعملها مـع الرأسمـال المحلـي والعمالـة المصرية الرخيصة. إلا أن محاولة استجلاب الرأسمال الأجنبي لم تنجح.[25]

علـى العكـس جـاءت سياسـة الانفتـاح بنتـائج سـيئة كثـيرة قلبـت معيسـة المجتمـع المصـري رأسـا علـى عقـب. فقـد أسـفرت سياسـة الانفتـاح عـن التضـخم المـالي الهـائج ممـا أدى إلى المشـاكل المعيشـية للطبقـات الضـعيفة والفئـات الـتي تعـيش علـى الـدخل المحـدود، مـن البيوروقراطيـة الصـغيرة وضـباط العسـكرية، وإضـافة إلى ذلـك أنجتـب هـذه السياسـة طبقـة جديـدة طفيليـة مـن المقـاولين، الطبقـة الـتي ادخـرت ثـروة لا بأس بهـا واسـتهلكت هـذه الثـروة علـى السـلع الفـاخرة[26] بـدلا مـن أن يسـتثمر هـذه الثـروات في إحيـاء الاقتصـاد المصـري. وظـاهرة الاسـتهلاكية الفـاخرة الجديـدة هـذه الـتي بـرزت في أعقـاب سياسـة الانفتـاح أدت إلى تصـعيد المزيـد مـن الاسـتهلاكية في المجتمـع المصـري الـتي خلفـت آثارا سـلبية كثـيرة عليـه ولمدة طويلة.

وحصـلت هـذه الاسـتهلاكية حـوافز مـن هجـرة المصـريين إلى الـدول الخليجيـة والـدول الأخـرى. وهـذه الظـاهرة الجديـدة بـين المصـريين للهجـرة إلى دول الخلـيج والـنفط هـي نفسـها نتيجـة سياسـة الانفتـاح حيـث أنهـا أجـازت العمـال ذوي الياقـات الزرقـاء أن يهجـروا إلى دول الخلـيج النفطيـة. وكـذلك تـدفق المهنيـون مهـاجرين إلى هـذه الـدول. و'الظـاهرة الجديـدة الـتي بـرزت هـي أن الفلاحـين أيضـا أخـذوا في الهجـرة للعمـل فـب مشـاريع

[25] المصدر السابق،ص 159.

[26] المصدر السابق، ص161.

البنـاء'.[27] إن هـذه الظـاهرة الجديـدة كانـت مضـرة جـدا للمجتمـع والاقتصـاد المصـريين، حيـث أن ذلـك أدى إلى تقلـص العمـال المنتجـين في مصـر ونتيجـة لـذلك ارتفـع سـعر السـلع الضـرورية ممـا ارتفـع بتكـاليف النـاس وخاصـة الطبقـة الضـعيفة. ثم إن هـؤلاء النـاس اسـتهلكوا هـذه النقـود الآتيـة مـن الخـارج علـى السـلع الفـاخرة ولـيس في الاسـتثمار الإنتـاجي. و'أسـوأ شـيئ أن الفلاحـين اسـتثمروا في ابتـاع الآراضـي ممـا أدى إلى ارتفـاع صـاروخي في سـعر الأرض. وشـهد المجتمـع المصـري نمـو المبـاني والشـقق السـامخة الفـاخرة، علـى حـين عانـت الطبقـة المتوسـطة والطبقـة المحـدود الـدخل مـن إهمـال بالنسـبة للسـكن'.[28] فهكـذا شـهد المجتمـع المصـري الـترف والغـنى جنبـا بجنـب الفقـر المضـني، واتسـعت الفجـوة بـين الأثـيرياء الجـدد والفقـراء.[29] وأسـوأ شـيئ للاقتصـاد المصـري أن السـلع الأجنبيـة حلـت محـل السـلع المصـرية. وقامـت البورجوازيـة بتشـجيع نمـو الريسـتوررانات ومحـال التجـارة الـتي تعامـل بالسـلع الأجنبيـة. ولقـد ترصـد عـدة مـن روايات صـنع الله ابـرهيم ولا سـيما روايـة "ذات" وروايـة "شـرف" لهـذه الظـاهرات مـن مثـل الاسـتهلاكية والهجـرة إلى دول الخلـيج وارتفـاع الصـاروخي في الأسعار والسلع الأجنية التي تحفل محال تجارة مصر.

وفي نفـس الوقـت ازدادت الـديون الأجنبيـة علـى مصـر ولم تسـتطع مصـر أن تـدفع الفوائـد. وا تم إنفـاق تسـبة كبـير مـن المسـاعدات الأمريكيـة الـتي حصـلت عليهـا مصـر اعلـى

[27] المضدر السابق، ص161

[28] المصدر السابقن ص161.

[29] المصدر السابق، ص 162.

الـدعم الغـذائي. ولم تسـتثمر في المشـاريع الإنتاجيـة المحفـزة بالاقتصـاد إلا نسـبة ضـئيلة. وعلـى إشـأ{ة مـن الصـندوق المـالي الـدولي ألغـى االـرئيس السـادات الـدعم الغـذائي لكـي يقـوم بالاسـتثمار فـب المشـاريع الإنتاجيـة. أدى هـذا الإعـلان لعـام 1977م إلى "اصـطرابات غذائيـة" هائجـة مرهبـة، اهتـاج النـاس وأخـذوا يهجمـون علـى كـل مـا يـدل علـى الثـروة والـترف مـن السـيارات الفـاخرة والملاهـي الليليـة والأجانـب، ولم تهـدأ هـذه الاضـطرابات إلا عـن طريـق اسـتخدام الجنـود.[30]كشـفت الاصصـطرابات الغذائيـة عـن واقـع الاقتصـاد المصـري وعـن الحالـة المعيشـية السـيئة الـتي تعـيش فيهـا الطبقـات الفيقـرة مـن المصـريين، ممـا صـعد اسـتياء وسـخط النـاس إلى الحكومـة السـاداتية.والجـدير بالـذكر أن الاضـطرابات الغذائيـة كانـت أوج سـخط المصـريين الـذي بـذر جـذورها في أعقـاب معاهـدة كامـب ديفيـد ومعاهـدة السـلام مـع اسـرائيل وأخـيرا سياسـة الانفتـاح الـتي جلبـت لعامـة النـاس مشـكل ضخمة.

وعـلاوة علـى هـذا، واجـه المجتمـع المصـري كثـيرا مـن المشـاكل. فإنـه تـدهورت معيشـة الفلاحـين للتـدهور في حالـة الزراعـة، إضـافة إلى ازدياد لا بأس بـه في عـدد السـكان، ممـا دفعهـم إلى أن يهجـروا إلى المـدن. والهجـرة إلى المـدن تمخضـت عـن إهمـال الأرياف والقـرى وخلوهـا مـن السـكان، مـع تكثيـف في التحضـير، ونتجـت في اكتظـاظ المـدن، وتقلـص في الآراضـي الزراعيـة، وسـوء حالـة السـكن للطيقـة المتوسـطة والعمـال المهـاجرين.

[30] المصدر السابق، ص159.

وكـذلك إن البطالـة انتشـرت في المجتمـع المصـري، ممـا كـان لـه أن يـؤدي إلى حلـة متفجـرة في المستقبل.

ومـن الأعمـال الجليلـة للـرئيس أنورالسـادان تخطـيط وقيادتـه لحـرب أكتـوبر 1973م الـتي أعـادت لمصـركرامتها، فثـأرت لنفسـها مـن إسـرائيل في 1960م ة 1967م واسـتعادت جـزءا هامـا مـن أراضـيها بالمعركـة الحربيـة، وفي 1979م و 1989م قـام بتوقيـع معاهـدة السـلام مـع إسـرائيل.وعلـى الصـعيد الـديمقراطي نادى أنورالسـادات بالتعدديـة الحزبيـة داخـل الحزب الوفد وهو الاتحاد الاشتراكي، وفي أكتوبر1981م مات أنورالسادات مقتلا.

حسني مبارك:

بعـد وفـاة أنـور السـادات تـولى حسـني مبـارك مقاليـد الأمـور 14 أكتـوبر1981م واستمر حتى ثورة 2011م.

وفي عهـده تم تنفيـذ المرحلـة الثالثـة مـن اتفاقيـة السـلام والـتي بموجبهـا انسـحبت إسرائيل وعادت سيناء بالكامل إلى السيادة المصرية الكاملة.

وفي البدايـة تبـنى حسـني مبـارك شـيئا مـن الانفتـاح والليبراليـة في السياسـة، فـأطلق سـراح الكثـيرين مـن المعتقلـين السياسـيين مـن عهـد أنورالسـادات وأعلـن عـن الحـرب علـى الفسـاد.[31] إلا أن حسـني مبـارك تراجـع عـن هـذه الأقـدام في نهايـة المطـاف وتبـنى الدكتاتوريـة الـتي مثـيرت الحيـاة المصـرية، فالانتخـابات البرلمانيـة السـتة الـتي وقعـت خـلال حكمـه لم يكـن

[31]The Middle East, Pg:455

منزهـة و حـرة.[32] فكـان حسـني مبـارك بنقصـية الاحـترام للديمقراطيـة هـذا، يتمثـل تمتـد ظـاهر في قمعـة علـى حـق النـاس للتنظـيم سياسـيات وإنـه وضـع الدولـة المصـرية مـن 1981م إلى 2012م بعد إغتيال أنورالسادات في شبه حالة طارئة قامعة الحرية والحقوق البشرية.[33]

[32]The Middle East, Pg:455
[33]أيضا، ص: 459

الفصل الثاني

حياة صنع الله ابراهيم

صنع الله ابراهيم من أبرز كتاب مصر والعالم العربي في العصر المعاصر وإنه في مقدمة الطليعة للنزعة الجديدة في الرواية العربية التي أخذت المكانة المركزية في الأوساط الثقافية العربية في الستينات من القرن العشرين. تشتمل مساهماته في الأدب العربي على القصص القصيرة والروايات والكتابات للأطفال والترجمات للأعمال الغير الروائية.

الولادة والنشأة

صنع الله إبراهيم من مواليد القاهرة، ولد الروائي الكبير في عام 1937م لوالد قد تجاوز عمره الخمسين سنة، وكانت له زوجة سابقة. "فقد كان على مشارف الستين عندما أنجبني من زوجة ثانية."[34] ولد صنع الله ابراهيم لأم كانت ممرضة لدى زوجة أبيه الأولى، وانتمى أبوه إلى الطبقة المتوسطة العليا حيث أنه كان خادما مدنيا من المنصب الأعلى، 'فقد عمل في الوزارة الحربية في مصر والسودان'[35] وكان رجلا قد تقاعد على المعاش حينما ولد صنع الله ابراهيم، وكان له أبناء من زوجته الأولى. هكذا شاهد هذا الروائي الكبير التناقضات في الحياة منذ مقتبل عمره، وكان لهذا الأمر أثر بالغ في نشأته

[34] ابراهيم، صنع الله، يوميات الواحات، الطبعة الأولى، دار المستقبل العربي، شارع بيروت، مصر الجديدة، القاهرة، 2003، ص7.

[35]Starkey, Paul, Sonallah iibrahim: Rebel with a Pen, Edinburgh University Press, Uk, 2016,pg. 17.

وتكوينه النفساني. فقد انتمت أمه لطبقة فقيرة بينما كانت أسرة أبيه تنتمي إلى الطبقة المتوسطة العليا أي الطبقة البورجوازية الأثيرة. وإن صنع الله ابراهيم واجه مشاكل كثيرة لهذا السبب 'إذ أن أسرة أبيه سلك معه بنظر الاحتقار والازدراء'[36]. ماتت عنه أمه وهو في سن صغير جدا كما أن الأم أيضا كانت في صغر سنها حينما توفيت من هذه الدنيا. ولصغر سنه لم يستطع الروائي أن يجد تفسيرا لهذ الغياب لأمه في وقت مبكر وقد يبدو أن 'صنع الله ابراهيم عانى كثيرا من المشاكل لهذا التطور'[37] الغير المفسر في حياته، مما نتج عن وحدته وعزلته وملازمته لأبيه في معظم الأحيان. يصور الروائي هذه الناحية من حياته في صورة مثيرة جدا في روايته شبه الذاتية "التلصص". وعلاوة على ذلك كان الروائي طالبا متوسطا وسرعان ما سأم الحياة المدرسية، ونتيجة لجميع هذه العناصر لجأ الروائي إلى عالم الـ"فنتازيا"،عالم الروايات الجيبية التي كانت في رواج سائد حينذاك. فتعرف على أبطال من نحو "أرسين لوبين" و"روبن هوود" و"تري مسكيتيرس (Three Musketeers)" وكابتن بلد"(Captain Blood).[38] وكان لهذه القراءات البدائية تأثيرا على تكوين مزاجه وطباعه لأن هذه الروايات كانت تتمحور على نهب الأموال من الأثرياء وإعطائها للفقراء. كما أنه حاول أن يكتب القصص من هذا الطباع وهو في سن مبكر، في الثاني عشرة من عمره وسعى أن يترجم القصص من الانجليزية.[39]

---

[36]المصدر السابق،17.

[37]المصدر السابق، ص17.

[38]المصدر السابق، ص17.

[39]المصدر نفسه، ص 18.

ولقد كان لأبيه أثر بالغ على صنع الله ابراهيم، حيث إنه هو الذي شجعه على القراءات وجمع له من السوق العدد الكبير من روايات الجيب. "ثم كان هو الذي شجعني على القراءة ومازلت أذكر الليلة الأولى التي عاد فيها إلى المنزل حاملا ربطة كبيرة من روايات الجيب المستعملة المتنوعة."[40] وكان لسنه الكبير يلازمه في معظم الأحيان. "وخلق بيننا تقدمه في السن- واختفاء أمي المبكر- العلاقة الحميمة التي تنشا بين الجد والحفيد. كنا نلعب معا "النرد" "والورق" وأشاركه مزة البيرة التي يحبها ويشربها مرة في الشهر."[41] والذي هو أبرز شي في مقتبل عمر صنع الله ابراهيم، والذي بدوره كان له أثر كبير مهم جدا في تكوينه النفسي، هو التناقض الواضح في ظروف الحياة التي عاشها. فعلى جهة إنه مر بالتناقض الطبقي (أمه من الطبقة الدنيا الفقيرة) حيث تواجدت الثروة جنبا بجنب مع الفقر المنهك، إنه على الجهة الأخرى اختبر تناقض الدينية والدنيوية. فإن أباه كان رجلا متدينا من ناحية ومن ناحية أخرى نراه يتمتع بالبيرة، وإن أباه متدين ولكنه في الوقت نفسه يعتقد بالعقائد الدينية المنافية للدين، وإنه رجل مثقف عصري في كثير من النواحي ولكنه في الوقت نفسه يعتنق بالكثير من الخرافات. 'وكان أبوه مثل الكثيرين من أبناء عصره متدينا مستنيرا يربط التعاليم الدينية والأخلاقية بالواقع المستوحي من تجاربة الواسعة وبعضها نابع من تنقلانه في أنحاء مصر والسودان، بحكم وظيفة المدنية في وزارة الحربية، وآمن في الوقت نفسه بكثيرمن الأمور

[40] ابراهيم، صنع الله، يوميات الواحات،ص7.

[41] المصر السابق، ص7.

الغيبية وبالسحر والشعوذة، وقد أفاد الروائي هذا التناقض في شخصية أبيه، فقد تشرب منه صنع الله إبراهيم احترام الكثير من القيم الدينية السامية، وفي الوقت نفسه كراهية المحتل الإنجليزي والملك والأحزاب الفاسدة والاستعداد للتمرد على الأوضاع والأفكار السائدة وعدم التسليم بما لا يتفق مع العقل، وفتحت له حكايات أبيه عالما مثيرا من المثل والبطولات والإعجاب بـ عمربن الخطاب وعلي بن أبي طالب، وكراهية معاوية بن أبي سفيان، وعند ما بلغ في تطوره مرحلة التمرد غالبة، وجدت لتمردي في الجزء الغيبي من أفكاره.'[42]

حكاية مثيرة لتسمية هكذا:

قد تحدث الروائي عن سبب تسمية بهذا الإسم الذي سبب له الكثير من المشاكل، يقول: "عند ولادتي كان والدي يبلغ الستين من العمق وقام بصلاة استخارة ثم فتح المصحف فوضع أصابعه على كلمة "صنع الله الذي أتقن كل شيء"، من هنا تمت تسمية صنع الله، ولكن هذا سبب لي مشاكل كبيرة، فعندما كنت في المدرسة لأنه كان إسما غريبا، وكان دائما مثار فكاهة للناس، أذكرأن المدرس كان يقول لي(صنع الله؟ ما كلنا صنع الله)".

[42] المصدر نفسه،8.

التعليم والدراسة والنشاطات السياسية

كان الروائي صنع الله ابراهيم متواضع الأداء في الدراسة، ولم تستسغه الحياة المدرسية، فلجأ إلى عالم الوحدة والخرافات والقصص والمسرحيات. "دفعني الملل من المدرسة (التي فيها متواضع الأداء) فضلا عن ظروفي العائلية إلى عام القصص الساحر."[43] وفي عام 1950م انتقلت أسرته إلى العباسية حيث أكمل دراساته المدرسية.

تميزت سنوات شبابه بغليان المشاعر الوطنية ضد الإنجليز والطبقة الإقطاعية الحاكمة، وتكونت كتائب الفدائيين في منطقة القناة بينها شن أحمد حسين هجوما صاعقا على الملك وقفز توزيع جريدة "الاشتراكية" بعناوينها المثيرة التي تدعو إلى الثورة، وانتشرت الصحف المعارضة مثل "الجمهور المصري" "والملايين" التي كانت تصدرها الحركة الديمقراطية المتحرر الوطني (حدتو) علانية ومن ناحية أخرى كانت "أخبار اليوم" تشن حملة مركزة على مصطفى النحاس، وحكومته وتنشر له صورا له تبرز خاتمه الماسي وفراء زوجته الناصر.[44]

يتميز شبابه بنشاط سياسي كبير جدا، وقد ظهرت لدى الروائي نزعة النشاطات السياسية في سن مبكر، فقد أخذ يشترك في المسيرات والاحتجاجات والتظاهرات السياسية وهو لم يتجاوز العقد الثاني من عره بعد. ففي بداية سنة 1952م

---

[43] المصدر نفسه، ص8.

[44] يوميات، ص: 10

اشـترك الروائـي في التظـاهرات المتعـددة الـتي وقعـت في "جامعـة القـاهرة" وفي الأمـاكن الأخرى حيث تعرف على الكثير من الطلاب والمثقفين الذين أصبحوا فيما بعد زملائه في سجن الواحات والذين هم بدورهم أصبحوا في المستقبل شخصيات شهيرة في الأوساط الثقافية والسياسية المصرية[45]. "كانت سنة 1952م سنة حاسمة في حياتي وحياة البلاد. في بدايتها اشتركت في المظاهرات التي خرجت من كليتي العلوم والهندسة بقيادة عادل فهمي وعادل حسين وحسن صدقي (واجتمعنا جميعا فييما بعد بسجن الواحات). وحضرت الاجتماع الحاشد في قاعة الاجتامعات الكبرى في الجامعة بأيام والذي هتف فيه الطالب الوفدي أحمد الخطيب (وكان يبدو بطرروشه في سن أبي) بسقوط الملك."[46] وفي هذه المرحلة، إنه اعتقل أيضا قبل أيام عديدة مما يسمى بحريق القاهرة التي وقعت في 26 ينار سنة 1952م.[47] "وسمح لي أبي بالذهاب إلى الاجتماع العام الأسبوعي لحزب أحمد حسين الاشتراكي في مقره... وفي نهاية الاجتماع حاصرت الشرطة المكان وقبض علي لأول مرة وقضيت ليلة في قسم شرطة السيدة زينب. وبعدها بأسبوع شهدت القاهرة تحترق."[48]

وفي منتصف سنة 1952م التحق بجامعة القاهرة كان يريد أن يدرس القانون والنقد المسرحي، إلا أنه لم يستطع أن يستسيغ تفاصيل القانون.فإنه على الرغم من أن

[45]Starkey, Paul, Sonallah iibrahim: Rebel with a Pen, Pg. 18

[46]ابراهيم، صنع الله، يوميات الواحات،ص10&11.

[47]Starkey, Paul, Sonallah iibrahim: Rebel with a Pen, Pg. 18

[48]ابراهيم، صنع الله، يوميات الواحات،ص11.

كـان في الجامعـة لـثلاث أو أربـع سـنوات ولكنـه فشـل في الامتحـان مـرار وتكـرار، ولم يسـتطع أن يكمـل الدراسـة.[49] "وفي منتصـف السـنة قامـت الثـورة. وقـرب نهايتهـا التحقـت بجامعـة القـاهرة لدراسـة القـانون. لكـن علاقـتي بالجامعـة لم تختلـف عـن علاقـتي بالمدرسـة. فسـرعان مـا هربـت مـن قاعـات المحاضـرات إلى عـالم الكبـار المثـير. وحـرر بمفـردي جريـدة "الحـزب الاشـتراكي"يعلـم الحـزب عنهـا شـيئا."[50] لـذلك فإنـه ركـن إلى الصـحافة والسياسـة، وقـرر في هـذه المرحلـة مـن حياتـه أن يجعـل منهمـا مهمـة لـه، فانضـم إلى المنظمـات السياسـية اليسـارية وأخـرج المجـلات والأوراق الجداريـة وتعـرف علـى النشـيطين السياسـيين الـذين أصـبحوا مشـهورين في الأوسـاط الثقافيـة والسياسـية فيمـا بعـد، واشـتمل هـؤلاء بهـاء طـاهر ويوسف إدريس وإحسان عبد القدوس وتاج السر الحسن.[51]

وفي هـذه المرحلـة نفسـها أخـذ صـنع الله ابـراهيم في دراسـة الكتـب الفلسـفية الـتي تضـمنتها المسـابقة السـنوية الـتي كانـت تنظمهـا وزارة المعـارف ويتمتـع النـاجح فيهـا بمجانيـة التعلـيم الجـامعي. فتعـرف الروائـي علـى الغـزالي والـديكارت.[52] وفي هـذه المرحلـة أيضـا تولـدت لديـه النزعـة الأدبيـة فقـد أخـذ يميـل إلى آفـاق متنوعـة مـن الأداب العالميـة بالنتيجـة مـن تبـادل الكتـب مـع الأصـدقاء. فتعـرف علـى أعمـال تشـيخوف(Chekhov) وشـتاينبك (Steinbeck) وكالـدويل () وأمـادو () وبريخـت (Brecht)

[49] Starkey, Paul, Sonallah iibrahim: Rebel with a Pen, Pg.18

[50] ابراهيم، صنع الله، يوميات الواحات،ص11.

[51] Starkey, Paul, Sonallah iibrahim: Rebel with a Pen, Pg.18.

[52] ابراهيم، صنع الله، يوميات الواحات،ص11.

وايلـــوار()وســـارتر(Sartre) ومـــالرو(Malraux) وكـــامو(Albert Camus) وتومـاس مـان(Thomas Mann) وهنـري لوفـافر[53](Henry Lefebvre). "

كـان يـنظم إلينـا أحيـانا الشـاعر السـوداني جيلـي عبـد الـرحمن (الـذي نشـأ مـع فـاروق في بلـدة أنشـاط) ونـذهب معـه إلى النـادي النـوبي حيـث تعفنـا بمحمـود شـندي وابـراهيم شـعراوي وتاج الحسـن السـر وغـيرهم... وتـداولنا كتـب جـوركي وتشـيخوف...وتـرددنا علـى جمعيـة الأدباء ومجلـة "روز اليوسـف" حيـث تعرفنـا بيوسـف إدريـس وأحمـد بهـاء الـدين وإحسـان عبـد القـدوس وصـلاح حـافظ. وأعـددت ماكيتـا كـاملا لجريـدة "تابلويـد" حملتـه إلى عبـد المـنعم الصـاوي في غرفتـه الضـيقة علـى رأس درج مبـنى جريـدة "المصـري" في شـارع "القصـر العيـني"، وذلـك قبـل إغلاقهـا بشـهور. وحاولـت الالتحـاق بجريـدة "القـاهرة" اليوميـة في بدايـة صـدورها فترجمـت بعـض الأخبـار مـن صـحف انجليزيـة وذهبـت إلى دارهـا. وبقيـت في الردهة الخارجية حتى خرج لي سعيد لبيب وألقى نظرة عليها ثم اعتذر عن نشرها.[54]

وتصـادف هـذه التطـورات بمـا يسـمى بـ"أزمـات مـارس"، الصـراع السياسـي للاعـتلاء علـى السـلطة المصـري بـين جمـال عبـد الناصـر ومُحَّد نجيـب، الصـراع الـذي نشـب فـورا بعـد ثـورة 1952م وانتهـى بعـزل مُحَّد نجيـب في سـنة 1954م. في هـذه المرحلـة قـرر أن يخـوض النشـاطات السياسـية فـانظم بـ"حـدتو" الـتي كانـت تـدعو إلى الإطاحـة بمـا كانـت

[53] Starkey, Paul, Sonallah iibrahim: Rebel with a Pen, Pg18.

[54] ابراهيم، صنع الله، يوميات الواحات،ص13.

تسميه "الدكتاتورية العسكرية".[55] وفيما بعد أخرج هو وزميله مجلة بإسم "أنوارالجامعة" على نفقتهم الخاصة، أصدر للمجلة ثلاثة أعداد.[56]

وفي كلية الحقوق شكل هو ومصطفى الحسين وبدوي مُحَمَّد يدوي وآخرون جمعية "الثقافة الجديدة" التي نظمت ندوة عن الديمقراطية دعوا إليها عبد العظيم أنيس وعبدالرزاق حسن وأحمد بهاء الدين وصلاح حافظ وآخرين، وفي ذلك الوقت تعرضت حكومة الانقلاب إلى ضغوط أجنبية وأمريكية أساسا من أجل قيم البلاد لروؤس الأموال الأجنبية ودار نقاش ساخم حول هذا الموضوع في الصحف، فنظم صنع الله إبراهيم وأصحابه مناظرة بشأنه بين محبين ومعارضين وبالنتيجة قبض عليهم- عندما نشبت أزمة مارس بين مُحَمَّد نجيب وعبد الناصر، احتجزوا ثلاثة ليالي، ولعله قرر في هذه الفترة أن ينتقل من التظاهر إلى الفعل المنظم(ربما تحت التاثير السحري لرواية الأم لـ"جوركي") فالتحق بعدها مباشرة بتنظيم "حدتو" وهي الحروف الأولى عن الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني. فانكب على النشاط السري من اجتماعات وتوزيع منشورات تطالب بجبهة لإسقاط "الدكتاتورية العسكرية".

في هذه المرحلة كان هناك تغير واضح في سلوكه إزاء أخته وأبيه وأقاربه والناس عموما، فقد أمن أن الشيوعي يجب أن يكون قدوة لغيره في السلوك والخلق وأن يحق اتساقا بين حربه ضد الاستغلال وحديثه عن العدالة الاجتماعية وبين حياته الخاصة،

---

[55] Starkey, Paul, Sonallah ibrahim: Rebel with a Pen, Pg18.

[56] يوميات، ص:11

وبـدت قـيم الأمانـة والصـدق والإخـلاص والوفـاء والتضـحية والزهـد والتعـاني علـى المظهريـة واحترام المرأة والبعد الغرور منسقة مع التعاليم الدينية والمفاهيم الإنسانية.[57]

ثم مـات أبـوه في سـنة 1955م فانتقلـت أختـه للحيـاة مـع الأخ الأكـبر وبقـي صـنع الله ابـراهيم بمـرده وقـد أتيجـت لـه فرصـة الانغمـاس الكامـل في العمـل السياسـي.وهجـر الجامعـة وفـرض نفسـه علـى المحترفـين الثـوريين الـذين تفرغـوا تمامـا للعمـل السـري مقابـل راتـب ضـئيل مـن حصـيلة مسـاهمات الأعضـاء. لكنـه كـان محترفـا علـى حسـابه.[58] لا شـك أن همـه الأساسـي في هـذه المرحلـة كانـت السياسـة إلا أنـه واصـل شـفه بالنشـاطات الأدبيـة فكتـب قصـة غراميـة قصـيرة واشـتغل أيضـا بالترجمـة العربيـة الانجليزيـة. وفي هـذه المرحلـة اعتقـل لعـدة مرات أيضا.[59]

خـلال هـذه الفـترة اشـترك في طباعـة المنشـور الـذي غـير خـط الحـزب مـن الإسـقاط إلى التأئيـد في أعقـاب مـؤتمر بانـدونج في إبريـل 1955م[60].في السـنة التاليـة (1956م) اشـترك صـنع الله إبـراهيم في مظـاهرة نظمهـا أهـالي المسـجونين السياسـيين أمـام نقابـة الصـحفيين وقـبض عليـه مـن جديـد، ثم ألغـى الأحكـام العرفيـة فحـرج إلى الشـارع في نفـس اللحظـة الـتي كـان فيهـا جمـال عبـد الناصـر يعلـن تأمـيم قنـاة السـويس.[61] قـبض عليـه مـرة

---

[57]يوميات الواحات،ص15.

[58]ابراهيم، صنع الله، يوميات الواحات،ص15.

[59]Starkey, Paul, Sonallah Ibrahim: Rebel with a Pen, Pg.19.

[60]يوميات الواحات، ص15

[61]يوميات، ص: 16

أخرى بعد شهور قليلة عندما كان يوزع علنا منشورا بتوقع الحزب الشيوعي الموحد يدعو إلى الوقوف صفا واحدا خلف جمال عبد الناصر في مواجهة العدوان الثلاثي ثم أطلق سراحه بعد ثلاثة أيام بعد الإنذار السياسي[62].وبعد ذلك انتقل من العمل السري إلى العمل الجماهيري حيث أخذ في الاختلاط بالناس والتعرف على مشاكلهم و محاولة الوصول إلى تجمعاتهم. وكانت هذه عملية شاقة له بسبب شخصيته الانطوائية. لكنه تمكن من إقامة علاقات جيدة بالطلبة والمزارعين والضابطين المسؤلين عن هيئة التحرير.[63] وفي الوقت نفسه عاد إلى محاولة العمل في الصحافة، فكتب عرضا لكتاب على الشلقاني عن ثورة الجزائر نشر في مجلة "الهدف". ثم مقالا عن يعقوب بن صنوع حمله إلى شهدي عطية في مسكن أبيه.ثم خصص النهار للعمل السياسي وفي المساء كانت غرفية تتحول إلى ورشة كتابة ينظم إليها كمال القلش بأكوام من الكتابات التي لم تكتمل أبد ومهدي الحسيني. ثم اختاره شهدي عطية للعمل معه في منشأة صغيرة للترجمة التي أسسها. إنه تعلم من شهدي عطية أخلاقيات العمل الجاد المنضبط والترجمة من الانجليزية إلى العربية[64]

والسنتان 1958م و1959م تصاعدت النشاطات اليسارية والشيوعية في العالم العربي. ففي عام 1958م توحت المنظمات الشيوعية ("الموحد" و"الراية" و"العمال

[62]المصدر السابق، ص17.

[63]المصدر نفسه، ص 17.

[64]المصدر السابق، ص18.

والفلاحين"(في حزب واحد. وأدت هذه الوحدة نوعا من التسابق بين المنظمات الثلاث على الفوز بأكبر عدد من المقاعد في الحزب الجديد. وبعد ششهر تمت الوحدة السورية المصرية بنفس العجلة. ثم قامت الثورة العراقية التي شهدت في أسابيعها الأولى ازدهارا مدهشا للديمقراطية مما اثار القلق لدى عبد الناصر.[65] في هذه الأثناء تصاعدت حملة ضد الشيوعيين من كل جوانب أيضا إضافة إلى الصحف. ففي مقال هدد محمد حسنين هيكل بوضع أقفال من جديد على شفاه الشيوعيين. وجاءت الحملة بأسرع مما توقع الجميع وشملت الجميع من المؤيدين والمعارضين على السواء.[66]

ثم صعد الرئيس جمال عبد الناصر الحملة ضد الشيوعيين. وفي عام 1959م ألقى القبض عليه في سياق حملة شنها جمال عبد الناصر على اليساريين، وأودع في السجن التأريخي "سجن مصر". ثم نقل من هذا السجن إلى سجن الواحات الذي تألف من أربعة عنابر مختلفة للإخوان والشيوعيين والمعتقليين غير السياسيين. نقل صنع الله ابراهيم من سجن لآخر من الواحات إلى الإسكندرية ومن هنا إلى أبي زعبل. ظل الروائي سجينا سياسيا حتى1964م حينما قام جمال عبد الناصر بتسريح اليساريين إثر محاولته للتآلف مع الاتحاد السوفيتي.[67] وفي السجن شغف بالقراءة حيث أن السجن كان مزودا بمكتبة جيدة. وكان في السجن أنه تعرف على العدد الكبير من الأدباء

---

[65]المصدر نفسه، ص18&19.

[66]المصدر نفسه،ص19.

[67]Starkey, Paul, Sonallah Ibrahim: Rebel with a Pen, Pg. 21.

والنقـاد العـربيين والغـربيين. "السـجن هـو جـامعتي. ففيـه عايشـت القهـر والمـوت، ورأيـت بعـض الوجـوه النـادرة للإنسـان، وتعلمـت الكثـير مـن عالمـه الـداخلي وحيواتـه المتنوعـة، ومارسـت الاسـتبطان والتأمـل، وقـرأت في مجـالات متباينـة.وفيـه أيضـا قـررت أن أكـةن كاتبا."[68]

جوانب أخرى من حياته

درس صـنع الله إبـراهيم القـانون، ثم شـغفه نقـد المسـرحية الـتي درسـها لمـدة سـنة واحـدة، ثم انشـغل صـحفيا في عـدة صـحائف مصـرية حـتى اعتقالـه مـع العـدد الكبـير مـن اليسـاريين والشـيوعيين مـن 1959م إلى 1964م وبعـد تسـريحه مـن السـجن عمـل في مكتبـة صـغيرة في القـاهرة و أخـيرا رجـع إلى الصـحافة صـحفيا لـدى وكالـة الأنبـاء المصـرية (مينا)(MENA Middle East News Agency) عام 1967م. وفيما بعـد اشـتغل صـحفيا كمـدير لبيـورو اللغـة العربيـة ببرلـين الشـرقية لـدى وكالـة الأنبـاء الألمانيـة (the ADN, The Press Agency of German Democratic Republic) التابعـة لجمهوريـة ألمانيـة الديمقراطيـة حيـث أقـام لمـدة ثـلاث سـنوات مـن 1968م إلى 1971م.[69] وتلـت ذلـك إقامـة في موسـكو لمـدة ثـلاث سـنوات، درس

[68]يوميات الواحات، ص7.

[69]Mehrez, Samia, Egypt's Culture Wars: Politics and Practice, 1ST Edition, Routledge, 2008

خلالها (من 1971م -1974) الإخراج السينمائي[70]، وذلك ضمن دراسة علم التصوير السينمائي، عاد إلى القاهرة عام 1974م في عهد السادات، وبعد العودة عمل صنع الله إبراهيم كرئيس مدير التحرير لدى دارنشر رئيسا للتحرير من 1975م إلى 1976م، ومنذ ذلك الوقت اتخذ قرارا بأن ينذر نفسه للكتابة بصفة كاتبا حرا.[71]لا يزال صنع الله ابراهيم في قيد الحياة. وقد ساهم في حياته الطويلة في تطوير المجتمع المصري من الناحيتين السياسية والثقافية.فقد أخرج عددا كبير من الروايات والقصص كما أنه ترجم العديد من الكتب الأجنبية إلى اللغة العربية. إنه كذلك اشترك في الحركات المتعددة السياسية وخاصة حركة "كفاية" التي أدت إلى الإطاحة بحكومة حسني مبارك في سنة 2011م.

ميلانه إلى الأدب القصصي والروائي:

يقول الروائي صنع الله إبراهيم في مستهل يومياته "يوميات الواحات" أنه قرر أن يهب حياته لفن الكتابة خلال اعتقاله في السجن من 1959م إلى 1964م ومن الأهم أنه تم خلق النزعة الإبداعية والقصصية لديه وهولا يزال في سن المراهقة .حيث أن أبيه شجعه على قراءة الروايات البوليسية أنذاك، وكان أبوه أيضا يجيد سرد الحكاية، يقول صنع الله إبراهيم عن أبيه: "كان حكاية عظماء يتقن سبك حكاياته ونوادره

[70]المصدر السابق، ص 279.

[71]المصدر السابق، ص279 .

المختلفة، النابعة من تجاربه أو قراءاته بحيث يستولى على مستمعيه وكنت أصبح المستمع الوحيد في السنوات الأخيرة من عمره"[72]، طبعا إن هذا العنصر لعب دورا فعالا في تكوين مزاجه وميلانه سوف يستمران لمدة حياته الطويلة، وكان من تشجيعه المبكر على قراءة الروايات أن يسهل له الطريق إلى الأدب القصصي، يقول: "ثم كان هو الذي شجعني على القراءة وما زلت أذكر الليلة التي عاد فيها إلى المنزل حاملة ربطة كبيرة من روايات المستعملة المتنوعة"[73] والجدير بالذكر أنه لجأ إلى قراءة المجلات والتحليلات النفسية والمقالات الأخرى في هذه الفترة مما ساعده عل أن يفهم أسرار الحياة الإنسانية وخاصة أسرار المراهقة و"الممارسات الطبيعة" في سن المراهقة"، فهما علميا، وكان من شأن هذا أن يدرك ما لحق المجتمع المصري من جهل وترويع، يقول:"عندما دخلت طور المراهقة كان هو الوحيد الذي لجأت إليه فجمعت مجموعة من الكتابات عن الممارسات الطبيعة لتلك المرحلة، قدمتها إليه ليقرأها ويسديني النصيحة وكانت هذه الكتابات تحيط لهذه الممارسات بإطار من الترويع والجهل، فيما عدا مقال في مجله جديدة إسمها "الطب النفسي" أصدرها ممارس للتنويم المغناطيسي يدعي الدكتور محب حقق شهرة كبيرة في تلك الفترة، ونسب لنفسه نجاحات عديدة أهمها استعادة ساعة"مصطفى أمين" الضائعة تعرض المقال للأوهام المنتشرة بشأن ال"العادة السرية" ونفى أية أية أضرار لها وهاجم دعاة العفة المطلقة قائلا إن الكف عن استعمال أية عضلة في الجسم يؤدي إلى ضمورها!

[72] يوميات الواحات، ص7.

[73] المصدر السابق،7.

قـرأ أبي هـذا المقـال باهتمـام لكمـه ظـل حـائرا وحـاول أن يـدفعني إلى الصـلاة ثم أخـذني إلى صيدلي صديق له شاركه الحيرة ونصح أبي بإعطائي بعض الفيتامينات[74]".[75]

وكمـا رأينـا أن الجـو المدرسـي والأسـلوب التدريسـي القليـدي القـديم لم يكـن يسـغ صـنع الله إبـراهيم فسـئم مـن المدرسـة، وكانـت الظـروف العائليـة أيضـا مختلفـة حيـث أن أمـه توفيـت مبكـرا فوجـد نفسـه وحيـدا في العـالم مـا عـدا أبيـه والكتـب إلى عـالم القصـص السـاحر "ومـن حسـن حظـي وحـظ جيلـي مـن الكتـاب، أن وجـدنا أمامنـا مجلـة أسـبوعية تـدعي "روايات الجيـب" تصـدر منـذ الثلاثينـات، وتنشـر ملخصـات وافيـة لكافـة أنـواع الـروايات العالميـة مـن كلاسـيكية إلى بولسـية وقـد أسـبغ عليهـا ناشـرها عمـر عبـد العزيـز أمـين مـا يتميـز به من أسلوب عصري بعيد عن التقعر."[76]

فقـد بـدا رجحانـه الشـديد إلى الأدب القصصـي في باكـورة عمـره حيـث أن أباه شـجعه علـى قـراءة وقـد شـغف بالـروايات البولسـية الـتي دفعتـه إلى كتابـة أولى رواياتـه وهـو بعـد في الثامنـة عشـرة مـن عمـره. فقـد جمـع عـدة أوراق ونقلـت عليهـا روايـة بولسـية إسمهـا الرجـل المقبـع بعـد أن عـبر أسمـاء الشخصـيات ووضـع إسـم [77]، وفي السـنة التاليـة حـاول أن بؤلـف فعـلا روايتـه عـن سـرقة مجـوهرات - تجـري أحـداثها في لنـدن- لم يتقـدم فيهـا

[74]يوميات الواحات، ص7.

[75]يوميات الواحات، ص: 7

[76]يوميات الواحات، ص8.

[77]يوميات، ص: 98

الفصل الأول، وكذلك حاول أن يترجم بعض القصص الإنجليزية.[78] "خذني بعاري" وعندما أزمع مؤلفها عزيز أرماتي تنظيم مسابقة لكتاب القصة الشبان أشترك فيها بأول قصة في حياته وفاز بالجائزة الثالثة.[79]ثم اتسعت اهتماماته للموضوعات السياسية فقد كانت البلاد – في ظل الحكم الوفد وبعد إلغاء معاهدة 36، تعاني بالمشاعر الوطنية ضد الإنجليز والطبقة الإقطاعية الحاكمة.[80]

وفي هذه المرحلة من حياته شغف صنع الله إبراهيم في جمع قصاصات الأخبار والأرشيف السياسي الذي كونه من المواد الصحفية، واتسع هذا الأرشيف أيضا لصور نجمات السينمائي الشهيرات مثل راسل صاحبة الصدر الأعظم وكاميليا ذات الفم الدافي وبيتي جرابل صاحبة السبقات الذهبية فضلا عن استرويليا عن والسانحات الفاتنات، وقد لازمته هذه العادة إلى الآن وإن منها صور الممثلات بالتدريج،[81] وقد نرى في رواياته أن قصاصات الأخبار والوقائع جزء لازم من أسلوبه الأدبي، فكان لهذه العنصرأن يترك أثرا كبيرا على أعماله الروائية. وخلال نشاطاته السياسية تعرف على الكثير من الأدباء الكبار العرب والغربيين عن طريق المناقشات مع أصدقائه، إلا أن شغفه الحقيقي بالقصص ظهر في السجن حيث قرأ العدد الكبير من النقاد والأدباء.

[78]أيضا، ص:6

[79]أيضا، ص:99

[80]المصدر السابق، ص10.

[81]يوميات، ص: 10

الفصل الثالث

أعمال صنع الله ابراهيم

يحتل الكاتب المصري صنع الله ابراهيم مكانة مميزة بين الأدباء المصريين والعرب. يتميز هذا الروائي بغزارة الإنتاج وتنوع كتاباته التي تجمع بين السيرة الذاتية والتوثق الخارجي والتحقيق الأكاديمي والأسلوب الصحفي الريبورتاجي والنقد الاجتماعي وخاصة نقد الظواهر والأنظمة المختصة بالنظام الرأسمالي. الروائي الكبير صنع الله إبراهيم من أبرز أولئك الروائيين الذين يسمون بـ"جيل الستينات" أو كما كان يسمون أنذاك "جيل ما بعد نجيب محفوظ". ومن "أبرز جيل الستينات" ما عدا صنع الله إبراهيم:

إبراهيم أصلان

إبراهيم عبد المجيد

ادوارالخراط

أحمد الشيخ

اقبال بركة

حسن محسن

خيري شليبي

رضوي عاشور

سليمان فياض

زينب احسان

سلوى بكر

شريف حتانة

صبري موسى

عبد الفتاح الجمل

عبد الفتاح رزق

عيده جير

فتحي سلامة

مجيب طوبنا

مُحَمَّد البساطي

مُحَمَّد أبوالمعاطي أبوالنجا

مُحَمَّد جبريم مُحَمَّد جلال

مُحَمَّد المخرنجي

مُحَمَّد مستجاب

مُحَمَّد المنيسي

مُحَمَّد يوسف القعيد

محمود عوض عبد العامل

محمود القاسم

نهاد شريف

نوال السعداوي

يحيى الطاهر عبدالله وغيرهم

إن هناك خصوصيتن اللتين تميزان روايات هذا الجيل، إحداهما أنه يسيطر عليه نقد الواقع المعاصربما فيه الأوضاع السياسية والاجتماعية وبخاصة ما يتصل بألوان القهر والقمع وفساد السلطة. والخصيصة الثانية أن أعمال هذه الجيل يتسم بصفة عامة في

معظمها بطبعان محاولاتالتجديد والتجريب في الشكل عليها لدرجة أنها في أحيان كثيرة نشعربأن معنى العمل أو مغزاه قد ضحى به تقريبا في سبيل الإبهار الشكلي.[82]

ومما عدا المناخ السياسي القمعي والشعور باليأس والقنوط، قد تواجد هناك عوامل فنية عديدة ساعدت هذا الجيل على التجريب الشكلي. منها تصاعد الروائيين الجدد الذين تأثروا بالتغييرات في الآداب الغربية مباشرة.ومع مجيئ هذه الأجيال كانت الرواية قد تخطت مرحلة الواقعية الاجتماعية، وشهدت أساليب جديدة في الكتابة، رأينا بعضها عند نجيب محفوظ في "ثرثرة فوق النيل".الصادرة في شنة 1966م ، وفي "اللص والكلاب" 1961م والسمان والخريف، والشحاذة وميرامار، كما رأينا بعضها عند فتحي غانم، في "الرجل الذي فقد ظله" وفي الوقت نفسه تقريبا وفي عام 1962م على التحديد نشر توفيق الحكيم مسرحيته "يا طالع الشجرة" التي حاول فيها أن يجاري مسرح "اللا معقول"، وكانت تواكب أعمال هؤلاء الأدباء حركة نقدية ناشطة تلمع فيها أسماء، مُحَمَّد مندور، مُحَمَّد أمين العالم، على الراعي، رشاد رشدي، ولويس عوض، وعبد القادر القط وغيرهم.[83]

والجيل الجديد الذي أخذ في التجريب الشكلي كان أيضا متأثر بتطورات أدبية في أوربا من أمثال "كافكا" و"فوكنر"، والتجريبات في الروايات الفرنسية، وفيها وجد

[82]السكوت، حمدي، الرواية العربية: ببلوغرافيا ومدخل نقدي 1865-1995، الجامعة الأمريكية بالقاهرة، القاهرة،2000،ص88&89

[83]المصدر السابق، ص90.

هـذا الجيـل أدوات الحداثـة ملائمـة للتعبـير عـن تجـاربهم الاجتماعيـة والسياسـية الجديـدة في مجـتمعهم، وكـان هـذا الجيـل يتـابع مـا يحـدث مـن تطـورات في محـال الروايـة وغيرهـا مـن الأشـكال الأدبيـة في الآداب الأوربيـة والأمريكيـة ويطـورون أسـاليبهم، وكانـت أسمـاء سـارتر، وكامو وبيكت، وأونيل وكافكا وأسماء غيرهم تتردد في الصحف اليومية.[84]

وقـد تم خـلال هـذه الفـترة ترجمـة الكثـير مـن الأعمـال الأوربيـة إلى اللغـة العربيـة، فاسـتطاع الـوطن العـربي أن يعلـم فرافـر كافكـا بأسـلوبه ولا معقولياتـه، فأخـذوا في قـراءة الأعمـال الأوربيـة بشـكل كثيـف. فـبرزت عـدة روايات علـى هـذا الـنمط، الـتي تعـبر عـن خيبـة الأمـل والإحسـاس بالقهـر والإحسـاس بالضـعف السياسـي النـاتج عـن الحيـاة في الحكـم الدكتاتوريـة وخاصـة بعـد نكسـة1967م. فعلـى عكـس الأبطـال الملتـزمين للأغـراض الاشـتراكية والوطنيـة الـذين نـراهم في روايات الأربعينـات والخمسـينات، إن الشخصـية المحورية في هـذه الـرواياتالتي تسـمى بـروايات الـ"الواقعية الجديدة" تركـز علـى مـا يقـال anti hero الـذين فقـد سـبيلهم وهـم يعـانون فقـدان الثقـة بالـنفس ولا يقـدرون أن يتحكمـوا في قدرهم و قضاياهم.

وإن صـنع الله ابـراهيم مـن أبـرز نجـوم جيـل السـتينات. في الحقيقـة إنـه علـى مقـدمتهم. بينمـا أخـذ الجيـل الجديـد يتبـنى الـنمط الروائـي الجديـد في أعقـاب نكسـة 1967م، كـان الروائـي صـنع الله قـد أخـرج روايتـه الأولى "تلـك الرائحـة" في 1966م الـتي جـددت في الموضـوع والأسـلوب. حـتى الآن قـد نشـر لصـنع الله إبـراهيم عـدة روايات

[84]المصدر السابق، ص90.

وقصص قصيرة. حتى الآن قد نشرت لصنع الله إبراهيم عدة روايات كتبها على مدى سنوات طويلة، وهي: تلك الرائحة 1966م، و نجمة أغسطس 1974م، واللجنة 1981م، و بيروت بيروت 1984م، وذات 1992، وشرف 1997م، ووردة 2000م، وأمريكانلي 2003م، ويوميات الواحات 2005م، والتلصص2007م، والعمامة والقبعة 2008م، والقانون الفرنسي2008م، والجليد 2011 م، وبرلين 69 2014م.

وقد كتب عددا من الروايات والقصص العلمية للشباب، صدرت له ست روايات علمية عن دارالفن العربي في بيروت منها:

رووايات علمية

عندما جلست العنكبوت تنظر في سنة 1980م

اليرفات في دائرة مستمرة في سنة 1980م

يوم عادت الملكة القديمة في سنة 1980م

زعنقة الظهر يقابل الفك المفترس في سنة 1983

الدلفين يأتي عند الغروب في سنة 1983م

الحياة والموت في بحر ملون في سنة 1986

صدرت جميع هذه الروايات العلمية من دار الفتى ببيروت

وكذلك كتب صنع الله ابراهيم حكايات علمية للصغار، ظهرت جميع هذه الروايات من دار الفتى ببيروت.

الصقر الأسود يتلقى إنذارا 1989م

المرجان يستعين بالصواريخ 1900م

الحصان ينتقم لرفيقه 1900م

ثعلب الصحراء والرمال المغردة 1990م

ابو العيد في يوم مجيد 1990م

وفي أدب الرحلات له كتاب "إنسان السد العالي" الذي كتبه مع صديقين آخرين كمال القلش ورؤوف مسعد. يرصد هذا الكتاب لبناء السد العالي بأسوان. وفيما بعد كتب صنع الله ابراهيم رواية نجمة أغسطس عن بناء السد العالي ونقل معابد رمسيس الثاني. وقد صدرت له قصص تأريخية مصورة أيضا. كتب من هذا النوع "رحلة السندباد الثامنة" (رسوم: نبيل تاج)، دار الفتى، بيروت، 1989م. وفي سنة 2000م اشترك مع المصور الفرنسي "جان بيري ريبيري" لكتابة "القاهرة من حافة إلى حافة". يرسم هذا الكتاب مدينة القاهرة كما يصورها تصوير "ريبيري" وقلم صنع الله ابراهيم.

وقد ترجم العديد من الروايات والكتب إلى اللغة العربية من اللغات المختلفة.

رواية "العدو" للكاتب الأمريكي "جيمس دروت" دار الثقافة الجديدة، القاهرة، 1975م، الفنك، الدار البيضاء، 1993م.

ورواية "جمار بوريدان" للكاتب الألماني "جونتر دي برون"، درا ابن رشد، ببيروت، 1977م، 1983م.

ولد لا يعرف الخوف، الأخوان جريم، الورشة التجريبية لكتب الأطفال، القاهرة، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، ببيروت 1981م.

و كذلك إنه ترجم إلى العربية مجموعة من النصوص للكاتبات الغربية صدرت بعنوان "التجربة الأنثوية" سنة 1994م.

روايات صنع الله ابراهيم

تلك الرائحة: 1966م

رواية "تلك الرائحة" هي أول رواية صدرت لصنع الله ابراهيم، ولكنها من أهم وأبرز ما كتب هذا الروائي الكبير. هذه الرواية رواية قصيرة جدا تقع في سبع وثلاثين صفحة. كتب الرواي هذه الرواية سنة 1964م، فورا بعد تسريحه من السجن. صدرت الطبعة الأولى للرواية في القاهرة في شهر فبراير، عام 1966م، من مطبعة يسارية صغيرة تسمى

مكتبة "يوليو".[85] إن هذه الرواية تعكس المناخ السياسي القمعي الذي طغى على مصر في الفترة الناصرية وخاصة بعد حملته على اليساريين. إن حكاية الرواية تماهي بالحد الأقصى السيرة الذاتية للروائي؛ تستلهم الرواية من تجربات حياته في القاهرة، داخل السجن وخارجه. وظروف البطل السارد للرواية تعكس ظروف صنع الله ابراهيم نفسه. إن الرواية تحكي قصة معتقل سياسي سرح من السجن بعد مدة طويلة. وبعد الانصراف إلى الحياة المدنية يعيش في اغتراب كامل. ترجع أهمية هذه الرواية إلى أنها أعلنت عما يريد هذا الروائي أن يكتب. إلا أن هذه صودرت فورا بعد تشرها، ولم تنشر الطبعة الكاملة إلا سنة1986م.

رواية نجمة أغسطس: 1974م

رواية "نجمة أغسطس" هي الرواية الثانية لصنع الله ابراهيم. صدرت هذه الرواية في سنة 1974م أي بعد سبع سنوات من صدور روايته الأولى "تلك الرائحة". إن هذه الرواية أروع ما كتب في القضايا السياسية العربية المعاصرة في الرواية العربية. الرواية مكتوبة في صورة رحلة. البطل السارد شاب مثقف كاتب وهو في أوائل العشرين من عمره وخارج لتوه من المعتقل السياسي. يقوم البطل السارد برحلة إلى "أسوان" لمشاهدة بناء "السد العالي"، وإعطاء الصورة الحقيقية المتواجدة هناك وخاصة بالنسبة للعمال المصريين وحقوقهم الأساسية. الرواية تعطي الصورة الدقيقة عن ظروف العمل الصعبة وتبرز

[85]Starkey, Paul, Sonallah Ibrahim: rebel with a Pen, Pg. 36.

التناقض بين الصورة المرسومة لأحوال العمال المصريين في وسائل الإعلام و بين الواقع اللاإنساني الذي يوجد في موقع البناء.

رواية اللجنة: 1981م

إن رواية "اللجنة" هي الرواية الثالثة التي صدرت لصنع الله ابراهيم. وقد تعد رواية "اللجنة" من أروع الروايات العربية وأروع ما كتب صنع الله ابراهيم. "رواية جريئة مشوقة، ترصد بفنية عالية لنمو العلاقات الاجتماعية والاقتصادية خلال مرحلة المد القومي وبعد انحساره، وما أفرزته من طبقات وسلط، وتمزج المعقول باللامعقول والواقع بالكاريكاتير الساخر، والحدث بالتأمل، فتعري الواقع الراهن على حقيقته." (كلمة الناشر، الطبعة الثانية، مطبوعات القاهرة، 1982م.)[86] يعتبر النقاد هذه الرواية أكثر روايات صنع الله نجاحا حتى الآن.[87] ويعتبر الناقد الشهير مصطفى مُحَمَّد بدوي أن رواية "اللجنة" أقوى روايات صنع الله.[88] "لكن أقوى رواياته في الواقع هي رواية "اللجنة". التي نشرت عام 1981."[89] والرواية تشابه روايته الأولى "تلك االرائحة" في الشكل والطول والرؤية. الرواية قصيرة جدا، بالكاد تكاد تصل إلى 159 صفحة، من الطبعة الثانية التي صدرت من مطبوعات القاهرة عام 1982م. كما أن الرواية تماثل الرواية الأولى في العديد من

[86] ابراهيم، صنع الله، رواية "اللجنة"، الطبعة الثانية، مطبوعات القاهرة، 1982، ص161.

[87] Starkey, Paul, Sonallah iibrahim: Rebel with a Pen, Edinburgh University Press, Uk, 2016, pg. 69.

[88] Badawi, M. M. A Short History of Arabic Literature , Clarendon Press- Oxford,1993, pg 161.

[89] السكوت، حمدي، الرواية العربية: ببلوغرافيا ومدخل نقدي 1865-1995، الجامعة الأمريكية بالقاهرة، القاهرة،2000،ص91.

المميزات الأسلوبية، حيث أن رواية "اللجنة" تماهي الرواية الأولى "تلك الرائحة" في المناخ السياسي والاجتماعي. وشأن الروية الأولى تملك الشخصية الرئيسية/ أو الأنا السارد في هذه الرواية الخصوصية النفسية والذهنية والعقلية المماثلة للأنا السادر في رواية تلك الرائحة. تدور الرواية حول بطل مجهول الاسم، وهو السادر والشخصية الرئيسية. والبطل في الواقع مضاد البطل(Anti-hero) كما هو الشأن في معظم روايات صنع الله ابراهيم. تستهل الرواية بمثول الأنا السارد أمام أعضاء اللجنة. واللجنة هي ذات طابع عسكري شبه مدني. إنها جهاز محابراتي، لها مستقر ونفوذ في مصر. إن رواية اللجنة رواية سياسية إلى حد أقصى، وقد تزيد في سياسيتها الأسلوب الكافكاوي واستخدام السخرية والطنز والتهكم. ولا شك أن صنع الله ابراهيم يقدم في هذا العمل نقدا سياسيا يفضح الوضع السياسي والاجتماعي ونظام الحكم في مصر، وفي المجتمعات العربية.

رواية بيروت بيروت

رواية بيروت بيروت هي الرواية الرابعة التي صدرت لصنع الله ابراهيم. صدرت الرواية في سنة 1984م.[90] تتمركز الرواية حول الحرب الأهلية اللبنانية التي دارت بين الفترة من 1975م إلى 1900م. وإنها ترصد للأفكار العديدة التي تعامل الروائي فيما قبل. وكذلك يمكننا أن نرى أن الروائي يواصل العديد من التقنيات التي استعملها في الرواية التي صدرت له سابقا من مستوى السرد الذي يعتمد على استخدام "صيغ المتكلم"

[90]Starkey, Paul, Sonallah Ibrahim: Rebel with a Pen, pg. 86.

(Homodeigetic narrative) و"تقنية التناص" والوثائقية. دون شك تحتل موضوع الحرب الأهلية اللبنانية كمية كبيرا للرواية ولكنه ليس الموضوع الوحيد الذي ترصد له الرواية. فإنها ترصد أيضا مشاكل الطبع والنشر في العالم العربي كموضوع مهم جدا[91]، إن له نصيب كبير ا في الرواية، والبطل السارد في الرواية مصري سافر إلى بيروت كي يجد ناشرا لرواية كتبها. أكمل الروائي كتابة هذه الرواية بين ابريل 1982م إلى ديسمبر 1983م. صدرت الطبعة الأولى للرواية في سنة 1984م من دار المستقبل العربي، أحب مطبعة الروائي.[92]

رواية ذات: 1992م

.إن رواية ذات هي الرواية الخامسة التي صدرت لصنع الله ابراهيم صدرت هذه الرواية عام 1992م من "دار المستقبل العربي" أحب مطبعة هذا الروائي. تتكون هذه الرواية من تسعة عشر فصلا، عشر منها سرد قصصي وتسع وثائقي تنقل جذاذات وقصاصات الأخبار من الصحف والمجلات. قد واصل الروائي في هذه الرواية التقنيات السردية التي برزت لديه نزعة شديدة إليها من روايته الأولى. واصل الروائي في هذه الرواية تقنية التناص. بل إنه ارتفع بها إلى قمة أعلى. في الحقيقة تأتي هذه الرواية في مقدمة الروايات الثلاث بين "بيروت بيروت" و"ذات" و"شرف" التي استخدم فيها الروائي هذه

[91]المصدر السابق، ص86.

[92]المصدر السابق، ص86.

التنقنية كثيرا. وكذلك تواصل الرواية شخصية البطل المضاد.[93] تختلف هذه الرواية في أنها أول رواية لصنع ابراهيم التي تستخدم صيغ الغائب. يسرد السارد، ربما السارد الروائي نفسه، حكاية ذات بطلة الرواية. وهي امرأة من الطبقة المتوسطة الدنيا. تتمحور هذه الرواية حول المصاعب المعيشية التي تجتازها البطلة وفي الحقيقة الطبقات الفقيرة بأسرها في خلفية ظهور مجتمع مصري حافل بالفساد[94]. وهذه الرواية تشتهر للسخرية السوداء والتعليقات الهازئة التي توجهها إلى الحياة ا السياسية والاقتصادية المصرية الحديثة، حيث أن الروائي يوازي مشاكل الطبقات الفقيرة بالملذات التي تنغمس فيها النخبة القليلة من الأثرياء وكذلك باللامبالاة للقيادة السياسية المصرية. تحكي الرواية قصة "ذات"، امرأة من الطبقة المتوسطة الدنيا، وعلاقاتها المتعددة والظروف حولها وتجرباتها المتعددة. عاشت "ذات" رئاسة كل من جمال عبد الناصر وأنور السادات و حسني مبارك. تتمحور الرواية حولها وعائلتها وعلاقاتها مع الجيران مع التركيز على المشاكل الاقتصادية والعاطفية التي تجتازها. تتمثل في حياة ذات وعائلتها حياة أغلب الطبقة المصرية المتوسطة؛ فإن أسرة ذات هي نموذج نمطي للأسرة المصرية المتوسطة تعيش الاضطهاد وسلب الحقوق.

رواية شرف: 1997م

[93] المصدر السابق، ص107.

[94] المصدر السابق، ص 106.

إن روايـة شـرف الروايـة السادسـة الـتي صـدرت لهـذ الروائـي الكبـير.صـدرت الروايـة عـام 1997م مـن المطبعـة الرسميـة درا الهـلال[95]. فهكـذا كـان هنـاك تغيـيرا بالنسـبة لعلاقـة الـراوي مـع السـلطة السياسـية لأول مـرة في حياتـه، إلا أن هـذا لم يغـير شـيئا مـن وجهـات نظـره في الحقيقـة. وإن روايـة شـرف مـن أجـرأ مـا كتـب صـنع الله ابـراهيم. هـذه الروايـة روايـة طويلـة جـدا تقـع في 545 صـفحة مـن الطبعـة الأولى الصـادرة مـن دار الهـلال.[96] ترصـد هـذه الروايـة لمواضـيع مختلفـة قـد رصـد لهـا الروائـي في أعمالـه السـابقة مـن نحـو الفسـاد والنفـاق والانحـراف الجنسـي والعولمـة. وكـذلك تقـدم الروائـي تقـدما بتقنيـة التنـاص الـتي تتميـز بهـا رواياتـه وخاصـة روايـة ذات.[97]وتتجلـى في هـذه الروايـة شخصـية البطـل المضـاد مـع مميـوات كلاسـيكية في الروايـة الجديـدة. وتختلـف هـذه الروايـة مـن رواياتـه الأخـرى في أنهـا تسـتعمل مستوى السـرد المعقـد. فـإن سـاردي مختلفـين يسـردان الروايـة. اسـتخدم الروائـي صـيغة المـتكلم وصـيغة الغائـب بالتنـاوب. قـد قسـم الروائـي الروايـة ي ثلاثـة أجـزاء متألفـة مـن تسـعة عشـر فصـلا.يتـألف الجـزء الأول مـن اثـني عشـر فصـلا ويحتـل نصـف الروايـة تقريبـا و يحكـي قصـة "شـرف" بصـيغة الغائـب في فصـل، ثم بصـيغة المـتكلم في فصـل آخـر بالتنـاوب. يبـدأ الفصـل بصـيغة الغائـب، فسـارد غائـب يسـرد يحكـي قصـة شـرف، و الفصـل الثـاني يسـتخدم ضـمير المـتكلم، هكـذا يسـتمر إلى الفصـل الثـاني عشـر. ويلجـأ صـنع الله ابـراهيم في الجـزء الثـاني إلى تقنيـة التنـاص والتسـجيل. وأمـا الجـزء الثالـث فيرجـع إلى قصـة شـرف في السـجن ويحكـي

[95]المصدر نفسه، ص 123.

[96]ابراهيم، صنع الله، رواية شرف، الطبعة الأولى، دار الهلال، القاهرة، 1997.

[97]Starkey, Paul, Sonallah Ibrahim: Rebel with a Pen, pg., 123.

قصته كالسابق بصيغة الغائب و المتكلم على التناوب. تحكي الرواية قصة أشرف عبد العزيز سليمان أو "شرف" كما ألفت الأم أن تنادي حبة عينيها. شرف شاب في أوائل العشرين من عمره يجلبه حظه السيئ إلى السجن لأنه قتل "جون" سائحا أجنبيا بريطانيا دفاعا من اعتدائه على شرفه. وتقع معظم حوادث الرواية في السجن. يجمع بين مواضيع الفساد والنفاق والإحباط الجنسي، المواضيع التي كانت بارزة في رواياته الأخرى، مع تأكيد جديد على التعصب الديني الذي يعكس تحولا في المجتمع المصري المعاصر.

رواية وردة: 2000م، دار المستقبل العربي.

إن رواية وردة هي الرواية السابعة صدرت لصنع الله ابراهيم، صدرت هذه الرواية في سنة 2000م من دار المسبقبل العربي، أحب مطبعة هذا الروائي. أخرج صنع الله هذه الرواية بعد ثلاث سنوات من صدور روايته الرائعة شرف التي صدرت سنة 1997م.[98] ترجع بنا هذه الرواية إلى ما قد رأينا من قبل في رواية بيروت بيروت، إلى اهتمام صنع الله ابراهيم بما خارج حدود مصر من القضايا السياسية . الرواية تدور حول الكفاح المسلح في "ظفار" و"صلالة". قد سمى صنع الله ابراهيم هذه الرواية باسم البطلة، الشخصية الرئيسية في الرواية. وهي مناضلة يسارية.

"تحتل رواية "وردة" لصنع الله ابراهيم أهمية خاصة في تاريخ الرواية العربية من أكثر من زاوية. وهي جميعها زوايا متداخلة ومترابطة، حيث تنطلق من درجة النضج الإنساني

[98] Starkey, Paul, Sonallah Ibrahim: Rebel with a Pen, pg.,137

والفني الذي حققه الكاتب عبر رحلة من الحياة التي تجاوز ت الستين، ورحلة من الفن تجاوزت الأربعين. هذه الرحلة حققت لدى صنع الله ابراهيم قدرة فائقة على فهم الحياة والبشر على الأصعدة المختلفة نفسيا واجتماعيا وسياسيا، وبالإجمال إنسانيا، وهذا الفهم هو الذي أسس بعمق نمط العلية الخاص الذي بطن سلوك الشخصيات وبنية الرواية."[99]

"من هذه الزاوية فإن تجربة حركة النضال الوطني العربي خلال العقود الستة الماضية، تجلت في هذه الرواية بكل تعقيداتها وتركيبها وتناقضاتها، وانتصاراتها وانكساراتها، فعبر تجربة "وردة" الفتاة العمانية التي عاشت في القاهرة وبيروت ثم انتمت إلى ظفار في الستينات، نتابع موجة الثورة التي اجتاحت العالم الثالث عامة والعالم العربي خاصة، وحققت انتصارات بدت حقيقية، ولكنها بعد وقت كشفت عن محدوديتها وارتد الثوار عن مواقعهم لصالح الأعداء في الداخل والخارج، فيما عدا "وردة" التي تموت في ساحة المعركة تاركة وراءها مذكرات، تنصح بتسليمها للراوي الذي يكتب روايته عن رحلة البحث عن هذه المذكرات، ومن ثم نشرها في الرواية."[100]

[99]البحراوي، د. سيد، الأنواع النثرية في الادب العبي المعاصر أجيال وملامح، الجزء الأول، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2003م، ص229.

[100]المصدر السابق، ص 229&230.

الباب الثاني:القضايا السياسية كما تصورها روايات صنع الله ابراهيم

الفصل الأول

القمع السياسي في الفترة الناصرية

كما تصوره رواية "تلك الرائحة"

إن رواية "تلك الرائحة" هي أول رواية صدرت لصنع الله ابراهيم، ولكنها من أهم وأبرز ما كتب هذا الروائي الكبير، على الرغم من العديد من نقاط الضعف المتواجدة فيها. يجدر بالذكر أن الكثير من أهمية هذه الرواية تنبع من أنها أعلنت عما يريد صنع الله ابراهيم أن يكتب،"قد وضعت معايير لمجمل أعمال صنع الله ابراهيم اللاحقة."[101]، ولأنها أثارت الجدال والنقاش الحادين في الأوساط الأدبية والفنية. 'ربما، أن هذه الرواية أشهر روايات صنع الله ابراهيم، وحتى الآن أكثرها إثارة للجدال، ليس فقط لأنها أثارت ردود فعل محتدة في مكتب الرقاب، بل أيضا لأنها أثارت جدالا بين الأوساط الأدبية المصرية'.[102] ولا سيما لأن الرواية تتضمن الأوصاف الفزيولوجية، حتى أن الكاتب والناقد الكبير "يحيى حقي" الذي يعرف عامة للبراليته، وجد الرواية منفرة مقززة لهذه الخصوصية بالذات. "لازلت أتحسر على هذه الرواية القصيرة التي ذاع صيتها أخيرا

[101] لمة تكريم بمناسبة منح جائزة مؤسسة ابن رشد للفكر الحر للسيد صنع الله ابراهيم، برلين في 26 نوفمبر 2004، بقلم الدكتورة أولريه شتيلي-فيربك(مونستر) (Dr. Ulrike Stehli-werbeck,Munster).

[102] Starkey, Paul, Sonallah iibrahim: Rebel with a Pen, Edinburgh University Press, Uk, 2016, pg..34

في الأوساط الأدبية، وكانت جديرة بأن تعد من خيرة إنتاجنا لولا أن مؤلفها زل بحماقة وانحطاط في الذوق، فلم يكتف بأن يقدم إلينا البطل وهو منشغل بجلد عميرة (لو اقتصر الأمر على هذا لهان) ولكنه مضى فوصف لنا أيضا عودته لمكانه بعد يوم ورؤيته لأثر المني الملقى على الأرض. تقززت نفسي من هذا الوصف الفزيولوجي تقززا شديدا لم يبق لي ذرة من القدرة على تذوق القصة رغم براعتها." (مقدمة الطبعة الثالثة للرواية الصادرة عام 1986)[103] فجائت هذه الرواية كثورة على أدب الالتزام، أو على الرواية الواقعية القليدية الاشتراكية التي عملت كدعاية في أيدي الساسة. فمن هذا المنطلق كانت تلك الرائحة رائدة التمرد على الأدب التقليدي لأن الأدباء الآخرين خاضوا في الثورة بعد نكسة 1967م.

كتب صنع الله ابراهيم هذه الرواية وهو في العشرينيات من عمره. ولكن الأمر ليس أنه كتب ما كتب ولا سيما الأوصاف الفزيولوجية الواردة في الرواية، بسب قلة التجربة في الحياة والكتابة.إنه كتب ما كان يحب هو أن يكتبهوكأنه كان يريد أن يعلن عما يريد أن يكتب إنه يضمّن في الرواية الأراء في الفن والإبداع. فنرى أن البطل السارد يسخر من قول "موبسان" أن على الفنان أن يخلق عالما أكثر جمالا من عالمنا الحقيقي. بينما أن الروائي صنع الله ابراهيم يعتقد أن العالم إذا كان قذرا متعفنا فعلينا أن نكتب القذارة التي هي حقيقة الحياة التي نعيشها. "وقال الكاتب إن "موباسان" قال إن الفنان يجب أن يخلق عالما أكثر جمالا وبساطة من عالمنا. وقال إن الأدب يجب أن يكون متفائلا نابضا

[103] ابراهيم، صنع الله، رواية "تلك الرائحة وقصص أخرى"، الطبعة الثالثة، دار الهدى للنشر والتوزيع، المنيا،2003، ص13.

بأجمل المشاعر."[104] يدافع صنع الله ابراهيم عن هجوم الأستاذ يحي حقي ويعلن عن نظريته في الأدب والفن هكذا. "ألا يتطلب الأمر قليلا من القبح للتعبير عن القبح المتمثل في سلوك فزيولوجي من قبيل ضرب شخص أعزل حتى الموت ووضع منفاخ في شرجه، وسلك كهربائي في فتحته التناسلية ؟ وكل ذلك لأنه عبر عن رأي مخالف أو دافع عن حريته أو هويته الوطنية. ولماذا يتعين علينا عندما نكتب ألا نتحدث إلا عن جمال الزهور ةروعة عبقها، بينما الهراء يملأ الشارع، ومياه الصرف الملوثة تغطي الأرض، والجميع يشمون الرائحة النتنة ويشتكون منها؟"[105]ولا تكو ّ ن الرواية مرحلة مهمة في تطور الأدب المصري خاصة والأدب العربي عامة فحسب، بل إنما هي فريدة بين مثل هذا العمل لأنها أثارت الجدال حول ظروف نشرها بقدر ما أثارت النقاش حول مميزاتها الأدبية والفنية. والروائي الكبير "يوسف إدريس" يصف الرواية بأنها ليست مجرد قصة وإنما هي ثورة، وأنها صفعة أو صرخة أو آهة.[106]

الخلفية السياسية والأدبية للرواية

إن الرواية تعكس المناخ السياسي القمعي الذي كان أصبح يغزو مصر، لأن الحماسة البدائية التي أنجبتها ثورة 1952 سرعان ما خمدت، وطغت على المجتمع المصري الشعور بالإحباط واليأس والقنوط والتشتت، مما دفع الشباب المصريين الجدد إلى التمرد

[104] المصدر السابق، ص50.

[105] المصدر السابق،ص16.

[106] مقدمة يوسف إدريس للرواية،تلك الرائحة،ص27.

على كل شيئ. "فقد كان التمرد هو طابع الفترة."[107] ظهر هذا التمرد مرة في شكل نشاط سياسي عنيف. شهدت هذه الفترة نشاطا سياسيا عنيفا من كل من اليساريين والذين انتموا إلى الإخون المسلمين. والتمرد كان أبرز مميزات العصر بين الشباب الجدد المثقفين العصريين. حتى أنهم تمردوا على الأساليب الأدبية التقليدية والمضامين التي يلتزم بها الأدباء، من مثل الواقعية الاشتراكية، مما أسفر عن نزعة ملحة في التجريب في الشكل الروائي." كان التمرد إذن هو وقود المرحلة، والتجربة هو شعارها. وأعطى نجيب محفوظ ظهره لكتابته البلزاكية، ليخوض في مغامرات مثيرة، قققز فيها بالفن الروائي قرنا بأكمله، وبرزت أسماء جديدة مثل إدوار الخراط وغالب هلسا وبهاء طاهر وسليمان فياض وابراهيم أصلان ويحيى طاهر عبد الله وغيرهم."[108] فشهدت الفترة ولادة الجيل الجديد للروائيين. يكتب صنع الله ابراهيم في مقدمة الطبعة الكاملة الأولى للرواية: "كانت السنوات الأولى من الستينات بالغة الخصب، في السياسة والفن والحياة."[109] وفي مقدمة هذه الطبعة يعطي الروائي أيضا المناخ الأدبي في مصر وكذلك الأثرات الأدبية على روايته الأول "تلك الرائحة". ومن وراء أسوار السجن الواحات كنا- أنا وأصدقائي كمال القلش ورؤوف مسعد وعبد الحكيم القاسم- نتابع في حماس الشعراء السوفيت- الشابين يوفتوشنكو وفوزنينيسكي والعجوز تفاردوفسكي- وهم يفجرون الأبنية العتيقة، بقدر ما كنا نتابع تجارب الكتابة التلقائية، وفنون الضوء والحركة في أمريكا، وموجة الرواية الجديدة في

[107] على سبيل التقديم، تلك الرائحة،ص 13.

[108] على سبيل التقديم، تلك الرائحة، ص،15.

[109] على سبيل التقديم، تلك الرائحة،ص 13.

فرنسا. وكانت المجلات القاهرية تحفل بالإشارة إلى شتى الأدبية في العالم. وراحت المعارضة اليمينية المقنعة للنظام الناصري-وهي التي كانت تسيطر بالفعل على كافة منافذ النشر والإعلام في البلاد- تروج في دهاء لأعمال بيكيت ويونسكو ودورينمات."[110]

إن الرواية تستلهم بالحد الأقصى من الحياة الواقعية للروائي؛ من تجربات حياته في القاهرة، داخل السجن وخارجه، وظروف البطل السارد للرواية تعكس ظروف صنع الله ابراهيم نفسه. إن الرواية تحكي قصة معتقل سياسي سرح من السجن بعد مدة طويلة. وبعد الانصراف إلى الحياة المدنية يعيش في اغتراب كامل، لأن الحياة السياسية في مصر بعد تولي عبد الناصر الرئاسة المصرية كانت تجتاز مرحلة يئسة. وكان صنع الله ابراهيم عضوا للحزب الشيوعي الماركسي "حدتو". وكان صنع الله ابراهيم من الشيوعيين المصريين الذين خضعوا للاعتقال الجماعي والقمع والتعذيب على أيدي حكومة جمال عبد الناصر. ومن المفارقة أن "عبد الناصر"شن الهجوم على الشيوعيين في حين اقترب كثيرا إلى الاتحاد السوفيتي. فقام الاتحاد السوفيتي بتمويل "السد العالي" بأسوان بعدما سحبت الولايات المتحدة وبريطانيا. ثم تم الإفراج عن الشيوعيين في مناسبة زيارة القائد السوفيتي "خروشوف" عام 1964م لافتتاح السد العالي. يصف الروائي خلفية كتابة هذه الرواية في مقدمة الطبعة الكاملة الأولى الصادرة في عام 1985م هكذا، "كنت- عندما كتبت تلك الرائحة"- خارجا لتوي من السجن، خاضعا للرقابة القضائية التي تستلزم التواجد في المنزل من غروب الشمش حتى شروقها. وكنت أقضي بقية اليوم في

[110] على سبيل التقديم، تلك الرائحة،ص15.

التعرف على عالم ابتعدت عنه كثيرا من خمس سنوات. وما أن آوي إلى حجرتي، حتى أجد نفسي مدفوعالأن أسجل بلمسات سريعة ما مر بي من أحداث ومشاهدات كانت تهزني بعنف وتبدو لي عجائبية. ثم أزيح هذه اليوميات جانبا وأعود إلى رواية، بدأتها في السجن، عن عالم الطفولة... كنت أعود إلى الرواية فأجدني عازفا عن المضي في كتابتها. فقد ضاع الوهج الذي لازم العمل فيها بين جدران السجن، واستولى الواقع الجديد على كل مشاعري."[111]

النشر والطبع للرواية

كما يبدو، كتب الرواي هذه الرواية سنة 1964م، فورا بعد تسريحه من السجن بعد خمس سنوات لنشاطاته السسياسية. صدرت الطبعة الأولى للرواية في القاهرة في شهر فبراير، عام 1966م، من مطبعة يسارية صغيرة تسمى "مكتبة يوليو". واضطر صنع الله ابراهيم لتمويل طبع هذه الرواية، "وأخيرا دفعت بالرواية إلى المطبعة بعد أن قدمت لناشرها عشرين جنيها."[112] ضمت هذه الرواية مقدمة متحمسة من الروائي الكبير "يوسف إدريس"، التي أشادت بالرواية أنها ليست مجرد قصة، بل إنها ثورة. "إن "تلك الرائحة" ليست مجرد قصة، ولكنها ثورة، وأولها ثورة فنان على نفسه، وهي ليست نهاية، ولكنها بداية أصيلة لموهبة أصيلة، بداية فيها كل ميزات البداية ولكنها تكاد تخلو

[111] على سبيل التقديم، تلك الرائحة،ص 13.

[112] على سبيل التقديم، تلك الرائحة،ص17.

من عيوب البدايات لأنها أيضا موهبة ناضجة."[113] ولكن لسوء الحظ، وعلى الرغم من أن الأحكام العرفية كانت قد رفعت، لم تكد أن ترى الرواية يومها حتى صادرته الرقابة، كما يبدو على أساس أن الرواية تتضمن الإباحية، ولكن في الحقيقة لأن الرواية تنتقد السياسة الناصرية انتقادا عنيفا وأثارت جدالا حارا. ثم تلتها طبعة غير كاملة عام 1969م في القاهرة، وأخرى من البيروت، بعد ما تمت إزالة الفقرات التي تتضمن انتقادات سياسية مباشرة أو وصفا جنسيا إباحيا من نحو السحاقية والاستمناء. ولم تنشر الطبعة الكاملة للرواية إلا عام 1986م في الخرطوم. كانت الطبعة الأولى صدرت- وصودرت- في القاهرة.. سنة 1966م...وتلتها طبعة غير كاملة في 1969م في القاهرة وأخرى غير كاملة أيضا في مجلة "الشعر" البيروتية. ثم أعيد نشر الطبعة الناقصة سنة 1971م في القاهرة ولم تنشر الطبعة الكاملة إلا سنة1986م في الخرطوم. وفي نفس السنة نشرت كاملة أيضا في القاهرة والدار البيضاء، في مجلد يضم القصص القصيرة."[114] وضمت هذه الطبعة مقدمة الطبعة الأولى ليوسف إدريس ومقدمة من صنع الله ابراهيم ترسم المناخ السياسي المصري في الستينات من القرن العشرين، وظروف نشر الرواية ورد فعل الأستاذ يحيى حقي. وظهرت الطبعة الأولى من هذه المجموعة "تلك الرائحة وقصص أخرى" المتكونة من الرواية القصيرة "تلك الرائحة" وقصص "الثعبان" و"أرسين لوبين"

[113] مقدمة الطبعة الأولى، يوسف إدريس، تلك الرائحة،ص27.

[114] مقدمة الطبعة الثالثة، تللك الرائحة،ص5.

و"بعد الظهر عبر ثلاثة أسرة" و"أغاني المساء" "وأبيض وأزرق"، سنة 1986 بالدرار البيضاء وتلتها الطبعة الثانية بالقاهرة سنة 1993م.

إن رواية "تلك الرائحة" رواية قصيرة جدا تقع في سبع وثلاثين صفحة. فإنها متكونة من فصل واحد، وسرد مستمر. والرواية مكتوبة في أسلوب اشتهر به صنع الله ابراهيم كثيرا، والذي يسمى الأسلوب التلغرافي مع جمل قصيرة جدا، بالاعتناء. يستخدم صنع الله ابراهيم في هذه الرواية صيغة المتكلم للسرد، فالسارد يشترك كشخيصة روائية، وهو الشخصية الرئيسية من نوع البطل المصاد، البطل الخائف المذعور المرعوب المطارد، الذي يعيش في الوحدة والعزلة ويعاني من الشعور بالاغتراب والعجز والإحباط واليأس. وليس للرواية حبكةروائية، عكس الروايات التقليدية؛ في الواقع تحدث حوادث الرواية كلها في عدة أيام. استخدم صنع الله ابراهيم في هذه الرواية تقنية الفلاشباك بصورة ملموسة؛ في الحقيقة معظم حوادث الرواية مصحوبة بفلاشباك. والجدير بالذكر أن الشخصية الرئيسية في الرواية أو البطل السارد هو مثال نموذجي للبطل المضاد. على الرغم من أننا نستطيع أن نظن أن البطل المضاد يتحدث باسم الروائي، إلا أنه يبقى مجهولا مغمور دون اسم. والميزة الأخرى الملموسة في الرواية هي استخدام جمل قصيرة جدا.

ملخص القصة

إن هـذه الروايـة تـدور في أواسـط السـتينات مـن القـرن العشـرين. إن هنـاك إشـارات عديـدة أن الروايـة تـدور في منتصـف السـتينات. علـى سـبيل المثـال، يصـف الروائـي في موضع انصراف الجنود المصرية من حرب اليمن التي بدأت عام 1962م.[115]

هـذه الروايـة تحكـي قصـة شـاب مثقـف، وكاتـب قصصـي، ومعتقـل سياسـي سـجن لأيديولوجيتـه ونشـاطاته السياسـية اليسـارية لعـدة سـنوات، وهـو خـارج لتـوه مـن السـجن ومنتقـل إلى الحيـاة المدنيـة. وبعـد الانصـراف إلى الحيـاة المدنيـة يتصـادم بالحقـائق الجديـدة، لأن النـاس لا يعتنـون ولا يتحمسـون للكفـاح ضـد القمـع السياسـي ولتغيـير حيـاتهم، فـإن النـاس قبلـوا أن يعـيش في هـذا المنـاخ السياسـي. مواجهـا لهـذه الصـورة يجـد السـارد نفسـه في حيـاة منعزلـة، ويجـد نفسـه عـاجزا أن يكتـب لكـي يحـرض النـاس علـى المقاومـة ضـد القهـر والاضـطهاد. فيتحـول السـارد مـن ثـوري إلى كئيـب نفسـي ويقتعـد في البيت عبثا لا يفعل شيئا، ويلجأ إلى الاستمناء لأنه لا يستطيع أن يغير شيئا.

إن هـذه الروايـة بمثابـة روايـة سـيرة ذاتيـة حيـث أن صـنع الله ابـراهيم كتـب هـذه الروايـة فـورا بعـد تسـريحه مـن السـجن، وكـان قـد سـجن لسـبب لالتزامـه السياسـي اليسـاري. تسـتهل الروايـة بتسـريح البطـل السـارد مـن السـجن، ولكـن القضـاء حـتم عليـه التواجـد في المنـزل مـن غـروب الشـمش إلى شـروقها. فيضـطر البطـل السـارد أن يضـي ليلـة أخـرى في

[115] رواية تلك الرائحة،ص48.

الزنزانة لعدم وجود مكانة إقامة له قابل للمراقبة اليومية حيث أن كلا من أخيه وأصدقائه رفضوا أن ينزلوه معهم لسبب أو آخر. وبعد التسريح يخضع البطل للتفتيش من قبلِ عسكري كل مساء. وفي اليوم التالي أخذته أخته إلى غرفة استأجرته له في القاهرة الجديدة. وفيما يلتحق من الأيام يقوم بزيارة واستقبال الأصدقاء والأقارب الذين يمثلون شرائح الطبقات المتوسطة القاهرية، معظمهم في أسفل البيوروقراطية، والبورجوازيون المحبون لأمريكا، ورجال الدين، ورجال الشرطة، والسجناء.

يكافح البطل من أجل الأمور اليومية التافهة، يحاول أن يعيد علاقاته السابقة في الحب والصداقة، وأن يحصل على العمل، ولكنه يفشل. فيحاول أن يكتب ويدخن ويسرح مع أفكاره. ولكنه يعجز عن الكتابة والتركيز على أي شيئ، ويشعر بالعجز والتعب والإرهاق وعد الرغبة، فيعيش في حالة من العزلة والاغتراب، ويعاني من الفقدان في الحب والهدف. ولما كان قد سجن لسبب التزامه السياسي اليساري، ويرى أصدقائه وأقاربه قد فقدوا الاهتمام بالسياسة، فإن عزلته واغترابه يتصاعدان. والشخصيات المتواجدة في الرواية تتكلم عن الأفلام ونجومها، والأجهزة الالكترونية الجديدة. ولا أحد يحفل بالجنود المنصرفة من حرب اليمن المدنية. والبيوروقراطيون منطوون على أنفسهم ومصالحهم، بينما كانت القاهرة غارقة في مياه المجاري الكرية المتعفنة. فهكذا يضطر البطل إلى الاغتراب، فبعد أن كافح من أجل المثل السياسية العليا وتعرض للاعتقال والتعذيب وشهد موت أحد الأصقاء، يواده الآن باللامبالاة وفقدان الاعتناء بالسياسة

والمجتمع، كما أنه يلاحظ التناقض بين دعاية الاشتراكية العربية الناصرية من جهة، والفساد السياسي والعقلية الاستهلاكية من جهة أخرى.

تصوير السياسة القمعية في رواية "تلك الرائحة"

من المهم جدا أن الرقابة المصرية صادرت الرواية فورا بعد نشرها رغم أنها لا تتضمن التلميحات السياسية المباشرة إلا في صورة ضئيلة جدا. التلميحات السياسية المضمونة في الرواية فقط تلك التي تشير إلى انصراف الجنود المصرية من حرب اليمن، وتعليق أخي البطل أن "تلف كل شيئ منذ أصبح العمال في مجلس الإدارات."[116] الرواية تصور المصرين باردين غير مبالين إلى الجنود العائدة من الحرب اليمنية، "عندما تركنا ميدان رمسيس سار بجوارنا قطار في نفس الاتجاه. وكان ممتلئا بالجنود العائدين من اليمن وكانول يهللون من النولفذ ويهتفون ويلوحون بأيديهم. وعندما أصبح المترو في حذائهم، ازداد حماسهم وهم يتطلعون إلى ركابه. وتأملهم هؤلاء في جمود ولا مبالاة. وشيئا فشيئا هبط حماس الجنود."[117] فمصادرة الرواية تعبر عن مدي الانتقاد العنيف الذي توجهه الإشارات الغير المباشرة إلى السياسة الناصرية. إن الرواية مكتوبة في خلفية الهجوم الناصرية على الشيوعيين المصريين وكبت حرية التعبير بينما القادة العرب لا يستطيعون للصمود ضد الإمبريالية الأمريكية ولا عدوانية إسرائيل ضد العرب. يفتتح

[116] ابراهيم، صنع الله، رواية "تلك الرائحة"،ص51.

[117] المصدر السابق،ص 48.

صنع الله ابراهيم الرواية بهذه الجمل القصيرة: "قال الضابط: ما عنوانك. قلت: ليس لي عنوان. تطلع إلى ف دهشة. إلى أين ستذهب أو أين تقيم؟ قلت: لا أعرف. ليس لي أحد. قال الضابط لا أستطيع أن أتركك تذهب هكذا. قلت: لقد كنت أعيش بمفردي. قال لا بد أن نعرف مكانك لنذهب كل إليك كل ليلة. ليذهب معك عسكري. وهكذا خرجنا إلى الشارع أنا والعسكري. وتلفتت حولي في فضول. هذه هي اللحظة التي كنت أحلم بها دائما طوال السنوات الماضية. وفتشت في داخلي عن شعور غير عادي، فرح أو بهجو أو انفعال ما، فلم أجد. الناس تسير وتتكلم وتتحرك بشكل طبيعي كأنني كنت معهم دائما ولم يحدث شيئ."[118] إن البطل خارج لتوه من السجن، ويشعر بالغربة والحيرة والوحدة، فقد كان حلم كثيرا بهذا اليوم، يوم الخلاص من السجن، ولكنه يصادم بحقيقة أن صلته بالسجن ممتدة لأنه تحت مراقبة عسكري يتأكد كل ليلة من تواجده في البيت، وأن خروجه إلى الحرية ليس إلا وهما.

إن المواضيع التي ترصد لها الرواية هي الفساد السياسي والاجتماعي والخلقي، الحب والجنس والغرام وخاصة العنة الجنسية، والشعور بالإحباط والعجز، النساء وحقوقهن، الكتابة والعجز عن الكتابة في المناخ القمعي، القمع السياسي والدكتاتورية العربية، وعدم اعتناء الناس بالسياسة والتلهي عن مصاعب الحياة بالاستهلاكية، وانعدام الوجدان العلاقات العاطفية، "الناس تسير وتتكلم وتتحرك بشكل طبيعي كأنني معهم

[118] المصدر السابق،ص29

دائمـا ولم يحـدث شـيئ."[119] فيـوم تسـريحه مـن السـجن لا أحـد مـن أخيـه أو أصـدقائه يرضـى أن يقـيم البطـل عنـده ولا يبـدون أيـة عاطفـة تجاهـه، "وذهبنـا إلى بيـت أخـي. وقـال أخـي علـى السـلم إنـه مسـافر ولا بـد أن يغلـق الشـقة. ونزلنـا وذهبنـا إلى صـديقي. وقـال صـديقي: أخـتي هنـا ولا أسـتطيع أن أقبلـك."[120] يتجلـى انعـدام العواطـف أكثـر وضـوحا في البطـل السـارد نفسـه، حـتى أنـه يتلقـى خـبر مـوت أمـه دون عاطفـة. "وقلـت أقـوم أبحـث عـن ذلـك المنـزل القـديم.فربمـا كانـت أمـي لا تـزال هنـاك."[121] "كنـت أريـد الآن أن أعـرف مـتى ماتـت أمـي علـى وجـه التحديـد وأيـن... قلـت لهـا مـتى أمـي بالضـبط وقالـت: غـدا يكتمـل أول أسـبوع عليهـا. وقلـت: أيـن. قالـت: عنـد أبيهـا. وأشـرت إلى رأسـي وقلـت: وكيـف حالهـا. وقالـت خالـة جـدتي: كانـت تقـرأ الصـحف وتتحـدثفي كـل شـيئ أحسـن منـا، وتتنبـأ بكـل مـا يحـدث، ولم تكـن تثـور، وقالـت جـدتي: ثم مرضـت فجـأة ورفضـت أن يراهـا الطبيـب، أو أن تأحـذ دواء مـا، وأخـذت تهـزل شـيئا فشـيئا، ثم امتنعـت عـن الطعـام نهائيـا. وقالـت خـالتي: وفي آخـر يـوم طلبـت كـوب مـاء، وعنـدما شـربته سـقطت ميتـة. وتطلعـت في سـاعتي كـان موعـد العسـكري يقـترب. وفمـت واقفـا. وقلـت يجـب أن أذهـب الآن. وودعتهن."[122]

---

[119] المصدر السابق،ص29.

[120] المصدر السابق،ص29.

[121] المصدر السابق،ص 63.

[122]المصدر السابق،ص66.

إن الروايـة تتمحـور علـى القمـع الساسـي في الفـترة الناصـرية، فـإن البطـل السـارد للروايـة يصـادم بعـد الانصـراف إلى الحيـاة المدنيـة، بحقيقـة سياسـية لا يسـتطيع التعامـل معهـا، "فنـراه في لحظـة صـدام بـين الحلـم والواقـع، يواجـه أزمـة الحريـة ويسـقط في الفجـوة العميقـة بـين رومانسـية العمـل الثـوري وواقعـة الحيـاة الآليـة البليـدة الـتي تمضـي دون اعتبـار لتضـحياته."[123]، ممـا يدفعـه إلى شـعور عنيـف للاغـتراب، ويعـيش بعـد ذلـك حيـاة بـلا هـدف، لا يفعـل شـيئا سـوى الاسـتمناء، لأنـه لا يسـتطيع أن يكتـب، كمـا لايسـتطيع أن يمـارس الجـنس. قـد كـان جمـال عبـد الناصـر دون شـك أحـب وأعـز وأشـهر شخصـية عربيـة في العـالم العـرب بأسـره، فقـد ولجه بقـوة بالغـة الامبرياليـةَ الغربيـةَ في قنـاة السـويس عـام 1956 وأمّـم القنـاةَ، وكـان في مقدمـة قيـادة حركـة "العروبـة" ومضـادة الصـهيونية، وكـان يتمتـع بتأييـد في البلـدان العربيـة، إلا أن روايـة "تلـك الرائحـة" تـدعي أن سـحر جمـال عبـد الناصـر أصـبح يـذبل في السـتينات مـن القـرن العشـرين، وعـن طريـق منـزل البطـل كسـجين يـدعي صـنع الله أن شـعبية عبـد الناصـر قاصـرة علـى القمـع وكبـت حريـة التعبـير والدعايـة. نلاحـظ في الروايـة كيـف يوجـه خطيـب أخـت البطـل التهمـة للحالـة السـيئة إلى الشـيوعيين، "وجـاء خطيبهـا وقـال إنـه وقـف سـاعتين أمـام الجمعيـة ليشـتري اللحـم. وقـال إن الحالـة لا تطـاق. وقـال أنـتم تريـدون أن تنشـروا الفقـر: وقـال ليسـت عنـدي فرصـة للثلـو.كو ّ نـتُ أي شـيئ سـتأخذه الحكومـة."[124]. ونـرى أن معظـم الشخصـيات في الروايـة غـير مبـالين

[123] عطية، أحمد محمد، الرواية السياسية: دراسة نقدية في الرواية السياسية العربية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1981، ص64.

[124] المصدر السابق،ص44.

بالشؤون السياسية، ولا يتحدث أحد من أصدقاء وأقرباء السارد إلأ عن الأفلام ونجوم الأفلام وأحدث طراز الأجهزة الالكترونية، مما يدل أن الناس خائفون من أن يتكلموا عن السياسة وقد رضوا بحياة الكبت والقمع والاضطهاد. وهذا القمع السياسي يدفع بالمثقفين من مثل البطل السارد إلى الشعور بالإحباط واليأس والعجز ويدفهم إلى الاغتراب والعزلة. وهذا الإحباط يتمثل في جميع مجالات الحياة، وأعنف مثال لهذا الإحباط عجز البطل عن ممارسة الجنس، إنه لا يستطيع أن يمارس الجنس مع أية واحدة من ثلاث نساء، صديقته وامرأة الليل وزوجة صديقه. يستخدم صنع الله ابراهيم عجز البطل عن ممارسة الجنس والكتابة كاستعارة للانتقاد على فشل الدولة المصرية والعالم العربي بأسره، فعنة السارد في الحقيقة تعني عنة الساسة العرب من الصمود ضد الغرب وإسرائيل. إن الرواية ترينا أن صنع الله ابراهيم وشخصيات الروية تكافح من أجل أن تجد هدفا ودافعا للحياة في الدكتاتورية التي يتم استخدامها لإسدال الستارة على الفوضى السياسية والاجتماعية، ولكبت الذين يرفعون أصواتهم ضد الحكومة. وفي مغامراته الجنسية ليس البطل هو الذي يفشل في ممارسة الجنس والغرام، بل النساء أنفسهن. فالناس بأجمعهم، رجالا ونساءا، مقهورون ومسلوبوا الحقوق الأساسية. عجزه من الكتابة تعني عدم قدرته على أن يتكيف مع الواقع الجديد أو أن يأتي بتغيير اجتماعي، والاستمناء أنه يضل هدف الحياة، كذلك الناس جميعهم يضلون هدف الحياة إلا أنهم لجؤوا إلى الاستهلاكية كمناص عن الواقع الحقيقي.

يوضع البطل في الاعتقال المنزلي ليلا، مما يعني أن مصر في الفترة الناصرية كانت في حالة الطوارئ، التي امتدت حتى فترات السادات ومبارك. يوضع البطل تحت مراقبة عسكري يزوره كل يوم للتأكيد من أنه في البيت، فهكذا يبقى البطل في معتقل آخر بعد الخروج من معتقل. كما أن الناس يعيشون في خوف من قانون الطوارئ، لأنهم تحت مراقبة متواصلة من الدولة البوليسية، ويمكن أن يجرى التحقيق معهم في أي وقت. ولما كانت الرقابة في الطوارئ قانونية، فإنه من الصعب للكتاب والأدباء أن يرصدوا للقضايا الاجتماعية والسياسية، أو أن ينتقدوا السلطة. يتكلم السارد عن فيلم شاهده، الفيلم عن طير مازال يزداد حجما، "وقالت أختي: نذهب إلى سينما. وذهبنا. وكان فيلما عن طيور يزداد حجمها وعددها حتى تتوحش وتطارد الناس وتفترس الأطفال."[125] الذي يريد الروائي هو أن الناس غير واعين عن واقعهم، فإن هؤلاء الطيور الدكتاتوريون العرب الذين يزداد عددهم وحجمهم حتى يتوحشون فيأكلون شعبهم. إنهم يستغلون الناس للاستعلاء على السلطة، وبعد القبض على السلطة إنهم يضطهدون شعبهم. فالرواية توجه انتقادا إلى الضباط الأحرار لثورة 1952م الذين تحولوا إلى المضطهدين الظالمين، بعد ما دعوا الناس إلى الثورة. فالبطل يعي أن هؤلاء الضباط الأحرار لم ياتوا بالعدالة والحرية للمصريين. بالعكس أخذ عبد الناصر الذي وثق به الناس في اصطهادهم. تتجلى هذه الناحية في الفلاشباك الذي تتحدث فيه الرواية عن "شهدي عطية"، صديق صنع الله ابراهيم الذي قتل في تعذيب في السجن مع الشيوعيين

[125] المصدر السابق،ص 32.

الآخرين. " كان الأمر في البداية نبلا وأصبح الآن لعنة. وجف النبع الذي كان يتألم للآخرين.. وعندما وقف وظهره يقطر دماء كان صامدا لا يهتز، يستعذب قدرته على الصمود. لكن الناس لم تعد تعبأ بهذا اليوم، فقد تغيرت روح العصر. وليس صدفة أن الكلمات التي يستخدمها قد تغير مدلولها منذ زمن، وبعضها كاد يصبح بال مدلول على الإطلاق..وكان مشتركا في اللعبة ويفهم قواعدها ويسر عليها. لكنهم طبقوا القواعد عليه... لكنه مهزوم في لعبة لا تعرف الرحمة وليس لها في الحقيقة أية قواعد. ولا يمكنك فيها أن تقرر الصح من الخطأ، وليس المنتصر هو المصيب بالضرورة، إنما هو أمهر وأمكر وأكثر حظا."[126] قلدريك صنع الله ابراهيم كيف يستغل هولاء الناس ُ الثورةَ للاعتلاء على السلطة، ثم يتحولون إلى الدكتاتور.يريد صنع الله ابراهبم من المصريين أن يفهموا كيف أدت الحكومة الناصرية إلى التدهور الاقتصادي والاجتماعي و السياسي في مصر.

ولأن البطل يرى الناس حولهم محزونين ومكتئبين وعاجزين عن تغيير شيئ، إنه لا يستطيع أن يكتب شيئا. ولا أحد من الذين يراهم ويلتقيهم يعيشون حياة راضية ولا يكادون أن يعيشوا. يناول قلما ويحاول أن يكتب ولكنه لا يستطيع ولا يجد رغبة أو حافزة أن يكتبو كلما يفشل أن يكتب، إنه يريح نفسه من الإحباط والألم بالجوء إلى الاستمناء. فالعلاقة بين عجزه من الكتابة وأن يعيش حياة عادية ظاهرة في الاستمناء. إن الاستمناء رمز قوي للشعور بالإحباط لدى البطل وعدم كفائته أن يفعل شيئا. إنه لا يستطيع أن يتفاعل مع الآخرين، مع القراء عن طريق الكتابة والنساء عن طريق الحوار وممارسة

[126] المصدر السابق،ص47.

الجنس. في الحالتين كلتيهما يتم قمع رغبته في الحياة. فيحاول عن أن ينطلق عن القيد بالاستمناء. ولكنه يدرك أن هذا ليس إلا وسيلة مؤقتة، فيستمر يعيش في الاغتراب والسجن النفسي.

الفصل الثاني

مشاريع تنمية مصر وانعدام الحقوق الأساسية

السياسة المصرية كما تصورها رواية "نجمة أغسطس"

رواية "نجمة أغسطس" هي الرواية الثانية لصنع الله ابراهيم، صدرت عام 1974م أي بعد سبع سنوات من صدور روايته الأولى "تلك الرائحة" الصادرة في عام 1967م. إن هذه الرواية أروع ما كتب في القضايا السياسية العربية المعاصرة في الرواية العربية. الرواية مكتوبة في صورة رحلة. يقوم شاب و هو خارج لتوه من المعتقل السياسي برحلة إلى "أسوان" لمشاهدة بناء "السد العالي" ويستهدف إعطاء الصورة الحقيقية المتواجدة هناك وخاصة بالنسبة للعمال المصريين وحقوقهم الأساسية. الرواية تعطي الصورة الدقيقة عن ظروف العمل الصعبة وتبرز التناقض بين الصورة المرسومة لأحوال العمال المصريين في وسائل الإعلام و بين الواقع اللاإنساني الذي يوجد في موقع البناء. والرواية كما أنها رحلة إلى الأماكن ورحلة اكتشاف وبحث إنها رحلة إلى الماضي ورحلة إلى المستقبل ورحلة إلى العواطف و المشاعر و الداخل النفسي. يتكون معظم الرواية من وصف عملية بناء السد العالي وحفظ معابد رمسيس الثاني بكل تفاصيله في أسلوب صحفي وتقريري.

إن رواية "نجمة أغسطس" رواية سياسية حادة تصور الجو العام والمزاج العام المتواجدين حينذاك في المجتمع المصري من مشاعر الإحباط لدى الشاب والقمع السلطوي وانعدام الديمقراطية. وإن هذه الرواية تمُثّل أهم نموذج من نماذج الروايات العربية التي كتبت على نمط "الواقعية الجديدة" أو "الحساسية الجديدة" التي ميزت الإنتاج الفني إثر نكسة 67 والتي كانت نتيجة التمرد على "الواقعية الاشتراكية" أو "الواقعية التقليدية" و التي أحس الروائيون بالحاجة الملحة إليها للتعبير عن فشل رجال ثورة 1952 في تحقيق وعود الثورة وإنجاز طموحات الناس وتحقيق العدالة الاجتماعية والتقدم بالمجتمع المصري. فهذه الرواية واحدة من أهم علامات التجديد والتجريب في الرواية العربية، ومن أكثر أعمال صنع الله ابراهيم فنيا وتجريبا، جدد وجرب فيها الروائي في الشكل والموضوع. تتبع هذه الرواية نفس الأسلوب والرؤية الذين اتبعهما الروائي في رواية "تلك الرائحة" الصادرة عام 1967، "ولكن في شكل فني متطور أشبه بالطفرة بالقياس إلى روايته الأولى القصيرة إذ تلج هذه الرواية مكانا جديدا وتجربة جديدة تقتحمهما الرواية العربية لأول مرة وذلك بتصويرها التسجيلي لعمليتي بناء السد وإيقاذ آثار أبي سنبل".[127] "وتتميز الرواية بوفرة الشخصيات وتباينها، وبتشابك العلاقات الاجتماعية والرؤية الشمولية، وتداخل التأريخ بالأساطير بالفن بالسياسة بالواقع والحب بالفن والجنس بالسد، في تصوير غريب مدهش يهدف إلى رؤية مصر كلها في تلخيص فني حاذق جميل يمزج التأريخ بواقع العمل في

[127] عطية، أحمد محمد، الرواية السياسية: دراسة نقدية في الرواية السياسية العربية، ص73.

السد العالي بالاله المعبود، بالحكم المطلق، بالمسجونين، بوفاة الحاكم المطلق".[128] والجدير بالذكر أن 'هذه الرواية كونت نموذجا لروايات صنع الله ابراهيم الطويلة اللاحقة'.[129]

أتم الروائي كتابة هذه الرواية في مدة سبع سنوات وفي فترات متقطعة بين أكتوبر 1966م إلى يناير 1973م في الأماكن التالية على التوالي: القاهرة، وبرلين، وشاطئ البحر الأسود، وموسكو[130]. صدرت الرواية عام 1974م من "اتحاد الكتاب العربي" بـ"دمشق" لما أنها كانت قد صودرت في مصر لأنها تضم نقدا سياسيا لادغا للحكومة المصرية. وفي وقت لاحق طبعت الرواية في القاهرة من دا رالثقافة الجديدة عام 1976م، وفي بيروت عام 1980م.

وأما فيما يتعلق بتسمية الرواية هكذا فإننا نرى وصف النجوم والسماء في كثير من المواضع في الرواية فعند وصوله إلى منطقة السد العالي يصف السارد السماء كما يأتي "كان هناك عدد من الصعايدة على مقربة يقومون بتمهيد الأرض بالفؤوس ورشها بالمياه. وفوقنا امتدت السماء شديدة الصفاء لا أثر بها للقمر أو النجوم".[131] "رفعت بصري إلى السماء. كان ثمة نجمة كبيرة تتلألأ على يميني وقد انفردت بصفحة السماء.

---

[128] المصدر نفسه،ص 74.

[129] Starkey, Paul, Sonallah Ibrahim: Rebel with a Pen, pg. 53.

[130] ابراهيم، صنع الله، رواية "نجمة أغسطس" ، ص 222. دار الفارابي- بيروت ص.ب. 3181، الطبعة الثالثة، 1980.

[131] رواية نجمة أغسطس، ص112.

ظللت أتأملها بعض الوقت ثم اتجهت نحو الاستراحة".[132] وفي بداية رحلته من منطقة السد إلى أبي سنبل " فتحت عيني فطالعتني النجمة الوحيدة وسط السماء.. ظللت أتأمل النجمة التي انفردت بصفحة السماء. وغفوت... استيقظت في الليل فطالعتني آلاف النجوم المتناثرة المتباينة الأحجام ".[133] وفي الطريق النهري إلى أبي سنبل "في السابعة والنصف تماما بزغت النجمة الوحيدة. خيل إلي أنها كانت تتجه إلى الغرب ثم توقفت. وفكرت بأن أقوم لأسأل أحدا عنها. فلا بد أن الريس يعرفها. ولعلها تكون نجمة الشعرى اليمانية التي كانت تظهر لقدماء المصريين مع حلول الفيضان. أو الدب القطبي الشهير الذي يسترشد به البحارة والتائهون. لكني لم أجد حماسة للقيام. وأحسست أن أية إجابة أحصل عليها لن تغير من الأمر شيئا" "انفردت النجمة بالسماء طوال نصف ساعة إلى جانب القمر الذي بزغ نصفا. وفي الثامنة ظهرت مجموعة جديدة من النجوم الصغيرة المتناثرة. لكنها ظلت محتفظة بمسافة واضحة لا تتغير بينها وبين النجمة الكبيرة. واستمر وضع هذه ثابتا نصف ساعة أخرى. ثم اختفت".[134] وحسب الناقد "محمود أمين العالم" إن هذه "النجمة" الخاصة في الرواية أي –الشعرى اليمانية أو الدب القطبي- هي "نجمة" هذا "الاغسطس" الخاص في هذه الرواية و ليست لها دلالة إشارية محددة خارجها ولهذا تكاد أن تحمل دلالة رمزية فإن نجمة

---

[132] نفس المصدر،ص114.

[133] المصدر نفسه،ص163&164.

[134] نفس المصدر،ص173.

أغسطس تضعف وتتضاءل في رواية "نجمة أغسطس".[135] وعند اقتراب نهاية الرحلة النهرية والنزول في أبي سنبل "وتابعت الشمش تغرب حتى اختفت وبزغ القمر في الشرق. بحثت عن النجمة الوحيدة دون جدوى ثم رأيتها فجأة أمامي واهنة صغيرة".[136] و لما كان شهر أغسطس يشهد حرا شديدا فالهدف الرمز إلى جسامة الجهد المبذول لتحقيق أخطر عمل في أشد الأوقات حرارة و قيظا.[137]

السد العالي

تتمركز الرواية على الفترة الأخيرة من بناء "السد العالي" ب"أسوان". والسد العالي من أهم مشاريع تبناها الرئيس المصر ي السابق "جمال عبد الناصر" للتقدم بمصر سياسيا واقتصاديا وحضاريا. بدأ هذا المشروع في عام 1952م فورا بعد "ثورة يوليو 23" وتم في عام 1970م. وكان المشروع قد اكتسب أهمية رمزية هائلة لعزيمة "قيادة الثورة" لتحديث مصر وكان مركز المبادرات الأخرى لتصنيع مصر الذي استلزم تحويلها من بلد زراعي متخلف وفقير إلى بلد غني و متقدم صناعيا وتكنولوجيا. وكان من أغراض السد المبيّنةِ السيطرةُ على الفيضانات ونظم مياه الري في وادي النيل وتوليد الكهرباء للبرنامج التصنيعي. 'واستلزم بناء السد تواجد عدد ضخم للمهندسين والمؤظفين الآخرين الروس في مصر لمدة عقد مما تمخض عن اقتحام ثقافي وذلك الذي مما تصوره هذه الرواية.و

[135] العالم، محمود أمين، ثلاثية الرفض والهزيمة، ص 58، الطبعة الأولى 1958، دار المستقبل العربي، القاهرة

[136] رواية نجمة أغسطس، ص183.

[137] العالم، محمود أمين، ثلاثية الرفض والهزيمة، ص 58، الطبعة الأولى 1958، دار المستقبل العربي، القاهرة.

كـذلك أخضـع تشـييد السـد مسـاحات كبـيرة لآراضـي "الصـعيد" للفيضـانات لإنشـاء بحـيرة (بحيرة ناصر) كمـا أنـه استلزم انخـلاع و إعـادة تـوطين المـواطنين المحليـين وإعـادة وضـع عـدة الآثار القديمـة المصـرية وبالأخـص المعابـد المتواجـدة في "أبي سـنبل"'. [138] ولكـن كمـا كـان السـد العـالي مركـز الثـورة الناصـرية أصـبح كـذلك مركـز إلغـاء الناصـرية.وصـف النـاس السـد كخطـأ لأن المشـروع لم يكـن قـد درس بدقـة لازمـة ممـا أدى إلى تخريـب المنـاخ والكـوارث وغمـس القـرى في أبي سـنبل، وعـلاوة علـى ذلـك لم يـؤد السـد إلى حـل المشـاكل الـتي كـان من المفروض أن يحلها ولم يحقق الوعود وكان خيبة.

الرواية وجيزا

يـتم سـرد الروايـة بصـحفي مسـتقل غـير مسـمى. وهـو الشخصـية الرئيسـية في الروايـة. فشـأن معظـم رواياتـه هـذه الروايـة مكتوبـة في تقنيـة سـردية سماهـا الناقـد الفرنسـي ب Homodiegetic narrative. يقـوم الأنا السـارد برحلـة إلى "أسـوان" و مـن هنـا إلى "أبي سـنبل" ويصـف عمليـتي بنـاء السـد ب"أسـوان" ونقـل معابـد "رمسـيس الثـاني" في "أبي سـنبل" في تفاصـيل دقيقـة. 'و الروايـة تعتمـد علـى رحلـة قـام بهـا الروائـي إلى كـل مـن موقـع العمـل في السـد العـالي و"أبي سـنبل" في صـيف عـام 1965 ووضـع عنهـا كتـابا بالاشـتراك مـع "كمـال القلـش" و"رؤوف المسـعد" صـدر في القـاهرة عـام 1967م بعنـوان " انسـان السـد العـالي"'. [139] فمـن هـذا المنطلـق يمكـن قـراءة و تحليـل هـذه الروايـة كإعـادة

[138] Starkey, Paul, Sonallah Ibrahim : Rebel with a Pen, pg 5453&.

[139] ابراهيم، صنع الله، رواية نجمة أغسطس، ص222.

صياغة تناصية ل"انسان السد العالي" كما فعلت الدكتورة "سيزا قاسم دراز" في دراستها لهذه الرواية.[140] فهكذا إن هذه الرواية تعتمد كثيرا على عناصر السيرة الذاتية كما هو شان رواية "تلك الرائحة" ويمكن القول أن السارد هو نفس الكاتب وكما أن الرواية تقف بين الرواية و السيرة الذاتية فإنها تقف بين الرواية و الريبورتاج الصحفي. فالرواية مكتوبة في أسلوب التحقيق الصحفي التقريري والتسجيلي والتحقيق الأكاديمي. "وقد استعان المؤلف بالمطبوعات والنشرات المختلفة الصادرة عن هيئة السد العالي وشركة المقاولين العرب ووزارة الثقافة ومركز تسجيل الآثار المصرية".[141] "ويتكون لحم الرواية من وصف الأشياء.. ولكن بأسلوب التحقيق الصحفي والتقارير الاكاديمية التسجيلية ومن خلال رؤية البطل وإحساسه بضخامة العمل في السد.".[142] ومعظم أجزاء الرواية تتألف من وصف التفاصيل اليومية من الزيارة والرحلة واللقاء ووصف التحفير والتفجير والمحادثات والنوم والاستيقاظ والأكل و والتدخين. كما أنها لا تترك وإلا تذكر كل ما يمكن أن يشير إلى أن العمل والإقامة في أسوان صعبان جدا وأن العمل جسيم والمشاق التي تحملها العمال لا تطاق فتذكر الحرارة الشديدة والصداع ومشكلة النقل والتنقل. "شعرت بدوار مفاجئ وجفاف شديد في حلقي."[143] "قلت إني أشعر بالتعب وافضل

---

[140] دراز، سيزا قاسم، Opaque and Transparent Discourse: A Contrastive Analysis of the "Star of August" and "The Man of the High Dam by Sonallah Ibrahim, Journal of Comparative Poetics, pages 32-50 1,982.

[141] رواية نجمة أغسطس،ص222.

[142] عطية، أحمد محمد، الرواية السياسية: دراسة نقدية في الرواية السياسية العربية، ص73.

[143] رواية نجمة أغسطس،ص73.

العـودة إلى الاسـتراحة."[144] يقـول مهنـدس الخرسـانة "الحيـاة كالسـجن. ولـولا النقـود مـا بقيت لحظة واحدة."[145]

تتكـون الروايـة مـن 223 صـفحة كمـا في الطبعـة الثالثـة الصـادرة مـن "دار الفـارابي" ب"بـيروت" عـام 1980م. والروايـة متوزعـة في ثلاثـة أقسـام. القسـم الأول يتـألف مـن أربعـة فصـول و يتعامـل مـع رحلـة الصـحفي إلى أسـوان ومشـاهدته لعمـل بنـاء السـد العـالي وتفاصـيل الحيـاة اليوميـة هنـاك. والقسم الثـاني للروايـة هـو أكثـر مـا في هـذه الروايـة فنّـاً وحسـب الناقـد "محمـود أمـين العـالم" لعـل القسـم الثـاني مـن الروايـة هـو "الـذي أعطـى لهـذه الروايـة مـذاقها الأدبي الخـاص، بـل لعلـه هـو الـذي أنقـذ أدبيتهـا، وارتفـع بهـا عـن أن تكـون مجـرد ريبـورتاج!".[146] يتكـون هـذا القسـم مـن اثنـتي عشـرة صـفحة كلهـا جملـة واحـدة دون وقـف و علامـات ولكـن مـع الاسـتعانة بالإكثـار مـن حـروف العطـف والوصـل، ويتعامـل في وقـت واحـد مـع الوقـائع السـردية والاسـترجاع والـذكريات والتضـمينات مـن مختلـف الطبـاع في تناسـق تام. والقسـم الثالـث يتكـون أيضـا مـن أربعـة فصـول ولكـن في صـورة تنازليـة، أي يبـدأ مـن الفصـل الرابـع وينتهـي بالفصـل الأول. يرصـد القسـم الثالـث لرحلتـه مـن "أسـوان" إلى "أبي سنبل" ومشاهدة عمل نقل معابد "رمسيس الثاني" وحياة الناس هناك.

---

[144] المصدر نفسه،ص73.

[145] المصدر نفسه،ص42.

[146] العالم، محمود أمين، ثلاثية الرفض والهزيمة،ص100، الطبعة الأولى 1958، دار المستقبل العربي، القاهرة

وأهم ما يجدر بالذكر هنا أن الوقائع السردية ليست وحيدة ما تتكون منها الرواية. الرواية متكونة من أربعة أشياء مهمة، الوقائع السردية، والتضمينات من كتاب "ميكل انجلو" والوثائق التأريخية عن مصر القديمة وخاصة عن "رمسيس الثاني"، وذكريات السارد عن ماضيه هو وأصدقائه وخاصة صديقه "شهدي عطية" وهم يخضعون للتعذيب في السجن و كذلك نقلهم إلى السجن، والأحلام المختلفة التي يحلم بها السارد.

تلخيص القصة

وقد يليق بنا أن نذكر أنه من جد صعب تلخيص هذه الرواية لأن تقنية السرد المستخدمة في الرواية مختلفة جدا. فليس للرواية حبكة عادية وليس لها شخصيات نامية فلا تنمو الرواية عاديا. تلجأ الرواية إلى ذكر تفصايل الحياة اليومية والتفاصيل التقنية الميكانيكية لبناء السد. ولكن ينبغي ذكر مغزى قصة الرواية لكي يكون البحث أسهل للفهم. ومهم كذلك أن نذكر أن كلا من الوقائع المسرودة والتضمينات والذكريات والأحلام تتداخل البعض في البعض في اتساق وتناسج مع تطور سرد الرواية وهذه التضمينات و الذكريات هي التي تمنح الروية أدبيتها وفنيتها وجمالها ومعناها السياسي. على سبيل المثال، سافر السارد إلى أسوان بالقطار، فهذا يذكره هو سفرا أخر بالقطار حينما كان هو وأصدقائه من المعتقلين السياسين ينقلون إلى سجن بالصعيد.."كانت محطة الجيزة قد أخليت لنا تماما،.. وفي مدخل البناء الذي تضيئه مصابيح باهتة كانت بضع رؤوس تتطلع بفضول ولا تجسر على الاقتراب، وعندما حانت اللحظة أخذوا

يـدفعوننا بعنـف والقيـود تحـز في أيـدينا، وصـعدنا العربـة المظلمـة رلا مصـابيح أو مقاعـد، وظللنا وقوفا طول الليل إذا أراد أن يجلس جر الآخرين معه ووقعوا على وجوههم.."[147].

القسـم الأول المتكـون مـن أربعـة فصـول يتعامـل مـع رحلـة السـارد، وهـو شـاب مثقـف في الرابـع والعشـرين مـن عمـره و خـارج لتـوه مـن المعتقـل السياسـي، إلى أسـوان لكـي يشـاهد هنـاك مسـار تحويـل نهـر النيـل وأعمـال بنـاء وتشـييد السـد العـالي. وفي أسـوان يقضـي السـارد العديـد مـن الأيام، كمـا يبـدو، في جمـع المـواد المتعلقـة بمختلـف جوانـب شـؤون بنـاء السـد، لكـي ينشـر في صـحيفة/ مجلـة عـن "السـد العـالي" والنـاس العـاملين هنـاك. ولهـذا الغـرض يقـوم بالمقـابلات الشخصـية مـع عـدة مـن المسـؤلين مـن المهندسـين المصـريين و الـروس والعمـال والمـؤظفين الآخـرين وينشـئ صـداقة مـع كـل مـن المصـريين والـروس، كمـا أنـه يقـوم بالـز يارات إلى المواقـع نفسـها ويشـاهد الـدور التكنيكـي مـن بنـاء السـد. إن السـارد يصـف كـل تفاصـيل البنـاء كمـا يشـاهدها وكـذلك جميـع تفاصـيل حياتـه اليوميـة هنـاك مـن التـنقلات، والحـوارات مـع الأصـدقاء والعمـال والسـائقين ومهندسـي المشـروع، والحـر الشـديد، والبعـوض، والصـداع، فتكـون الروايـة أحيـانا مملـة. كمـا أن السـرد لا يـترك وإلا يشـمل الأعمـال العاديـة المملـة مـن مثـل البحـث عـن الإقامـة ونظـم المواصـلات للانتقـال إلى أمـاكن مختلفـة بأسـوان. وفي أسـوان لا يلبـث ويكتشـف أن الحكومـة ورجـال المخـابرات تراقـب كـل الأخبـار والتقـارير عـن تطـور ونجـاح بنـاء "السـد العـالي" و الأحـوال المتواجـدة هنـاك وخاصـة أي انتقـاد

[147] نجمة أغسطس، ص26.

للحكومة بالنسبة لانتهاك حقوق العمال، وكذلك إنه يكتشف أن وسائل الإعلام لا تنشر الأخبار الحقيقية فلم تنشر عن الضحايا الذين لقوا حتفهم لسبب الدمار الذي نتج عن أخطاء الفترة الأولى ولا عن الأموات الناتجة من الأمراض في هذه الفترة الأخيرة التي زار السارد فيها أسوان. "ابتعت الصحف ولم أجد فيها إشارة واحدة لحالات الوفاة المنتشرة في الس..زما لبث سعيد أن عاد جالبا معه اخبار الموتى وآخرهم عامل النادي الذي سقط ميتا وهو يشرب كوبا من الشأي.."[148] فيكتشف السارد أنه على عكس ما تنشره الصحف ليس كل من يعملون في السد سعداء. والصحف تدعي أن العمل في السد اختياري وليس إجباريا، بينما الواقع عكس ذلك. "كانت الصحيفة مطوية على صفحة تتصدرها صورة كبيرة لجسم السد كتب تحتها: "السد الانسان صنع كل هذه القصص الانسانية".. عدت إلى موضوع القصص الإنسانية. كان كاتبه يقول أن **كل من يعمل في السد يستطيع أن يقوم بإجازة حينما يشاء لكم أحدا لا يرغب في ذلك.."**[149]

سبق أن القسم الثاني هو أروع مافي هذه الرواية وتمزج بين أحداث لا علاقة لبعضها ببعض في كلمات متناسقة مترابطة، فيمزج بين الوقائع السردية من مثل عمل حفر السد، و مضاجعته لتلك الفتاة الروسية تطورت علاقة حميمة معها لمدة، والنحت من كتاب

[148] نفس المصدر،ص109.

[149] نفس المصدر،ص72.

مائكل انجلو. تحدث الوقائع السردية في هذا القسم والسارد في أسوان يشاهد العمل ويلتقي بأصدقائه.

وفي القسم الثالث المتكون من أربعة فصول تنتقل بنا الرواية إلى هجر السارد أسوان وسفره إلى "أبي سنبل". و في "أبي سنبل" يزور برفاقة "خليل" مهندس الآثار القديمة إلى المعابد والهياكل التي بناها "رمسيس الثاني" والتي خضعت للفصل من أماكنها الأصلية. و كانت المعابد حينذاك في عملية إعادة البناء في مواقعها الجديدة واعتبر مشروع إعادة بناء المعابد في عظمةنباء السد العالي ومن خلال السرد تعكس الرواية الثقافات القديمة، كما أنه يقارن بين رمسيس الثاني و جمال عبد الناصر. وأخيرا يقرر السا رد الانصراف إلى القاهرة.

التصوير السياسي في رواية "تجمة أغسطس"

أول شيئ يهم أن نذكر في هذا الصدد أن هذه الرواية صعبة جدا أن نفهم مغزاها ومحورها. للبداية، إن الرواية ترصد للتناقض بين مشروع بناء "السد العالي" الذي يستهدف تحديث وتعصير وتصنيع وتنمية مصر وواقع الأحوال السياسية المصرية من الاستبدادية والأوتوقراطية والقمع واستخدام القوة والتعنيف وانعدام الديمقراطية وانعدام العدالة الاجتماعية. والذي نعثر عليه في جميع نواحي الرواية هو غلبة القمع السلطوي والقهر، وتفشي الفساد بين الطبقة السائسة الحاكمة، والطبيعة المفسدة للسلطة السياسية، والاستغلالية والنفعية، وعموم الإحساس بالإحباط والتسلط، وتفشي الكذب

والخديعة في هذه الظروف الاستبدادية المطلقة. كما أنها ترصد في صورة ساخرة لمفارقة أن الحكومة المصرية تقوم بتشييد السد العالي بمساندة الاتحاد السوفيتي بينما أنها تكبت وتسجن الشيوعيين المصريين. 'فأزمة البطل الثوري تتمثل في عزلته عن الإنجازات الضخمة التي تتحقق وفي وقوعه في الهوة التي تفصل بين ضخامة الإنجازات وأزمة الحرية'.[150] "فظهر الحوار في الرواية مع تيار الوعي ليبين وقائع التعذيب التي عاناها مع البطل الآخر الواقعي. كما استخدم تيار الوعي استخداما مقارنا في التقابل والتضاد بين وقائع التعذيب والسجن وتفاصيل العمل الجبار في بناء السد العالي، وأيضا ربط الوعي بين ما يجري من إنشاءات معمارية وبين فن النحت والمعمار لدى مايكل انجلو والمصريين القدماء".[151] وبالإضافة إلى ذلك نصادم في الرواية بالملل والسآمة والعجز واليأس وكل ما رأيناه في "تلك الرائحة". فالرواية تضع أمامنا الأخطار الصحية والعفونة التي لم يجتزها السارد في الحياة المدنية في القاهرة من مثل المعيشة البدائية والحر الشديد، وكذلك البعوض والذباب والعقارب والأمراض المهلكة. وفيما يتعلق بالسارد فهو مثقف يحب القراءة والكتب ويتسلى بالشراب والنساء. والشراب يبدو هواه الأثيرة. والإحباط الجنسي بين الشباب بمن فيهم السارد يزخر في الرواية كما كان الشأن في تلك الرائحة. فالشباب متعطشون إلى الجنس ويضيعون كمية من الوقت في محاولة إشباع العطش الجنسي ولكن في معظم الأحيأن دون جدوى. فعلاقة الغرامة بين السارد والروسية "تانيا" يبقى دون

[150] عطية، أحمد محمد، الرواية السياسية: دراسة نقدية في الرواية السياسية العربية، ص76.

[151] عطية، أحمد محمد، الرواية السياسية: دراسة نقدية في الرواية السياسية العربية، ص76.

حـب. و نصـادم بالشـباب يهـذون عـن المغـامرات الجنسـية الخياليـة مـع النسـاء الأوربيـات. "جلسـت في مواجهـة القاعـة أتأمـل أفخـاذ السـائحات العاريـة."[152] "وقفـت فتـاة جلـد النمـر فجـأة واتجهـت إلى السـلم المـؤدي إلى الطـابق الأعلـى. قـال صـفوت إن مشـد صـدرها انقطع وستصعد لتربطه."[153]

تقـع أحـداث الروايـة في خلفيـة عـدم إنجـاز وعـود ثـورة 23 يوليـو 1952م واغتصـاب وإسـاءة اسـتخدام السـلطة علـى أيـدي قيـادة الثـورة، ونكسـة 1967م والشـعور بالإحبـاط واليـأس وخيبـة الآمـال بـين النـاس و خاصـة بـين الشـباب النـاتج مـن هـذه النكسـة ومـن وهـن القيـادة السياسـية. يـرى صـنع الله ابـراهيم في هـذه الروايـة أن كـل هـذا نـتج مباشـرا مـن النظـام السياسـي الـذي جـاء في الوجـود بعـد الثـورة، فـإن هـذا النظـام أدى إلى تركيـز السـلطة والاقتصـاد ممـا أسـفر عـن الفسـاد وعـدم اعتنـاء القـادة والساسـة بصـالح الـوطن والشـعب.بـل أصـبحت الأغـراض الفرديـة كـل مـا تهمهـم. "وقـال سـعيد إنـه التقـى في الظهـر بوكيـل الـوزارة وحدثـه عـني فقـام هـذا إلى التليفـون واتصـل بالشـركة. ورحبـت هـذه باستضـافي لأنهـا تريـد تحسـين العلاقـة مـع الهيئـة كمـا أنهـا تهـتم بالدعايـة لنفسـها أكثـر مـن بقيـة الشـركات الأخـرى المشـتركة في المشـروع. سـألته عـن السـبب فقـال إنهـا تـدخل معركـةحياتها ليسـتمر إعفاؤهـا مـن التـأميم بعـد انتهـاء السـد ولـذلك تقـوم ببنـاء فـيلات فخمـة لكبـار رجـال الحكومـة بأسـعار

[152] رواية نجمة أغسطس ، ص 79.

[153] المصدر نفسه، ص84.

بخسة لا يتصورها عقل".[154] فالنظام الذي تأسس لم يكن ديمقراطيا ولم يعتن بصالح الشعب مما أدى إلى الشعور بالإحباط والسخط الشديد بين الناس. ولجأت السلطة إلى القمع واستخدام القوة ضد الذين احتجوا على الفساد. فبطل الرواية مثقف خارج لتوه من السجن والاعتقال فيقع في الصدام بين الحلم والواقع. إن السارد أو الشخصية الرئيسية هو ثوري سابق قد فقد أي ثقة بالنظام ولا يرى أي رجاء للخير من أصحاب السلطة السياسية، ولا أملا للعدالة الاجتماعية. في الحقيقة يجدر بنا أن نقول أن فكرة الرواية تتمحور على النظام المستبد الذي تأسس في قيادة رئاسة "جمال عبد الناصر". والرواية تؤكد هذه الناحية عن طريق كل من السرد والذكريات والتضمينات، فبجانب وصف تفاصيل تشييد السد تركز الرواية على مصادرة ومراقبة الصحافة وتعذيب اليساريين والاخوانيين والصحافة كما تصورها الرواية مليئة بالأكاذيب بالنسبة للعمال المصريين في أسوان. والنظام الذي تأسس بعد ثورة 1952م كان نظاما مستبدا شموليا قائما على القمع والكبت واستخدام القوة. "قلت هل تذكر الليلة التي قضيناها في قسم البوليس الحربي؟ انفجر ضاحكا وقال" وجعلنا ندق الجدران ونصيح اننا محتجزون بلا قانون وأننا نريد النيابة. تصور. تذكرنا أستاذ القانون الدستوري الذي كان مصرا على الاحتفاظ بطربوشه رغم أن الثورة ألغت الطرابيش... قال سعيد لقد رأيته أخيرا بلا طربوش ثملا مهدما".[155] لذلك فإننا نرى الشخصيات وحيدة غريبة مطاردة عاجزة

[154] رواية نجمة أغسطس،ص38.

[155] رواية ندمة أغسطس، ص31.

دائمـا في الخـوف. والروايـة تزخـر بوصـف التعـذيب والضـرب العنيـف وخاصـة عـن طريـق ذكـريات السـجن. ".. وعنـدما حانـت اللحظـة أخـذوا يـدفعوننا بعنـف والقيـود تحـز في أيـدينا، وصـعدنا العربـة المظلمـة بـلا مصـابيح أو مقاعـد، وظللنـا وقوفـا طـول الليـل إذا أراد أحـدنا أن يجلـس جـر الآخـرين معـه ووقعـوا علـى وجـوههم، وإذا أراد أن يتبـول سـحبهم معـه إلى الـركن حيـث يحفـون بـه عـن يمـين و عـن يسـار..".[156] "أمـرونا بأن نقتعـد القرفصـاء و نحـني رؤوسـنا حـتى لا يـرانا أحـد في الطرقـات، وفي بهـيم الليـل انطلـق موكـب اللـوريات إلى قلـب القـاهرة القديمـة، وهـواء ينـاير القـارص يضـرب آذاننـا، وبـدأ الطريـق يصـعد إلى أعلـى،..وقـال أحـد ذوي التجربـة أن في القلعـة معـتقلا أنشـأه الانجليـز ولم يسـتخدم مهـا،.. وقـال حسـين أنهـم أخـذوه مـن حفـل زواجـه، فقـال آخـر أنـه كـان سـيتزوج الأسـبوع القـادم، ورقـدنا في صـفين متقابلين نتطلـع إلى الجـدران العاليـة والكـوات المسـورة في أعلاهـا، ولعلهـا كانـت القاعـة الـتي شـهدت مذبحـة المماليـك..،".[157] "الحـارس الملـول في سـترته الصـفراء يقـرع القضـبان الحديـدة بمفتاحـه، وننطلـق في طـابور ينـوء بحمـل جـرادل البـول لتفريغهـا ثم نعـود بجـرادل الميـاه لمللئهـا، والتفتـيش الـدقيقق بحثـا عـن ورقـة أو قلـم أو جريـدة، ثم يتتـابع صـوت المفتـاح وهـو يـدور في أقفـال الـزنازين، يحـبس في كـل زنزانـة جانبـا مـن ضـجة العنـبر حـتى يسـود الهـدوء التـام، ونجلـس علـى الأرض مسـتندين بظهـورنا إلى الجـدران

[156] رواية نجمة أغسطس، ص 26.

[157] المصدر نفسه،ص36&37.

المثلجة".[158] فالرواية تشير إلى ضآلة حرية الإنسان في كل من الوقائع السردية والذكريات عن طريق تيار الوعي لمشاهدة التعذيب البشعة. ولقد أهدى الكاتب الرواية إلى شهدي عطية الذي نجد شخصيته ماثلة في الرواية وتذكر اسمه في القسم الثاني وتصور تعذيبه في السجن وموته من التعذيب. وكما أن البطل خائف يعيش بإحساس المطارد ويتنفس مناخ القهر والروع. الرواية تزخر بوصف الاعتقال والتعذيب.نشعر بأنه كما كان الهم الوحيد للحكومة المصرية. "سألني عباس عن موعد قدومي وعما إذا كان هناك جديد في السياسة. ثم قال إنه سمع اليوم أنهم يعتقلون الإخوان المسلمين في القاهرة...قال ونحن نعود إلى الطريق المشتعل من الحرارة: أراهن أنه لن يستكيع النوم الليلة. قلت لماذا؟ قال: بسبب إشاعة الاعتقالات فعندما كان في المدرسة كان متصلا بالإخوان ورغم أنه قطع صلته بهم منذ زمن بعيد إلا أنه يرتجف من الرعب عندما تتردد أنباء اعتقالهم."[159]

إن الرواية تعبر عن إدانة ورفض صنع الله ابراهيم للنظام كله وللسلطة كلها. من الأليق أن نقول أن السارد يؤمن قويا في قول "أن السلطة السياسية تفسد والسلطة السياسية المطلقة تفسد مطلقا". والروائي يرى أن الاستبداد والشمولية هما النتيجتان اللازمتان للسلطة والنظام في التأريخ كله؛ في الحاضر والماضي ولن يختلف المستقبل. فمن هذا قبيل إن السلبية وخاصة بالنسبة للسلطة السياسية تطغى على الرواية. وهذه الناحية

[158] المصدر نفسه،ص39&40.

[159] المصدر نفسه،ص48.

تتجلى في كل من الوقائع السردية والذكريات والتضمينات. ولما كانت الرواية قائمة على التجربات الحقيقية والحياة الأصلية لصنع الله ابراهيم نفسه فإنها تؤكد بأن الذين يحتلون السلطة السياسية لهم نزعة قوية لتركيز السلطة في أيديهم مما يسفر عنه الاستبداد والأوتوقراطية. وهذه الحقيقة نفسها أن السارد ثوري سابق سجن لنشاطاته واعتقاداته السياسية تتحدث كثيرا عن الأحوال السياسية في عصر "جمال عبد الناصر". والرواية تؤكد هذه الناحية من السلطة في كل من الوقائع السردية والذكريات والتضمينات والأحلام. فيعتقد السارد ومن ثم يعتقد صنع الله ابراهيم أن أي نظام أو أي سلطة قائمة على استخدام الخوف والقهر والروعب والإرهاب و القوة والقمع في التأريخ كله. فتضع الرواية القمع السلطوي واستخدام الدعايات والكذب في مصر جمال عبد الناصر ومصر رمسيس الثاني في سياق تأريخي. والحكومة في مصر كليهما قائمة على عبادة الفرد وتمجيد الذات. "قل لي ماذا تعرف عن رمسيس الثاني ؟ قلت: ليس كثيرا. ما زلت أذكر من أيام المدرسة أنه خاض معركة كبيرة في آسيا وانتصر فيها على الحثيين. قال: بالعكس لقد هزموه شر هزيمة لكنه زعم عند عودته أنه انتصر عليهم. قلت: وأنه بنى أبي سنبل وسلسلة كبيرة من المعابد على طول النيل. قال: واغتصب كثيرا من المعابد التي بناها أسلافه.بل أز ال اسم أبيه من أحد المعابد ووضع اسمه مكانه... إنه إذن فرعون الأكاذيب."[160] من طباع السلطة في التأريخ كله أنها ترهب وترعب الناس على الامتثال والخنوع والتعبد. "انصتوا إلى كلماتي. ها هي الثروات التي تملكونها. أنا رمسيس الذي

[160] المصدر نفسه، ص194.

أخلق وأهب الحياة للأجيال... إن أمامكم الطعام والشراب وكل ما تشتهيه الأنفس... إني أدعم مركزكم لتقولوا أن حبكم لي هو الذي يدفعكم إلى العمل من أجلي...طالما أنتم على قيد الحياة فأنكم تعلمون من أجلي رجلا واحدا."[161] لا شك أن صنع الله ابراهيم يتوخى عن طريق التضمينات الآتية عن رمسيس الثاني رفضه وإدانته للسلطة والحكمة، إلا أنه ليس بصعب لنا أن نفهم أن العدد الكبير من أوصاف رمسيس الثاني التي ترد في التضمينات تعلق في طريق غير مباشر على جمال عبد الناصر.ويأتي في الأحداث السردية للرواية: "لقد نجا رمسيس من الموت في هذه المعركة بفضل حرسه الخاص من الجنود الذين أحاطوا به من كل جانب. لكن النقوش لا تشير إليهم بحرف. أما هو فقد صب اللوم كله على جنوده ووصفهم بأنهم جبناء مع أن المسؤولية كلها تقع عليه."[162] والتضمين الذي يأتي فيما بعد يحمل رمسيس المسؤولية على الجنود. "لم يكن أحد منكم هناك. لم يكن معي قائد أو ضابط من المشاة ولا حامل درع. فقد تركني مشاتي وفرساني فريسة أمام العدو...لم يقف أحد بجانبي ويضع يده في يدي وأنا أحارب العدو... إن الأجانب الذين شاهدونني سوف يخلدون اسمي حتى في البلاد النائية التي لم يسمع بها

[161] المصدر نفسه، ص195.

[162] المصدر، نفسه،ص 197&198.

أحـد."[163] "سـبعون سـنة مـن السـلطة أي الكـذب والفجـور والقتـل والإدعـاء والغـرور والاستعباد."[164]

وكانـت سـلطة الدولـة تراقـب كـل نـواحي الحيـاة العامـة، بينمـا كانـت الثـورة قـد وعـدت النظـام الـديمقراطي والحريـة الفرديـة الأساسـية وضـمان الكرامـة الانسـانية، والاشـتراكية الـتي تعتـبر حقـوق النـاس في أسـفل سـلم الطبقـة الاجتماعيـة، والعدالـة الاجتماعيـة وفـرص التنميـة والتقـدم السـوية لجميـع المصـريين. فالحكومـة لا تهـتم بصـالح الضـعفاء مـن الشـعب مـن العمـال والفلاحـين والفقـراء الآخـرين. فكـان العمـال في السـد منبـوذين علـى حـالتهم بينمـا أن الصـحافة تقـول أن الحكومـة تراعـي كـل حقـوقهم. "سـالت السـائق أن يعطيـني الصـحيفة فناولهـا لي. كانـت الصـحيفة مطويـة علـى صـفحة تتصـدرها صـورة كبـيرة لجسـم السـد كتـب تحتهـا: السـد الانسـان صـنع كـل هـذه القصـص الانسـانية. قلبـت الصـفحات بحثـا عـن العمـود الخـاص بـدرجات الحـرارة. ووجـدتها في القـاهرة 34 وفي أسـوان 42... عـدت إلى موضـوع القصـص الانسـانية. كـان كاتبـه يقـول إن كـل مـن يعمـل في السـد يسـتطيع أن يقـوم بإجـازة حينمـا يشـاء لكـن أحـدا لا يرغـب في ذلـك. وكـل سـائق أعطـي ترمسـا للشـأي كمـا زوده بوسـادة مـن المطـاط تمـتص العـرق وتجنبـه الإصـابة بالروماتزم وبنظـارة أنيقـة تحمـي عينيـه مـن وهـج الشـمش".[165] والروايـة تعطـي الحقيقـة مـن خـلال العمـال

[163] المصدر نفسه،ص198.

[164] المصدر نفسه،ص208.

[165] المصدر نفسه،ص72.

وبمشاهدته الأجدحوال الحقيقة هناك. "سألني السائق بغتة وهويتطلع إلى في مرآته إذا كنت قرأت موضوع القصص الانسانية فأجبت بالإيجاب. قال: أنت شفت سيادتك سواق لابس نظارة شمش وشائل ترموس؟ قلت إني لم أنتبه إلى شيئ من ذلك. قال وحكاية الإجازات دي .. تعرف أن الوزير مانع الإجازات كلها؟".[166] فوسائل الإعلام لا تعطي الصورة الحقيقية في مواقع بناء السد " فكرت بسرعة ثم سألته: ما هو في رأيك سر النجاح الذي سجله العمل في السد حتى الآن؟ أجاب على الفور: السر هو النظام والطاعة المبنيان على الخوف. لا تظن أني ضد الديمقراطية.. أخرجت مفكرتي وتظاهرت بتيدوين أقواله.اعترضني بيده قائلا لا داعي لكلمة الخوف هذه. الأفضلأ ان تقول النظام والطاعة المبنيان على الإقناع حتى."[167]، فلا تنشر تقارير صحيحة عن المشاق التي يحملها العمال في بناء السد. "الأطباء معظمهم في إجازة. والإصابات الآن محصورة في نطاق العمال والصعايدة وهؤلاء سيواجهون الموت بشعار العمر واحد والأجل محدود. وقلت وإذا انتقلت إلى المهندسين وكبار المؤظفين؟ قال عندئذ تقع ثورة."[168] ، ولا عن الأموات الناتجة على قرار غير خاطئ أو عن حوادث كارثة "قال سعيد صفحة جديدة في مفكرته طالبا من العامل أن يحكي ما حدث. وقال هذا إنه كان يدير الرافعة عندما احتكت بكابل كهربائي يجره عدد من العمال يسيرون في بعض المياه. وأدى الاحتكاك

[166] المصدر نفسه، ص72.

[167] المصدر نفسه،ص52.

[168]المصدر نفسه، ص100.

إلى نزع جزء من قشرة الكابل الخارجية فتكهرب على الفور وصعق جميع العمال."[169]، فالصحافة لا تعطي التقارير من مثل هذه ولا عن مشاكل صحية للعمال والتسهيلات التي متوفرة لهم. إن الإعلام يعطي صورة وردية مشرقة. "قال سعيد كان يجب أن ترى عمالنا عندما رآوني في الكاراج مع ياكانوف. كانت مظاهرة. كانوا يقرؤون لك إذن. أبدا. أروني مقال جريدة الصباح عن السد وهم يتساءلون إذا كانت مثل هذه الأكاذيب تصح."[170] والذين تشك الحكومة فيهم تراقبهم مراقبة شديدة وتخوفهم وتعنفهم. فالمباحث العامة تراقب سعيد صديق السارد وتضع الخطوط الحمراء في مقالاته. وقد دفعت وسائل القهر إلى امتثال وخنوع أكثرهم. فحينما يشك سعيد أن الحكومة المصرية أو رجال المخابرات قد وضعت شيأ مريبا في سكنه يصيح قائلا بأنه مع الحكومة بينما أنه ثوري سابق. "وتوقفت عيناه على جهاز التكييف الذي كان يطن بصورة متواصلة. انحنى فوق الجهاز وصاح: لا شأن لي بأي شيئ. ورفع رأسه إلى السقف ثم سار إلى الركن وهتف: والله العظيم أنا مع الحكومة."[171] وفي الأخير يضطر سعيد أن يذهب إلى المباحث ويسوي أمره. "قال:.. لماذا لم تفعل مثل سعيد؟ قلت: ماذا تعني؟ قال ألم يقل لك أنه ذهب إلى المباحث وسوى أموره معها؟ قلت أي أمور؟ إنه مل يفعل أي شيئ

[169] المصدر نفسه،ص،50.

[170] المصدر نفسه،ص76&77.

[171] المصدر نفسه،ص78.

يعرضه للمأخذ. لقد كان يقوم بعمله فقط. قال هذا مفهوم. لكن المباحث تحب دائما أن تكون هناك خيوط متفاوتة الطول تربط بينها وبين مختلف أنواع الناس."[172]

والرواية ممثلة نموذجية لعهد "جمال عبد الناصر" الذي فرض المراقبة الشديدة على الصحافة ووسائل الإعلام، وتم مصادرة عدة منها بينما خضع العديد لسيطرة سلطة الدولة. فالرواية تعطي الصورة المظلمة للدولة المصرية من ناحية حرية الفرد ومنظمات المجتمع المدني ووسائل الإعلام. ولكونه قد أسرح من الاعتقال منذ عهد قريب إن السارد يحمل في نفسه شعورا بأنه دائما يراقب برجال المخابرات. وفي أماكن كثيرة يشعر بالقشعريرة والخوف على رؤية شخص غريب يحدق فيه. فبعد وصوله بأسوان حينما هو يرتشف القهوة في مقهى تلتقي عيناه بعيني رجل أجنبي فيقشعر. "وبدأت أرتشف قهوتي عنجما التقت عيناي بعيني رجل طويل القامة يجلس على مقربة. كان يرتدي قميصا داكن اللون وبنطلونا رماديا. وخيل أنه يحدق إلي بدقة. تطلعت لإليه بعد برهة فالتقت عينانا مرة أخرى"..أصبح الرجل بجاني وتجاوزني وواصل السير على الأفريز. جذبت نفسا عميفقا من سجارتي... توقفت في مدخله لحظة ريثما تطلعت خلفي. لكني لم أرى أثرا لرفق المقهى" .[173] وهذا الشعور بأن قسم المخابرات والمباحث دائما تراقبه وتتجس عليه يصبح أكيدا أكثر من كثرة وجود رجال البوليس الحربي والمباحث. فلم يصل اسوان إلا وعلم من صديقه صبري أن هذا المكان حساس. ولما كان الخوف

[172] المصدر نفسه،ص138.

[173] المصدر نفسه، ص 15.

من المراقبة المتواصلة شعورا عام بين الناس فبعضهم يشك بعضا؛ البعض منهم إذا كان غريبا يعتبرون من رجال المخابرات. "سألته: هل تعرف شخصا اصلع له شارب كث ويتناول طعامه دائما في الاستراحة؟ ضحك وأجاب: اجل أعرفه. إنه مهندس اسمه المجلاوي. قلت: له علاقة بالمباحث، أليس كذلك؟ لقد ضبته يراقبنا بدقة. قال وهو ما زال يضحك: أبدا لقد داءني بالأمس قائلا إن هناك اثنين ممن رجال المخابرات في الاستراحة. وكان يقصدكما."[174]

يبدو كأن الروائي يرى أن النظام الذي يقوم على السرية والعتامة والاستبداد يسفر عن إفساد النظام كله. وذلك واضح من تفشي الكذب والخديعة في الرواية كلها. فالرواية تعبر أن في حالة القمع السلطوي بما فيه قتل حرية الإعلام وكبت أي محاولة للتحدي بقرارات السلطة يخلق جو الخوف في الناس، فلا أحد يجد مناصا من اللجوء إلى الكذب والخديعة وذلك يصبح مع مرور الوقت الطباع الأول للناس . فالسارد ثوري سابق اعتقل سابقا لأيديولوجايته السياسية ونشاطاته السياسية اليسارية. والرواية كذلك تصور تسجين وكبت وتعذيب العدد الكبير من اليساريين والاخوانيين. فنرى أنه تكذب تقريبا جميع الشخصيات الروائية بمن فيهم السارد أيضا. وهناك أماكن نرى فيها أن الشخصية الرئيسية تكذب متبجحا و ليس فقط دون ندامة. وأكثر شيئ إثارة هو عندما يعلم أحد العاملين أن السارد صحفي فيشكوله من الصحافة أنها لا تكتب عن الدور

[174] المصدر نفسه،ص80.

الـذي يقـوم بـه المصـريون. يقـول السـارد مـع رنـة الـتهكم "قلـت: لقـد جئـت لأعطـي الصـورة الحقيقيـة عـن العـاملين في هـذا المكـان النـائي".[175] والروايـة تؤكـد رنـة الكـذب هـذه عنـدما يقـول في نفسـه "وفكـرت بأنـه بمـا أني قـادم لإعطـاء الصـورة الحقيقيـة عـن العـاملين هنـا فـلا شـك أني أسـتحق عشـاء علـى الأقـل".[176] ترصـد الروايـة لهـذه الناحيـة في كـل مـن الوقـائع السـردية والـذكريات والتضـمينات و الأحـلام. والحـق أن أكاذيـب السـارد توجـد طـوال الروايـة، فإنـه يقـول للنـاس أنـه صـحفي بينمـا الحقيقـة أنـه لـيس يعمـل صـحفيا في أي صـحيفة. فخـلال بحثـه للسـكن في "بيـت الشـباب" يسـأله المسـؤول عـن شـغله يجيـب بأنـه صـحفي "سـألني عـن عملـي فقلـت إني أشـتغل بالصـحافة".[177]، وعنـدما يكتشـف المسـؤول عـن البطاقـة عـن أنـه لا يشـغل بعمـل "أنـت قلـت إنـك تعمـل ..؟"[178] فيقـول بأنـه صـحفي ولم يكـن يعمـل عنـد إخـراج هـذه البطاقـة[179]. إنـه أكثـر مـا يكـون كاتـب ناشـئ، ولكنـه يكـذب لكـي يسـتطيع أن يسـتمتع بمنـافع كثـيرة مـن السـكن والطعـام واللقـاء مـع المهندسـين. حـتى أن أباه يكـذب ولـو في حلـم "حلمـت أني مـع أبي الـذي أعلـم أنـه مـات. كـان يتطلـع إلى صـورة ممثلـة شـابا ممتلئـا في ملابـس عسـكرية.. ويحكـي ابي شـيئا عـن الصـورة **ولكـني متأكـد بشـكل**

[175] رواية نجمة أغسطس، ص190.

[176] نفس المصدر،ص 191.

[177] نفس المصدر، ص 16.

[178]نفس المصدر،ص17.

[179] نفس المصدر،ص17.

مـا أنـه لا يقـول الحقيقـة. إنـه يتحـدث عـن كيشـنر لكـني لا أريـد أوجـه إليـه سـؤالا فمـا جدوى أن أخدش ذكرى هي كل ما يحمل معه".[180]

إن هـذه الروايـة، إلى حـد مـا، تقـوم بمقارنـة بـين الإنجـازات الكبـيرة المزعومـة مـن بنـاء السـد العـالي وحفـظ وإعـادة وضـع معابـد رمسـيس الثـاني و الواقـع السياسـي الحقيقـي المتواجـد مـن مثـل القمـع السـلطوي والقهـر وانعـدام الحـريات الأساسـية. فالروايـة تؤكـد علـى أن الإنجـازات مــن مثــل بنــاء الســد تــذهب ســدى إذا كــان النظــام السياســي قائمــا علــى الاســتبداد واسـتخدام القـوة، أو اذا افتقـد ضـمان العدالـة الاجتماعيـة والحـريات البشـرية الأساسـية، أو إذا تم تحقيـق هـذه الإنجـازات علـى أسـاس القمـع والقهـر وكبـت حقـوق الطبقـة العاملـة. فالروايـة تصـور النظـام المسـتبد الشـمولي الـذي تأسـس بعـد ثـور ة يوليـو 1952م والـذي كـان قائمـا علـى المراقبـة الشـديدة والقمـع والكبـت وتركيـز السـلطة السياسـية في أيـدي عديـدة. ومثـل هـذا النظـام يبـوء في نهايـة المطـاف بنتـائج تعـوق تقـدم المجتمـع والثقافـة، فـإن المجتمـع ولـو تقـدم تكنولوجيـا واقتصـاديا ولكـن التخلـف السياسـي ينـتج في تخلـف المجتمـع والسياسـة. إن الروايـة تعطـي رؤيـة عمليـة واقعيـة في هـذا الصـدد، فـإن الأفـراد الـتي تنشـأ في مثـل هـذه الحالـة السياسـية تنقصـها الثقـة بالـنفس والجـرأة علـى المبـادرة والمغـامرة. لـذا فـإن معظـم الشخصـيات تعـاني مـن الشـعور بالقمـع والخـوف مـن السـلطة، فخـلال سـفره إلى أسـوان يجيـب السـارد إلى عامـل القطـار علـى قولـه "إذا عـزت حاجـة انـدهلي" مخاطبـا إياه "يا

[180] رواية نجمة أغسطس، ص192.

أفندم" والعامل ينظر إليه "مندهشا"،[181] يهم الذكر هنا أن السارد مثقف جامعي يحمل مكانة اجتماعية أعلى من عامل القطار لذلك ذلك الاندهاش من جانب العامل. و نرى أن معظم الشخصيات الروائية تحمل في نفوسها شعورا أن رجال المخابرات دائما على روؤسهم...ففي أسوان يتوخى صديق السارد "صبري" أن يعلم عن غاية مجيئ السارد إلى أسوان ويخاف أن يتورط في النشاطات السياسية، فلا يرضى أن ينزله في مسكنه و يتكلم هامسا،.."مال علي وهمس: أكل شيئ على ما يرام؟ قلت: أجل. لماذا؟ قال: لا شيئ. فقط هنا مكان حساس وأنا الآن في الخمسين ولا أريد متاعب".[182] فالرواية تعبر عن حقيقة أن النظام المستبد ينجب انسانا غير كاملا.

تعبير المقاومة بالإبداع

إن السارد في هذه الرواية نموذج مثالي لمضادة البطل لرواية "الواقعية الجديدة" الذي فقد الثقة بقدرته على مقاومة وتغيير النظام. فإنه فقط يشاهد ويتأمل الواقع ويسرده في صورة باردة ومن دون حماس أو تعليق وجداني على ما يرى، كما أنه فقد الهياج الثوري السابق. وفي جميع نواحي الرواية يزخر موضوع الاستبداد والشمولية والمؤامرة السياسية. إن بطل رواية "نجمة أغسطس" خائف يعيش بإحساس المطارد ويتنفس مناخ القهر ولكنه ليس مذعورا أو مرعوبا أو عاجزا، إنه متفرج يراقب. والشخصيات في هذه الرواية من الشخصيات الإشكالية؛ الكسلى والخاسرين الضائعين اليائسين الذين استسلموا أمام

[181] رواية نجمة أغسطس، ص6.

[182] المصدر السابق، ص 10.

السلطة. فالسارد يشعر أنه لا يستطيع أن يغير شيئا. وصبري صديق السارد قد أخذ جانب الحكومة. كما أن سعيد يتكلم واضحا أنه مع الحكومة. ولكن الرواية لا تعطي صورا مظلمة كاملة. إن هناك إشارات إلى المقاومة. وأهم الإيحاءات إلى المقاومة تأتي في صورة التضمينات من كتاب مائكل انجلو. فالسارد يؤمن بان علينا أن نكتب الحقيقة عارية مهما كانت مليئةبالبثور والإفرازات، ويؤكد ضرورة رسم الجسم العاري حتى ولو كلف ذلك حياته، كما يؤكد ضرورة الغوص إلى المادة النقية وليس مجرد الاكتفاء بالقشور الخارجية. "الرغبة الملتهبة في رسم الجسم العاري. ألا يكون القديسون عراة عندما يصلبون؟ وقالوا أجسادنا قبيحة مليئة بالبثور والإفراوات. وقال إنه يجب أن يجسدها بالصورة التي خلق بها الرب آدم... شق بسكينة صدر الجثة التي التفت من رأسها إلى قدمها في ملاءة الدفن. فلا غنى عن معرفة جسم الانسان من الداخل. والكائنات البشرية يجب ألا تخترع. وكل قطعة جديدة من النحت يجب أن تتخطى التقاليد القائمة. وأدرك أن الأمر سيكلفه حياته كلها.[183]" ففي الفصول الأربعة من القسم الأول يتوازى القمع السلطوي (من تعديب الشيوعيين وقهرهم) التضمينات من مائكل انجلو على حياته ومعاناته لرفضه الإذعان لما يطلب منه. "قال له أستاذ القصر أن موضوعه الأول يجب أن يكون إغريقيا من أساطير اليونان. لكنه كان يعلم أن موضوعه الأول لا يمكن أن يأتي من أثنيا أو مصر أو روما أو حتى بلدته فلورنسا وإنما

[183] المصدر نفسه،ص 20.

مـن داخلـه هـو. شـيئا مـا يعرفـه ويشـعر بـه ويفهمـه."[184] وتأتي معظـم هـذه التضـمينات كـرد فعـل للوقـائع اليوميـة المسـرودة وتقـيم تـوازنا دلاليـا بـين مـا يجـري في الحاضـر ومـا كـان يجـري في الماضي.

[184] المصدر نفسه، ص36.

الفصل الثالث:

السياسة المصرية في ظل الانفتاح والعولمة كما تصورها رواية "اللجنة"

إن روايـة "اللجنـة" هـي الروايـة الثالثـة الـتي صـدرت لصـنع الله ابـراهيم. وقـد تعـد روايـة "اللجنـة" مـن أروع الـروايات العربيـة وأروع مـا كتـب صـنع الله ابـراهيم. "روايـة جريئـة مشـوقة، ترصـد بفنيـة عاليـة لنمـو العلاقـات الاجتماعيـة والاقتصـادية خـلال مرحلـة المـد القـومي وبعـد انحسـاره، ومـا أفرزتـه مـن طبقـات وسـلط، وتمـزج المعقـول باللامعقـول والواقـع بالكاريكـاتير السـاخر، والحـدث بالتأمـل، فتعـري الواقـع الـراهن علـى حقيقتـه." (كلمـة الناشـر، الطبعـة الثانية، مطبوعات القاهرة، 1982م.)[185]

يعتـبر النقـاد هـذه الروايـة أكثـر روايات صـنع الله نجاحـا حـتى الآن.[186] ويعتـبر الناقـد الشـهير مصـطفى مُحَمَّد بـدوي أن روايـة "اللجنـة" أقـوى روايات صـنع الله.[187] "لكـن أقـوى رواياتـه في الواقـع هـي روايـة "اللجنـة". الـتي نشـرت عـام 1981."[188] وقـد يزيـد في روعـة الروايـة الأسـلوب الكافكـاوي حيـث أن الروائـي الـتقط عناصـر العـالم الـواقعي لرسـم عـالمي أسـطوري خـرافي. يتنـاول صـنع الله ابـراهيم في هـذه الروايـة الحقـائق الواقعيـة المتواجـدة في المجتمـع

[185] ابراهيم، صنع الله، رواية "اللجنة"، الطبعة الثانية، مطبوعات القاهرة، 1982، ص161.

[186] Starkey, Paul, Sonallah iibrahim: Rebel with a Pen, Edinburgh University Press, Uk, 2016, pg. 69.

[187] Badawi, M. M. A Short History of Arabic Literature , Clarendon Press- Oxford,1993, pg 161.

[188] السكوت، حمدي، الرواية العربية: ببلوغرافيا ومدخل نقدي 1865-1995، الجامعة الأمريكية بالقاهرة، القاهرة،2000،ص91.

المصري المعاصر ويصورها عن طريق حقيقة أسطورية وهي اللجنة. "صورة واقعية رسمت بتشكيل كاريكاتوري ساخر."[189]

كتب صنع الله ابراهيم هذه الرواية ما بين ابريل 1979م وديسمبر 1980م. وصدرت الفصل الأول للرواية الذي يصف مواجهة السارد البدائية باللجنة ومن حيث تأخذ الرواية اسمها، كقصة قصيرة مستقلة بذاتها في مجلة "الفكر المعاصر" في مايو لعام 1979م، أي قبل عامين من صدور الرواية الكاملة. صدرت الرواية الكاملة في بيروت من "دار الكلمة" في عام 1981م. ثم تم إعادة إصدار الرواية في القاهرة العام القادم 1982م من "مطبوعات القاهرة." [190]

تتكون الرواية من ستة فصول منظمة في تسلسل منطقي بسيط. وشأن الروايتين السابقتين لصنع الله ابراهيم يتم سرد الرواية بصيغة المتكلم (الذي يسميه الناقد الكبير محمود أمين العالم بالأنا السارد.) أو الذي يسميه "جيرارد جينيت" ب homodeigetic narrator[191]، حيث يشارك السارد في أحداث الرواية كشخصية روائية. والرواية تشابه روايته الأولى "تلك االرائحة" في الشكل والطول والرؤية. الرواية قصيرة جدا، بالكاد تكاد تصل إلى 159 صفحة، من الطبعة الثانية التي صدرت من مطبوعات القاهرة عام 1982م. كما أن الرواية تماثل الرواية الأولى في العديد من

[189] حمداوي، جميل،...السخرية في رواية اللجنة لصنع الله ابراهيم، الحوار المتمدن، العدد 1714-25/2006،ww.ahewar.org.

[190] Starkey, Paul, Sonallah iibrahim: Rebel with a Pen, Edinburgh University Press, Uk, 2016, pg. 69

[191] Narrative Discourse : an Essay in Method, trans. Jane E. Lewin (Ithaca:Cornwell University Press,1980), pg. 245.

المميزات الأسلوبية، حيث أن رواية "اللجنة" تماهي الرواية الأولى "تلك الرائحة" في المناخ السياسي والاجتماعي. وشأن الرؤية الأولى تملك الشخصية الرئيسية/ أو الأنا السارد في هذه الرواية الخصوصية النفسية والذهنية والعقلية المماثلة للأنا السادر في رواية تلك الرائحة.

تدور أحداث الرؤية حول السبعينات من القرن العشرين. إن الرواية تتوخى تصوير الأحوال الاجتماعية والسياسية المصرية بعد ما جاء الرئيس السابق المصري مُحَمَّد "أنور السادات" بتغييرين مؤثرين في السياسة المصرية: سياسة الانفتاح واتفاقية السلام مع اسرائيل. والرواية "هجاء ساخر لسياسة الانفتاح التي تم تبنيها في عهد السادات (1970-1981)، وفتحت مصر اعتبارا من عام 1974م للبضائع والاستثمارات الغربية، وأدت بسرعة إلى اغتناء طبقة صغيرة عليا، ولكن إلى إفقار أقسام كبيرة من الطبقة الوسطى والشرائح الدنيا."[192]

"وفي هذه الرواية يقف مثقف يساري أمام محكمة كافكاوية، حيث يتعرض لامتحان على ثلاثة مراحل، يوضح من خلالها دور الشركات الكبرى المتعددة الجنسيات، كشركة كوكا-كولا، والآثار السلبية لسياسة السادات الاقتصادية، كالفساد والاستغلال،

[192] لمة تكريم بمناسبة منح جائزة مؤسسة ابن رشد للفكر الحر للسيد صنع الله ابراهيم، برلين في 26 نوفمبر 2004، بقلم الدكتورة أولريه شتيلي-فيربك(مونستر) (Dr. Ulrike Stehli-werbeck,Munster).

وتزايد النفوذ الأمريكي. ومن باب التهكم تجعل الرواية القاص يلتهم نفسه في النهاية بدلا من أن يتمرد."[193]

تلخيص القصة

تدور الرواية حول بطل مجهول الاسم، وهو السادر والشخصية الرئيسية. والبطل في الواقع مضاد البطل(Anti-hero) كما هو الشأن في معظم روايات صنع الله ابراهيم. تستهل الرواية بمثول الأنا السارد أمام أعضاء اللجنة. واللجنة هي ذات طابع عسكري شبه مدني. إنها جهاز مخابراتي، لها مستقر ونفوذ في مصر. ولأنها لا تتكلم اللغة العربية فإنها لجنة أجنبية. كما يبدو، يمثل السارد أمام اللجنة لكي يحصل على وظيفة، "إنه إذن في زيارة بحث عمل ذي طبيعة خاصة!".[194] فهذا يعني أن اللجنة تجند المصريين لتحقيق أغراضها. في البداية لا يستسيغ للبطل أن يعمل للجنة ولكنه يستسلم في نهاية المطاف حيث أنه قد أصبح عاديا. والذي تستهدف اللجنة من المثول ليس هو اختبار الكفاءات والمؤهلات التي يملكها الماثل، وإنما هو اكتشاف الميول السياسية والأيديولوجية، ومعرفة هويتهم وحقائقهم الذاتية والوجدانية. ومهم أن لدى اللجنة معلومات كافية عن كل من يمثل أمامها. هذه المعلومات تتوفر لديها عن طريق تقارير سرية تعدها اللجنة. ولما كان البطل السارد طموحا فإنه كان قد استعد لهذه المقابلة منذ عام، فكان قد في مختلف المجالات العلمية ما عدا الاستعدادات الأخرى.

---

[193] المصدر السابق.

[194] العالم، محمود أمين، ثلاثية الرفض والهزيمة،ص144 ، الطبعة الأولى 1958، دار المستقبل العربي، القاهرة

تبدا الرواية بالمقابلة الأولى بين البطل واللجنة. تدور المقابلة الأولى على تساؤلات عديدة تستهدف كشف شخصيته وموقفه الوجداني والأيديولوجي أكثر من موهبته وكفائته. لهذا الغرض توجه اللجنة التساؤلات الآتية إلى البطل.

1. ما الذي دفعه على المجيئ إلى اللجنة؟[195]

2. هل يعرف الرقص؟ (وبعد أن أجاب في الإيجاب تسأله اللجنة أن يرقص الرقص الشرقي.)[196]

3. أين كان في ذلك العام؟ (هل لك أن تخبرنا أين كنت في ذلك العام؟) يجيب السارد أنه كان في السجن.[197]

4. ثم تسأله اللجنة، لدينا تقرير يقول إنك لم تتمكن من ممارسة الجنس مع سيدة معينة... فما تفسيرك له؟ لما كان هذا قد حدث للبطل مع عدد منهن لم يتمكن من تعيين السيد التي تعنيها اللجنة، مما يدفع أعضاء اللجنة أن يشكوا في أنه مثلي فأخضعوه للتفتيش داخل جسده.[198]

5. ثم تسأله اللجنة بأي شيئ يذكر القرن العشرين. (إن القرن الذي نعيش فيه هو بلا شك أعظم عصور التأريخ سواء من حيث ضخامة وقائعه وعددها، أو من حيث الآفاق التي تنتظره. فبأي شيئ من هذه الوقائع، كالحروب والثورات

---

[195] رواية اللجنة، ص 11&12.

[196] المصجر السابق، ص14&15.

[197] المصدر السابق،ص 15.

[198] المصدر السابق،ص 17&18.

والابتكارات، سيذكر هذا القرن في المسبقبل.) يأتي البطل بأجوبة عديدة مشتملة على الشخصيات والحوادث والابتكارات والشركات والمنتجات الحديثة، منها، مارلين مونرو (الفاتن الأمريكية)، والبترول العربي، وغزو الفضاء، وفيتنام، والشركات من أمثال فيليبس، وتوشيبا، وجيليت، وستنجهاوس، وغيرها. ولكنه يستحيل أن يكون واحد من هذه جوابا. ثم بطريقة درامية يجيب أن الجواب هو "كوكاكولا."[199]

6. ثم تطلبه اللجنة أن يتحدث عن الأهرامات وتعطيه مطلق الحرية في اختيار أي زاوية يريد أن يتحدث عنها. إنه يختار زوايا الغرض من بناء الأهرامات ودور الإسرائيلين في بنائها.[200]

تنتهي المقابلة بعد ما استفاض البطل الكلام على الأهرامات ودور الإسرائيليين في بنائها وينصرف. ثم بعد شهور يتلقى البطل رسالة من جانب اللجنة التي تقول "ننتظر دراسة عن ألمع شخصية عربية معاصرة."[201] بعد استعراض الأسماء المعروفة ومن خلال استبعاد الواحد بعد الآخر يقع انتخابه على "الدكتور". يهيأ البطل معلومات وفيرة عن الدكتور ويكشف علاقة الدكتور مع الكوكاكولا. وذات ليلة، في غضون إعداده للبحث عن شخصية "الدكتور"، تزوره اللجنة فجأة، وتسأله أن يغير موضوع بحثه. يستعذر البطل ويفيض الكلام عن الدكتور ومكانته في العالم العربي وأهمية بحثه عنه. على هذا ينصرف أعضاء اللجنة تاركين عند السارد/البطل عضوا واحدا وهو "القصير"، حتى

---

[199] المصدر السابق،ص18 -25.

[200] المصدر السابق،ص 25-28.

[201] رواية اللجنة، ص34.

يتنهي السارد إلى قرار بالنسبة لتغيير موضوع البحث.وقام هذا القصير بمراقبة شديدة على السارد حتى أنه كان يتبعه إلى الحمام حينما يذهب للتبول، وكما أنه يصر أن ينام معه في غرفة واحدة و على سرير واحد. يسأله القصير أم ينتهي إلى قرار ما إذا كان يريد تغيير الموضوع، أو أن يستمر بموضوع الدكتور. بالرغم من أن اللجنة تؤكد أن له مطلق الحرية في هذا الصدد وأن المراد منه هو القرار فقط، إلا أن القصير يحمل معه سلاحا، مما يعني أنه إجباري عليه أن يغير الموضوع أو يواجه العقوبة. يجزم البطل أن يستمر بموضوع الدكتور. و لكونه متضجرا من وجود "القصير" قام البطل بقتله.

يمثل البطل أمام اللجنة لمرة أخرى (لمرة ثالثة) في هذه المرة للمحاكمة لقتله القصير، عضو اللجنة. والبطل يفشل أن يبرر فعله، فتحاكم اللجنة ضد البطل. وكعقوبة لجريمة قتله تحكم اللجنة أن يأكل نفسه. والقصة تنتهي مع أكل البطل نفسه بدأ بأكل يده.

الأحوال السياسية المصرية كما تصورها رواية "اللجنة".

إن رواية اللجنة رواية سياسية إلى حد أقصى، وقد تزيد في سياسيتها الأسلوب الكافكاوي واستخدام السخرية والطنز والتهكم. ولا شك أن صنع الله ابراهيم يقدم في هذا العمل نقدا سياسيا يفضح الوضع السياسي والاجتماعي ونظام الحكم في مصر، وفي المجتمعات العربية، ويكشف سلوك السلطة الدكتاتورية البوليسة بها، وكل هذا يقدم للقارئ بالأسلوب العبثي والكافكاوي الذي يضج بالسخرية اللاذعة والمثيرة للضحك

من أول الرواية لنهايتها."[202] والذي يكون مناسبا هنا أن أحلل القصة من هذه الناحية عن طريق تحليل العناصر المهمة دون سرد الأحداث والواقعات والأفكار. تدور القصة حول أربعة عناصر أساسية. والعناصر الأساسية الأربعة هي البطل، واللجنة، والدكتور، والكوكاكولا.

البطل

إن أول شيئ يهم في هذا الصدد أن هذه الرواية تنتمي إلى "الواقعية الجديدة"، فالبطل في الحقيقة، كما يتضح مما سبق، مضاد البطل. البطل/ أو الأنا السارد شاب مثقف.مثقف بثقافات وعلوم كثيرة، فلديه إلمام بتواريخ معينة تعبر عن مناسبات وطنية وتقدمية خاصة في تأريخ مصر. بدأ البطل حياته "بأحلام عريضة" إلا أنه سقط مريضا للتباين الشاسع بين طموحاته وقدراته الحقيقية. إنه في الحقيقة إنه يمثل الشباب المصريين الجدد الذين لديهم شعور متصاعد بالإحباط بعد مافشلت القيادة السياسية المصرية في تحقيق طموحاتهم. فهكذا يعيش البطل في ظل اليأس والقنوط والشعور بخيبة الآمال. يبدو أن البطل قد فقد أي ثقة بقدرته على المقاومة ضد السلطة والقوة الاستعمارية. تبدو السلطة وقوة الاستعمار أمامه كقوة لا يمكن تذليلها والمقاومة ضدها. ولديه شعور بأن القوات السياسية الداخلية والخارجية في مؤامرة متواصلة ضده أو ضد الناس مثله. مما يكشف أن مرضه في الحقيقة مرض روحي فكري أو أزمة فكرية روحية ولهذا لم يعد أمامه من مناص سوى أن يغير حياته تغييرا تاما. وبعد مقاومة طويلة إنه يستسلم. إن الروائي

[202] السكوت، حمدي، الرواية العربية: ببلوغرافيا ومدخل نقدي 1865-1995،ص94.

يصف الاستسلام بالطبيعي، مما يبدي أن أكثر الناس استسلموا أمام قوة الاستعمار. ولهذا كان قراره بالمجيئ إلى اللجنة. ولكن بالرغم من هذا كله، إن لديه شعور مزدوج، فهو متردد داخل نفسه. فهو متقطع بين الشعور الواعي الذي له رغبة جارفة في إرضاؤ أعضاء اللجنة، والشعور اللاواعي مما يدفعه أن يشعر بالارتياح إذا فشل في سعيه. فقد قضى العام الماضي يستعد لهذه المقابلة باللجنة، ولكنه عندما يدخل قاعة اللجنة يرتكب خطأين في إغلاق الباب الخلفي ووضع الحقيبة على الأرض. "وللوهلة الأولى ارتكبت غلطتين. ففي اضطرابي،عبثا أن أخفيه، نسيت أن أغلق الباب الخلفي. وعندئذ سمعت صوتا نسائيا بالقرب مني يقول بلهجة رقيقة : "اغلق الباب من فضلك". اندفع الدم حارا إلى وجهي، واستدرت إلى الباب، فأمسكت مقبضه بيدي اليسرى ودفعته إلى الخارج، لكنه لم ينغلق... فاستخدمت ركبتي للضغط عليه، بينما تصبب العرق على جبيني. عندئذ سمعت نفس الصوت النسائي الرقيق يقول: "ضع الحقيبة على الأرض واستخدم يديك الاثنين". وأدركت أني خسرت الجولة الأولى".[203] ونتيجة لهما يفشل في خلق انطباع مؤثر. مهم أن الروائي صنع الله ابراهيم يجعل السارد يرتكب الأخطاء لكي يبدو أنه ليس مستعدا من الداخل أن يستسلم، ثم إنه يشعر بالارتياح لهذا الفشل. ولكم أن تتصوروا حالتي بعد هذه التجربة الفاشلة، وقد وقفت أمامهم غارقا في عرقي . لكن أغرب ما في الموضوع أني لمست في أعماقي شعورا بالارتياح لهذا الفشل. كأنما كان ثمة جزء من نفسي يخشى على نفسه من نجاحي. ولم يحل ذلك دون اضطرابي أو رغبتي

[203] رواية اللجنة،ص8&9.

الجارفة في كسب رضاء هؤلاء الذين اصطفوا أمامي إلى مائدة طويلة بعرض القاعة."[204] ولكن بالرغم من هذا الارتياح إنه يستمر طوال الفصل يسعى لكسب رضاء اللجنة. فيحاول تملق الاتجاهات والاهتمامات الفكرية للجنة. كما يرقص الرقص الشرقي، رقص البطن. ثم إنه يرضى لأن يتعرى للكشف عما إذا كان شاذا جنسيا.

كوكاكولا والامبريالية

قد يكون موضوع الكوكاكولا جزءا مهما جدأ لرواية "اللجنة" في مقابلته الأ ولى مع اللجنة يتحدث السارد عن الكوكاكولا مفيضا من كيف أنه أحق ابتكار يستحق أن يعلم القرن العشرون به، وأن حضوره يشمل جميع العالم . ثم إنه يقيم علاقة لازمة بين "الدكتور"والكو كاكولا. فمن هذا القبيل يحتل موضوع الكوكاكولا أهمية كبرى لجميع أفكار الرواية. كوكاكولا يعني الرأسمالية وسيادتها تعني سياسة الرأسمالية. كوكاكولا يعني الامبريالية الغربية وسيادة الكوكاكولا تعني سيادة الامبريالية على العالم. كوكاكولا يعني التواطؤ بين السياسة والتجارة مما يؤدي إلى الفساد. كوكاكولا يعني استسلام الساسة في دول العالم الثالث أمام القوات الغربية وإقامة علاقة الاستغلال بينها. لذلك ترى العلاقة الوطيدة بين كوكاكولا و"الدكتور". فالذي يريد الروائي صنع الله ابراهيم تعبيره هو أن النخبة الصغيرة الوطنية المتكون من الساسة ورجال العمل يستغلون الناس الفقراء في مصر. في مقابلة مع عزيزة نائت على قناة فرانس 24 يقول صنع الله ابراهيم أن روايته "اللجنة" تتعامل مع سياسة الانفتاح التي أتى بها الرئيس "أنور السادات" عام 1974م،

[204] رواية اللجنة، ص 10.

وأثرها على المجتمع المصري، وأن ما يسميه مظهرة الكوكاكولا من مظاهر سياسة الانفتاح. فقد تم استخدام مظهرة الكوكاكولا رمزيا يتوخى الروائي عن طريقها كشف القناع عن جشع و حملة الشركات المتعددة الجنسيات التي تستغل الدول النامية والدول الفقيرة وعمالها والطبقات الضعيفة فيها. وقد تنبع سلطة الشركات المتعددة الجنسيات من الامبريبيالية الجديدة السائدة في جميع العالم. فمن هذا المنطلق قد ترمز مظهرة الكوكاكولا إلى الامبريالية الجديدة التي جاءت تحت سيطرتها الدول النامية والدول الفقيرة. لذلك فإن مظهرة الكوكاكولا سائدة في جميع العالم. تظهر سيادة الكوكاكولا أو أقوى الشركات المتعددة الجنسيات من الاقتباسات الآتية. "لن نجد، أيها السادة، بين كل ما ذكرت شيئا تتجسد فيه حضارة هذا القرن ومنجزاته بل آفاقه، مثل هذه الزجاجة الصغيرة الرشيقة التي يتسع است كل انسان لرأسها الرفيعة."[205] ثم إن السارد يستطرد قائلا بأنه موجود في جميع أطراف العالم وإنها تستطيع أن تبقي سيادتها على العالم عن طرائق مختلفة، من أمثال استخدام القوة والفساد والرشاوى وإقامة العلاقات مع الساسة المحليين والتحكم بعادات الناس من السيادة الثقافية. "إنها موجودة في كل مكان تقريبا، من فنلندة وألاسكا في الشمال، إلى أستراليا وجنوب أفريقيا في الجنوب. ولقد كان نبأ عودتها إلى الصين بعد غيبة استمرت ثلاثين عاما، من الأنباء المدوية التي سيصاغ منها تأريخ هذا القرن. وفي الوقت الذي تختلف فيه كلمات الله والحب والسعادة من بلد إلى آخر، ومن

[205] رواية اللجنة، ص20.

لغة إلى غيرها، تعني الكوكاكولا نفس الشيئ في كل مكان، وبكافة اللغات..."[206] ثم يستطرد السارد حديثه عن الكوكاكولا ويقول كيف أن الكوكاكولا (والرمز إلى الشركات المتعددة الجنسيات والامبريالية) الخصوصية المحددة للعصر الحديث. فإن ثقافة العصر الحديث قد تعني الثقافة الغربية الاستعمارية التي استتطاعت هذه الشركات أن تنشرها. "ومنذ ظهورها، ارتبطت الكوكاكولا بالمعالم الرئسية للعصر، بل وساهمت أحيانا كثيرة في صياغتها. فقد توصل الصيدلي الأمريكي "بمبرتون" إلى تحضيرها بمدينة أتلانتا، عاصمة ولاية جورجيا، مسقط رأس الرئيس الأمريكي كارتر، وعصابات كلو - كلوس كلان الشهيرة، في سنة 1986، وهي نفس السنة التي تم فيها نحت تمثال الحرية الشهير، الذي أصبح رمزا للعالم الجديد."[207] ويستطرد السارد قائلا بأن الكوكاكولا أو بالرمز الشركات المتعددة الجنسيات نتاج للاستغلال فهي كذلك قائمة على الاستغلال. "أما الزجاجة نفسها ، فهي إحدى ثمار أول حرب تحريرية تخوضها الولايات المتحدة خارج حدودها، بعد انتصارها في الداخل على الهنود الحمر، وهي الحرب ضد اسبانيا في كوبا، والتي انتهت عام 1899م بإعلان "استقلال" كل من كوبا وبوتوريكو والفيليبين..."[208] ثم إن الرواية تعطي مميزات أخرى للكوكاكولا مما يبدي أن الشركات المهيمنة العالمية تعمل على أساس الدعاية والسيطرة ولذلك إنها تستخدم المحليين المشهورين. "ربما كانت الكوكاكولا هي أول من حطم المفهوم القديم للإعلان، الذي كان قاصرا على مجرد بيان

---

[206] رواية اللجنة،ص21.

[207] رواية اللجنة،ص21.

[208] المصدر السابق،ص21.

بمواصفات السلعة، واضعة بذلك الحجر الأساس في البناء الشامخ لأحد فنون العصر القائدة، وأعني بذلك فن الدعاية. لكن المؤكد أنها هي التي قضت على الوهم الذي ساد طويلا بشأن العلاقة بين العطش ودرجة الحرارة، عندما ابتدعت وروجت شعار "العطش لا يعرف فصلا". وكانت سباقة إلى استغلال الراديو، وإلى إضاءة المدن بالإعلانات الضوئية، وتبنى البرامج التليفزيونية والأفلام السينمائية، واحتضان نجوم الدنيا الجديدة ومعبوديها الجدد من ممثلين وخنافس ورواد للروك والتويست والبوب." [209] "وخاضت الكوكاكولا غمار حربين عالميتين، خرجت منهما منتصرة. فقد باعت خمسة مليارات من الزجاجات خلال السنوات السبع للحرب الثانية. ثم أنها دخلت أوربا على جناح مشروع مارشال الذي ساعد الأوروبيين بالمنتجات والقروض الأمريكية على تغطية ما سببته الحرب من عجز في الدولارات."[210] "وإذا استقرت فوق قمة المجتمع الاستهلاكي، وإذا استقرت فوق قمة المجتمع الاستهلاكي، إلى جوار سيارة فورد وقلم باركر وولاعة رونسون، لم تفتها التغيرات المتلاحقة في عالم اليوم. فعندما بدأ عصر الشراء العظيم والبيع بالتقسيط والتنافس على أكبر سيارة وأحدث طراز منها بأكبر مساحة في الخلف تستوعب أكبر كمية من السلع لتملأ أكبر ثلاجة، تقدمت الكوكاكولا بالزجاجة العائلية "الماكسي"."[211]

---

[209] المصدر السابق،ص22. ا سببته

[210] المصدر السابق،ص22.

[211] المصدر السابق،ص22.

فهكـذا ترمـز مظهـرة الكوكـاكولا إلى تهكـم لادغ علـى الامبرياليـة الأمريكيـة. وإذا كانـت الامبرياليـة الجديـدة تعمـل عن طريـق الراسماليـة والشـركات الكبـيرة، فـإن الروايـة أيضـا تصـور كيـف أن الـولايات المتحـدة تسـتخدم القـوات العسـكرية لقمـع وكبـت الـدول الضـعيفة. يـدعي صـنع الله ابـراهيم أن الامبرياليـة الجديـدة لا تعمـل مـن دون مسـاندة المـواطنين، فتعتمـد الشـركات علـى تجنيـد المـواطنين شـأن مـا تفعـل الكوكـاكولا. "فهـي تعتمـد في فـتح الأسـواق العالميـة علـى إقامـة مؤسسـات محليـة مسـتقلة في كـل بلـد، يؤلفهـا أشـهر الرأسمـاليين بـه. وقـد حققـت هـذه الخطـة نتـائج هائلـة، لـيس أقلهـا إضـفاء الصـبغة الوطنيـة علـى الزجاجـة الأمريكيـة."[212] وإذا كانـت الامبرياليـة الجديـدة ترمـي إلى سـيطرة شـاملة، ف، فإنهـا تلجـأ إلى وسـائل عديـدة للسـيطرة الثقافيـة عـن طريـق الشـركات المتعـددة الجنسـيات. وكـذلك فـإن زجاجـة الكوكـاكولا تلعـب دورا في السـيطرة الثقافيـة في الـدول الضـعيفة. "والواقـع أن مـن حقنـا أن نصـدق مـا يقـال عـن هـذه الزجاجـة البريئـة المظهـر، وكيـف أنهـا تلعـب دورا حاسـما في اختيـار طريقـة حياتنـا، وميـول أذواقنـا، ورؤسـاء بـلادنا وملوكهـا، بـل والحـروب الـتي نشـترك فيهـا، والمعاهـدات الـتي نوقعهـا."[213] والرويـة ترينـا أن الامبرياليـة الرأسماليـة وآليتهـا الشـركات المتعـددة الجنسـيات تخلـو عـن أي مشـاعر إنسـانية، وكـل مـا ترمـي إليهـا هـي تحقيـق أغراضـها عـن أي طريـق كـان، حـتى أنهـا تحـول جميـع النـاس إلى آلات الاسـتغلال. "وأظـنكم توافقـونني أيهـا السـادة، علـى أن العـالم كلـه يسـتخدم الابتكـارات الـتي تحمـل هـذه الأسمـاء. كمـا أن

[212] المصدر السابق،ص23.

[213] المصدر السابق،ص24.

الشـركات العملاقـة الـتي تنتجهـا تسـتخدم العـالم بـدورها، فتحـول العمـال إلى آلات، والمسـتهلكين إلى أرقـام، والأوطـان إلى أسـواق."[214] السـخرية هنـا في الموقـف الجشـع للشـركات المتعـددة الجنسـيات الـتي تحـول الـدول إلى أسـواق. يبـدو كـأن البطـل يوافـق مـع المفكـر السياسـي "أنـدر جونـدر فرانـك" في وجهـة نظـره بأنـه في النظـام السياسـي العـالمي تسـيطر الـدول الميتروبوليـة الرأسماليـة علـى الـدول السـاتلاتية التبعيـة في جميـع مجالاتهـا مـن الحيـاة اليوميـة والاقتصـادية والسياسـية. والشـركات الكبـيرة العالميـة تعمـل عـن طريـق تحبيـب مظـاهر الاسـتهلاك في النـاس. فهكـذا ترمـز الكوكـاكولا إلى الاسـتهلاكية وسـيطرتها علـى العـالم. وكمـا هـو ظـاهر مـن الحـديث الطويـل عـن الكوكـاكولا أمـام اللجنـة، إن السـارد تحـت تأثـير قـوي للكوكـاكولا. فـإن كلامـه الطويـل يبـدي أهميـة الكوكـاكولا والمسـتهلكات الغربيـة الأخـرى، حيـث أنهـا أهـم مظهـر الرجـل المصـري في القـرن العشـرين، الـذي لـيس أكثـر مـن مسـتهلك. فهكـذا ترمـز الكوكـاكولا إلى الاسـتهلاكية المظهريـة. والاسـتهلاكية تعـني سـيادة الشـركات العالميـة علـى العـالم، وذلـك بـدوره يعـني سـيادة الـدول الغربيـة. فالروايـة ترينـا كيـف أن هـذه الشـركات حولـت مصـر إلى سـوق محـض. والروايـة ترينـا أن لهـذه الشـركات قـوة أضـخم ممـا نظـن. فإنهـا تسـتطيع أن تتـدخل في السياسـات الداخليـة لأي بلـد، فلهـا أثـر في الانقـلابات والأوضـاع السياسـية في العـالم الثالـث، كمـا أن لهـا أثـر في الحـروب الدائمـة والانقـلابات العسـكرية الـتي تحـدث في العـالم الثالـث. فيحـاول صـنع الله ابـراهيم عـن طريـق هجـاء الشـركات أن يكشـف القنـاع عـن السـلطات والقـوات الكامنـةالتي تعمـل بصـورة

[214] المصدر السابق، ص20.

مستمرة في تأثير وتخضيع المجتمع المصري وخاصة سياستها واقتصادها.عن طريق استخدام رمز الكوكاكولا يريد صنع الله ابراهيم أن يعبر دول العالم الثالث من مثل مصر تحت سيطرة الاستعمار الجديد كما يسميهرئيس "غنا" الأسبق كوامه كروماه". وحسب روبت يانج(Robert Young)الاستعمار الجديد نظام امبريالي للاستغلال الاقتصادي يستخدمه الدول الميتروبولية للاحتلال على مصادر الدول المهمشة، وفي حين واحد يحث هذه الددول على استهلاك المنتجات الصناعية في نظام المبادلة المتساوية. ولتحقيق أغراضها تحتاج الشركات إلى تطوير النزعات الاستهلاكية، لذلك فإن الرأسمالية تحول الانسان إلى المستهلكين عن طريق تطوير الايديولوجيا الاستهلاكية.

ملخص القول أن صنع الله ابراهيم يسخر بالثقافة الاستهلاكية التي أدت إليها الشركات الكبيرة التي بدورها تؤثر على السياسات المحلية. وعن طريق الأسواق قد رسخت الشركات كحاكمة مصر. فالاهتمام الرئيسي لصنع الله ابراهيم فضح سيطرة وهجوم هذه الشركات على المجتمع المصري والمصريين، وكذلك فضح الدور الذي يلعبه في السياسة العامة في دول العالم الثالث من مثل مصر التي تحت سيطرتها الاقتصادية والثقافية والسياسية.

الدكتور

تظهر شخصية الدكتور في الرواية بعدما تسأل اللجنة من البطل أن يكتب بحثا عن ألمع شخصية عربية معاصرة. ينتخب البطل شخصية "الدكتور" كموضوع بحثه بعدما

يستحيل الشخصيات المعروفة الأخرى. يهم بالذكر أن الكل من هؤ لاء الناس الذين تذكرهم الرواية يظهرون فاسدين انتهازين استغلاليين. "وبحثت عبثا عن قاض واحد ارتبط اسمه بوقفقة مجيدة إلى جانب الحق. ومن هذه الزاوية أيضا أمكنني أن أتخلص من الصحفيين وزعماء العمال، وسرعان ما ألحقت بهم من يدعون بنواب الشعب. واكتشفت أن أغلب العلماء والأطباء والفنانين والمهندسين والمدرسين وأساتذة الجامعات كانوا مشغولين بجمع الثروات عن القيام بعمل واحد من شأنه أن يضعهم في دائرة الضوء.."[215] إلا أن "الدكتور" كما تصوره الرواية أكثرهم فاسد وانتهازيا. قد استخدم صنع الله ابراهيم أسلوبا يبدو كأن السارد يريد أن يشيد بشخصية الدكتور، ولكن النبرة السردية تخلق هجاء ساخرا عنيفا مما يبدي مدى فساد وجريمة "الدكتور" بالنسبة للمجتمع المصري. توحي الرواية إلى هذه السخرية حينما يريد السارد أن يحدد معنى اللمعان وألمع الناس. "وقالوا أيضا أن الألمع هو الذكي المتوقد.أما ألمع الناس فهو أكثرهم كذبا."[216] "الدكتور" شخصية معضلة إلا أن له أثر ونفوذ بالغان في المجتمع المصري. "ولا شك أن "الدكتور يساهم بقدر كبير في صياغة الحاضر والمستقبل.."[217] وحسب ما يدعي السارد، مثل هذا الدكتور قد يوجد "الدكتور" في كل بلد عربي. "فلا يقلل من شأن مواطني أن يوجد منافس له في كل عاصمة عربية."[218] وقد وصف السارد شخصية

---

[215] المصدر السابق،ص37.

[216] المصدر السابق، ص36.

[217] المصدر السابق،ص41.

[218] المصدر السابق،ص41.

الـدكتور وصـفا مستفيصـا متنـاولا جميـع نـواحي شخصـية الـدكتور. المهـم هنـا أن شخصـية الـدكتور يمثـل الشـريك المـواطن في الامبرياليـة والنظـام الرأسمـالي العـالمي. "الـدكتور" رمـز إلى مـواطن انتهـازي استغلالي. فالـدكتور يعمـل كعميـل للرأسمـاليين الغـربيين. عـن طريـق شخصـية "الـدكتور" ترمـي الروايـة إلى تصـوير أن الزعمـاء السياسـيين ورجـال الأعمـال المصـريين تحـت تأثير بالـغ للشـركات المتعـددة الجنسـيات. فهكـذا فـإن الروايـة سـخرية لادغـة علـى الرأسمـاليين المحليـين مـن مثـل الـدكتور الـذي يغـير غـلاف الكوكـاكولا إثـر مقاطعتـه. "الـدكتور" رمـز لكـل أولئـك الـذين ينتهـزون كـل فرصـة للاسـتغلال ولـذلك يخضـعون جميـع القـوانين لمصـالحهم. فالروايـة تصـور الـدكتور يبـدو كأنـه ثـوري مناضـل ولكنـه في الحقيـق ينتهـز فرصـة حـرب 1948 لإنشـاء عملـه. وأن كـل خـبر كفاحـه للـوطن فقـط دعايـة مـن عنـده. "وذكـرت أنـه كـان قبـل الثـورة، عضـوا إحـدى الجمعيـات المتطرفـة الـتي قامـت بـدور بارز في الكفـاح ضـد الاسـتعمار الانجليـزي (فهـي إحـدى الحقـائق المعروفـة عـن حيـاة الـدكتور) وأنـه تـرك دراسـته عـام 1947م وسـارع إلى فلسـطين علـى رأس كتيبـة مـن زملائـه المتحمسـين حيـث اشـترك في الحـرب ضـد العصـابات الصـهيونية...فقـد عرفـت أنـه شـارك في تكـوين شـركة لإنتـاج الميـاه الغازيـة عشـية العـدوان الانجليـزي-الفرنسـي-الاسـرائيلي علـى مصـر، وأنـه كـان أحـد الـذين تقدموا لشراء الشركات الأجنبية بعد تمصيرها في أعقاب ذلك العدوان."[219]

يـوحي الروائـي أن الاسـتعمار الغـربي قـد أخـذ شـكل الامبرياليـة في الـدول الفقـيرة، إثـر اسـتغلال مكثـف عـدواني هـدام. وإن الروايـة تشـير إلى تغلغـل دقيـق للشـركات الغربيـة في

[219] المصدر السابق،ص48&49.

النظـام الاقتصادي والاجتمـاعي المصـري مـن خـلال تحويـل الرأسمـاليين المحليـين إلى المسـهّلين الـذين ذللـوا الطريـق لتـدفق المنتجـات الأجنبيـة في الأسـواق المحليـة. ربمـا تبـدو نيـة الروايـة فضـح مـدى أثـر ونفـوذ هـذه الشـركات في المجتمـع المصـري ولكنهـا في الوقـت نفسـه تـدين بنفـاق الرأسمـاليين المحليـين الـذين أنجبـتهم هـذه الشـركات. إن الـدكتور عضـو للـدائرة الداخليـة مـن الطبـق الحاكمـة والطبقـة المالكـة علـى المصـادر القوميـة ولـه أثـر ونفـوذ في القـرارات القوميـة. ومع الأعضـاء الآخـرين للطبقـة إنـه يكـون الطبقـة الفاسـدة الـتي تتـورط في الفسـاد والاسـتغلال وادخـار الأمـوال عـن أي طريـق كـان. وإن هـذه الطبقـة تسـتغل مصـر والمصـريين عـن طريـق مسـاعدة الامبرياليـين والرأسمـاليين الغـربيين في تنفيـذ مشـاريع اسـتعمارية جديـدة في المجتمع المصري. فهكذا يمثل الدكتور المظاهر الآتية في المجتمع المصري.

فساد النظام السياسي

قلة الوطنية عند الزعماء السياسين

الرأسمالية المحلية المستغلة التي تساعد الرأسماليين الغربين في الاستغلال

الرأسمالية المحسوبة

شبكة رجال الأعمال والبيوروقراطيين والزعماء السياسين

الدكتوتارية في النظام

وإذا كان الدكتور ألمع الناس ولمعانه يرجع إلى نجاحه عن طريق خضع النظام لمصالحه، فإن الروائي صنع الله يدعي أن أخطر الناس جريمة فقط ينجح في هذا النظام. لذلك فإن البطل السارد متأثر ببلزاك الذي يقول "إن وراء كل ثروة كبيرة جريمة كبيرة". "فكيف يمكن الحديث عن ثرائه دون الإشارة إلى مصدره؟ وعندئذ لن يكون بوسعي تجاهل الحقائق المتعلقة بهذ الشأن، وإلا أكون قد أخللت بالمبدأ الأساسي الذي بلوره بلزاك في عبارته الشهيرة "خلف كل ثروة كبيرة، جريمة كبيرة". وأصبح من بعده ديدنا لكافة الباحثين المعاصرين".[220] وقد يظهر مدى استغلالية الناس من أمثال الدكتور من مقال يعثر عليه السارد خلال بحثه عن الدكتور. عنوان المقال: من يخلع الأشجار؟ وفي المقال: "وتحت هذا العنوان، عرض الكاتب لظاهرة اختفاء الأشجار من شوارع القاهرة وحدائقها القليلة المتبقية. وقال إن الصورة المنظمة التي تتم بها عملية الاقتلاع توحي بأن ثمة أشخاص ذوي نفوذ خلفها. وتساءل عما إذا كانت هناك علاقة بين هذه الظاهرة وبين الأزمة المفتعلة في سوء الأخشاب والتي رفعت أسعارها وأوجدت لها سوقا سوداء."[221]

اللجنة

تكون "اللجنة" أهم عنصر لهذه الرواية، فإنها مسماة بها وتدور أحداث الروية حولها. ولقد يعطي البطل السارد أوصاف كثيرة للجنة في عدة مواضع، من طبيعتها و طريقة

[220] المصدر السابق،ص93.

[221] المصدر السابق،ص52.

عملها والأغراض التي تريد أن تحققها إنها "لجنة مدنعسكرية، أو عسكر مدنية."[222]. قد سبق في هذا البحث أن اللجنة غير رسمية. "وقعت في حيرة شديدة. فلم يكن في وسعي أن أذكر حقيقة علاقتي باللجنة. فبالرغم من خطورتها وسعة نفوذها، فإنها من الناحية الرسمية لا وجود لها، وأي محاولة للتمسح بها لن تقابل إلا بالاستغراب والسخرية."[223] و إن هذه اللجنة لجنة أجنبية، بدليل أنها تتكلم لغة أجنبية لا يفهمها البطل السارد وليست تتكلم العربية. إنها مخابراتية. "فاللجنة -هنا - بمثابة جهاز مخابرات سرية تقوم باستنطاق المواطنين الغيورين على بلدهم، وتطرح عليهم مجموعة من الأسئلة والأبحاث لمعرفة هويتهم وحقائقهم الذهنية والوجدانية. وبالتالي، فاللجنة نظام للمحاسبة والمكاشفة السياسية ورمز للتعذيب الإنساني واستمرار للسجن ومصادرة حقوق الانسان."[224] وبما أن البطل يذهب إلى اللجنة للحصول على وظيفة، فإنها تعمل عن طريق توظيف المصريين لتحقيق أغراضها. والهدف من المقابلاتية الشخصية التي تعقد اللجنة مع المواطنين هو كشف الأيديولوجيا التي يؤمن بها الماثل أمام اللجنة. فالذي يبدو من هذا أن اللجنة لا تؤظف الذين يوجد لديهم ولاء وطني مما يعبر أن مصالح اللجنة في تصادم مع مصالح الوطن أو المجتمع المصري. في الواقع،كما يظهر من الرواية، لجنة مخابراتية ولها أثر ونفوذ وتعمل في تحقيق أغراض القوات الاستعمارية، ولذلك إنها تستخدم وسائل

[222]العالم، محمود أمين، ثلاثية الرفض والهزيمة،ص147.

[223] المصدر السابق،ص43.

[224][224] حمداوي، جميل،...السخرية في رواية اللجنة لصنع الله ابراهيم، الحوار المتمدن، العدد 1714-25/2006،

كثيرة. بما أن اللجنة تمنع البطل السارد من البحث عن شخصية الدكتور، فإن اللجنة تنشئ مصالح مشتركة مع الرأسماليين المحليين الذين تستخدمهم اللجنة لتحقيق أغراضها.

ولما كانت اللجنة تعمل بصورة سرية، فلا يعرف عنها إلا قليل. "أما اللجنة نفسها فيغلفها الغموض؛ ففي البداية تبرز إشارات ورموز توحي-بلغهتا الأجنبية ضمن أمور أخرى-بأنها تتبع جهاز المخابرات الأمريكية، لكنها في النهاية تستحيل إلى محكمة مؤلفة من قضاة هم أنفسهم أعضاء "اللجنة" الأولى باستثناء القتيل. وكأن الرواية تلمح أو حتى توحد بين الهيمنة الأمريكية والسلطة."[225] إن غموض اللجنة واضح في الرواية. فعندما يحاول السارد أن جمع المعلومات عن أعضاء اللجنة ومعرفة اتجاهاتهم وميولهم يواجه بستار من السرية المحكمة يسدل على أسمائهم وهويتهم. عندئذ يقرر البطل المثول أمام اللجنة عاريا من المعلومات عنها وعن طبيعة عملها. " وعندما سعيت لجمع المعلومات عن أعضائها، لعلي أستطيع تكوين فكرة عن اتجاهاتهم وميولهم، وجدت ستارا من السرية المحكمة قد أسدل على أسمائهم ومهنهم. وكان كل من سألته عنهم يتطلع إلي في وجوم وإشفاق بالغين."[226] والذي تستهدف الرواية من خلاله هو أن أنظمة القوات الأجنبية التي تستقر وتعمل في مصر تحتل نفوذا لا بأس به. " أنها أقرب ما تكون إلى السلطة

[225] السكوت، حمدي،الرواية العربية: ببلوغرافيا ومدخل نقدي 1865-1995،ص91&92.

[226] المصدر السابق،ص10.

الأجنبية التي لها تواجدها بل سلطانها في مصر. وهي أقرب ما تكون إلى قوة شبه سرية مباحثيية، مخابراتية أجنبية، بل تكاد أن تكون أمريكية على وجه التحديد."[227]

فرواية "اللجنة" تستعرض وتنتقد الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تأثرت تأثرا دون توجيه بالسياسيات الغربية الاستعمارية، بعد سياسة الانفتاح وبعد ما اقترب أنور السادات بمصر من الولايات المتحدة. "تكاد الرواية ابتداء من الفصل الثاني حتى الصفحات الأخيرة منها، أن تكون عملية مسح نقدي ساخر للتضاريس الاجتماعيةن والإيديولوجية لمصر في السبعينات، بل تكاد هذه العملية ألا تقتصر على مصر وحدها بل تمتد -بإشارات عامة- إلى بقية البلاد العربية."[228]

[227] العالم، محمود أمين، ثلاثية الرفض والهزيمة،ص.

[228]العالم، محمود أمين، ثلاثية الرفض والهزيمة،ص148.

الباب الثالث:

القضايا الاجتماعية كما تصورها روايات صنع الله ابراهيم

الفصل الأول:

المجتمع المصري بعد الانفتاح كما تعكسه رواية "ذات"

صدرت هذه الرواية عام 1992م من "دار المستقبل العربي" واشتهرت للسخرية السوداء الواردة فيها والتعليقات المتهكمة التي توجهها إلى الحياة المصرية الحديثة. واصل الروائي تطوير مشروعه التجريبي في الشكل الروائي فنلمح في هذه الرواية تقنية التناص والوثائقية التي ظهرت لديه في كل من "تلك الرائحة" و"نجمة أغسطس" و"اللجنة" على أوجها.

تتكون الرواية من تسعة عشر فصلا، عشر منها سرد قصصي وتسع وثائقي تنقل جذاذات وقصاصات الأخبار من الصحف والمجلات المصرية القومية منها وغيرها. تبدأ الرواية بفصل سردي ويتلوه فصل توثيقي ويستمر هذا التناوب إلى أن تنتهي الرواية بفصل سردي.

تحكي الرواية قصة "ذات"، امرأة من الطبقة المتوسطة الدنيا، وعلاقاتها المتعددة والمناخ السياسي والظروف حولها وتجرباتها المتعددة. عاشت "ذات" رئاسة كل من جمال عبد الناصر وأنور السادات و حسني مبارك. تتمحور الرواية حولها وعائلتها وعلاقاتها مع الجيران مع التركيز على المشاكل الاقتصادية والعاطفية التي تجتازها. تتمثل في حياة ذات

وعائلتها حياة أغلب الطبقة المصرية المتوسطة؛ فإن أسرة ذات هي نموذج نمطي للأسرة المصرية المتوسطة تعيش الاضطهاد وسلب الحقوق.

وقد صور الروائي عن طريق حياة "ذات" المجتمعَ المصريَّ بكل سماتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية خلال فترات الرؤساء الثلاث. و الرواية تصور ما رافق هذه الفترات من انحطاط في الظروف المعيشية وانحلال في الأخلاق العامة. ويرصد أغلب جزء الرواية للمجتمع المصري في الثمانينات والتسعينات إثر انفتاح مصر للأسواق والأموال الأجنبيتين. كما أن الرواية ترصد لسياسة التأميم ودخول مصر في مرحلة استجلاب الاستثمارات الأجنبية والعملات الصعبة وتوسيع الملكية الفردية على وسائل الإنتاج.

القصة

يتناول الفصل الأول التحولات في حياة البطلة "ذات" من مولدها وتزوجها مع عبد المجيد محسن وحياتهما الزوجية. وتنتهي بتجرباتها العملية في إحدى الجرائد. وبموازاة ذلك يتناول التحولات من عبد الناصر إلى السادات وإلى مبارك، مع الإشارة إلى المشاكل التي يواجهها الناس في حياتهم المعيشية وفساد الأحوال الاقتصادية المصرية. ويتلوه الفصل الثاني التوثيقي الذي يتناول المقتطفات من الجرائد واليوميات والمقالات والمقابلات الشخصية التي تتعلق بالتحولات الرئيسية في حياة مصر والمصريين في عهد رئاسة الثالوث. يحاول الكاتب عن طريق المقتطفات تأكيد تواطؤ رجال الدين والسلطة والأعمال وهيمنة رأس المال وقمع الطبقات المهمشة. بدأت الرواية برسم ملامح شخصية

"ذات" على نحو يوحي إلينا أنها امرأة عادية غير أنها مختلفة تماما لأنها غير قادرة على الإقدام والمبادرة وتغيير المصير. "علينا أن نفترض (من منطلق الأمانة لتراثنا القومي) أن "ذات" مريضة أو على الأقل غير طبيعية."[229] والفصل الثالث السردي يرسم المزيد من ملامح الشخصيات الروائية مع الإشارة إلى الاحوال الاقتصادية والاجتماعية المصرية وترصد للمشاكل المعيشية التي تعاني منها ذات والطبقة المتوسطة .

التصوير الاجتماعي في رواية "ذات" (تصوير التناقض الطبقي والاستهلاكية في رواية ذات)

قد رأينا أنه منذ البداية وجدت لدى صنع الله ابراهيم نزعة قوية لتسجيل وتأريخ المجتمع المصري العربي؛ لذلك فإنه تبنى تقنية مختلفة جدا باللجوء الكثير إلى الوثائقية عن طريق الأخبار والمواد التأريخية كما نرى في رواية "نجمة اغسطس" ورواية "بيروت بيروت" ورواية "العمامة والقبعة" ورواية "القانون الفرنسي" ورواية "وردة". وإن رواية ذات قد تؤلف اتقن الخيط في هذه الصدد. علاوة على ذلك قد يشكل اهتمام صنع الله ابراهيم بالعدالة الاجتماعية ومقاومة الظلم والاضطهاد أهم جزء لمحاولاته القصصية. ورواية ذات لها مكانة مميزة في هذا الصدد. فالفصول السردية والفصول التوثيقية كلتيهما تهتمان بتصوير ونقد اللامساواة والاضطهاد وفساد الطبقة الحاكمة

[229] ابراهيم، صنع الله، رواية ذات، ص52، الطبعة الثالثة، دار المستقبل العربي، شارع بيروت، مصر الجديدة، القاهرة، 1998.

وكلتا من القصاصات الأخبارية وقصة حياة ذات تستهدف السخرية بالنظام السياسي والمناخ الاجتماعي والاقتصادي. يقدم صنع الله براهبم عن طريق قصة ذات والقصاصات كيف أن المجتمع المصري يعاني من الفساد السياسي الاقتصادي، والفقر واللامساواة وكيف أن الطبقات المهمشة تعاني من الاضطهاد الطبقي واللااعتناء السياسي وكيف أن الطبقة الحاكمة همها الأساسي جمع وتدخير الأموال ولو على حساب الوطن والفقراء والمساكين. فذات واصدقائها وأقربائها من الطبقة المتوسطة تعاني من اللامساواة في كل مجال من مجالات الحياة، نمط الحياة والتعليم والصحة والأجور والسكن. وفيما يخص نمط الحياة والسكن فإن الرواية تقدم التناقض والتباين بين الحياة التعيسة التي تعيشها ذات والطبقات الفقيرة والحياة الفاخرة الوفيرة التي تتمتع بها الطبقة الرأسمالية الحاكمة من الساسة ورجال الأعمال والقدوة الدينية. فبطلة الرواية ذات على سبيل المثال تسكن في بيت رديئ. يصور صنع الله ابراهيم تعاسة ذات في صورة ساخرة جدا لكي يتم تصوير الحالة الوقعية، يقول الروائي أن الرخاء وصل إلى عدة الأسر في عمارة ذات ولكنه لم يصل إلى "ذات". في الحقيق يريد صنع الله أن يعبر أن في مثل هذه الحالة لا يستطيع أحد أن يحقق النجاح الاقتصادي إلا عن طريق محتال وغير أمين. "بدأت مسيرة الهدم والبناء في العمارة على يد مؤظف الزراعة عندما فتح الله عليه أثر اشتغال المنافسة بين شطات الميدات الحشرية الأجنية الموردة للوزارة، وانتقلت الراية من بعده إلى المدرس العائد من الكويت، ثم الحاج فهمي، الجزار الذي انظم إلى سكان العمارة في مرحلة متأخرة وبالأسلوب العصري أي الامتلاك لا الاستئجار، إلى تلقفها العسكر: ضابط

الشرطة بعد عودته من مهمة تدريبية في الولايات المتحدة. على أن القائد الحقيقي كان باشمهندسا مهذبا ناعم اللباس. وبفضل جهود الباشمهندس انضمت العمارة كلها إلى المسيرة، عدا الطابق الذي تقيم به ذات.... حافظ سكان العمارة على الجدول الزمني للمسيرة بنجاح... كان هناك، بالطبع، حالات استثنائية محدودة، انتقلت فيها المبادرة من مؤظف الزراعة إلى ضابط الشرطة (مرة وأحدة عندما أعير مؤقتا لمباحث مكافحة المخدرات) وإلى ضابط الجيش (مرتين: الأولى عندما حصل على شقة جديدة من مشروع إسكان تابع للقوات المسلحة وباعها في الحال بصعف ثمنها، والثانية عندما انتقل إلى جهازالخدمة المدنية العسكري، حيث أصبح على احتكاك مباشر بسوق البناء العظيم)، وفيما عدا ذلك حافظت المسيرة على دورتها المنتظمة التي تقفز فيها دائما من الطابق الثالث إلى الطابق الخامس دون أن تتوقف عند ذات، مما يؤدي إلى هيأج غددها، وخاصة عندما تضطر إلى لف القماش حول مأسورة الحمام لمنع تسرب المياه، أو عندما تقع عيناه على لف على طبقات الدهون والدخان المترسة فوق جدران المطبخ، وبوجه أكثر خصوصية عندما تعلق أختها زينب على السيفون القديم المصنوع من الحديد الزهر والمعلق قرب السقف، تتدلى منه سلسلة معدنية تستقر عادة على رأس الجالس فوق المرحاض، قائلة ببراءة مصطنعة : معقول يا ذات..انت لسه عندك حاجة زي كده ؟."[230] ويؤكد صنع الله ابراهيم تعاسة وبؤس الطبقة المتوسطة الفقيرة من مثل ذات عن طريق التناص التوثيقي حينما يسترعي انتباهنا إلى الحياة التعيسة للطبقة العاملة.

[230] المصدر السابق،ص 55،54&56.

"الأحياء الشعبية تغرق في مياه المجاري بعد بدء تشغيل المرحلة الأولى من مشروع الصرف الصحي العاجل الذي رصدت له الدولة أكثر من ستين مليون جنيه. الأهالي يذهبون إلى المحافظ فيحتجز بعضهم ويأمر باعتقال البعض الآخر."[231]

حاول صنع الله ابراهيم عبر حياته أن يوقظ وعي الطبقة الفقيرة بصدد حياتهم التعيسة والفرق الكبير بينهم وبين الأثرياء. وقد تقدم ذات أمامنا هذا المستوى الأعلى من التباين الشاسع بينهما. ويسترعي صنع الروائي إلى هذا التباين الشاسع أي فقر البطلة "ذات" وثروة الطبقة العليا عن طريق التناص."تخصييص فيلا المليونير الهارب هنري مشل زيدان، التي تحتوي على حمام سياحة، سكنا خاصا لشخصية دينية مسؤلة، بعد أن تم ترميمها بتكلفة 190 ألف جنيه."[232] "أرض معرض أيديال السابق في شرق بور سعيد والتي يملكها شفيق نائب رئيس الوزراء تباع لمقاول بمليونين من الجنيهات."[233] ويتم المزيد من تأكيد هذه الصورة في سياق قصة ذات. فذات يوم يهرب عبد المجيد زوج ذات من البيت فيجد نفسه في ضواحي القاهرة حيث يجد أن البيوت يتمتع بقدر كبير من الاستراحة حتى من الخارج. ولما كانت الطبقة الفقيرة في الغضيض الأسفل من الحياة ومضطرة أسوأ حالة سكنية من بيوت رثة وقلة سعة فيها لجميع أعضاء الأسرة وحالة غير نظيفة، ومشكلة الحصول على السكن أولا. إن الطبقة الثرية تحجز الشقق لأجيالها

[231231] المصدر السابق،ص114.

[232] المصدر السابق،ص107.

[233] المصدر السابق،ص142.

القادمة في وقت مقدم وتبقى هذه الشقق مغلقة لوقت طويل. "مرتان وفي الثالث هرب عبد المجيد إلى الشارع. بدأبتلك القريبة من منزله، التي شقت في الخمسينات وبداية الستينات، لتأوي أقرانه من أبناء القطاع العام (بما فيهم الكريمة من المدرسين وكبار العسكريين) في عمارات متشابهة، ضاقت نوافذها وشرفاتها ومداخلها، وطرأ عليها ما طرأ على عمارته من تغيير، فتحطم زجاج مناورها، ونشعت جدرانها، واغبرت واجهاتها، وتكددست مخلفات الأعوام في أركان شرفاتها، فيما عدا الشقق المحظوظة، التي فتح الله على أصحابها، فامتدت يد الدهان إلى نوافذها وبلكوناتها، والواجهات المحيطة بها، في حدود دقيقة لا تمتد إلجيرانها ، وقُفّلت بلكوناتها، أو ظللت بالتندات الإيطالية المخططة والمحبوكة، ودمغت بصناديق التكييف و خراطيمه. ما كان يمثل أطراف مصر الجديدة في الستينات أوشك أن يصبح في وضع المركز في الثمانينات، ولهذا ألفى عبد المجيد تفسه تبعا للآلية التي تحكم حركة التأريخ، يتدحرج إلى الأطراف الجديدة التي مدت إليها خطوط المترو والأتوبيس، وشيدت بها المجمعات السكنية الضخمة، على مدى سنوات طويلة من انتظار حاجزيها (بإحدى دول الخليج في أغلب الأحيان) تسلموا في نهايتها جدرانا وأرضييات على العظم، بتركيبات صحية يتعين استبدالها على الفور، بواسطة نفس المقاول أو السباك، بطبيعة الحال، لتترك بعد ذلك مغلقة، لحين الحاجة إليها. منظر الشقق المغلقة في انتظار حاجزيها ، أو ألادهم وبناتهم عندم يشبون ويتزوجون ، كان كفيلا بدحرجة عبد المجيد، عكس حركة التأريخ، من الأطراف إلى المركز، عبر زوايا مشجرة، مخبأة جيدا بين كتل الأبنية، لن يطول بها العهد قبل أن

تلتقكها عيون النسور الحادة، لتقيم فوقها أكشاك الأمن الغذائي أو تحولها إلى مقلب زبالة ، وفوفق أرصفة مكسرة شغلتها السيارات المنتظمة في صفوف، أول وثان وثالث، وكأنما صار لكل مصري ركوبة، عدا عبد المجيد الذي تدحرج إلى عرض الطريق وهو يتأمل الحواف الانسانية اللامعة، المؤخرات العريضة المستقرة فوق العجلات في ثبات واعتداد، بنفس اللوعة التي يتأمل بها شقق الميرغني الرحبة بشرفاتها الواسعة المظللة بالنباتات والأجهزة، إلى أن يصعد ثانية فوق أرصفة خلت من كل شئي عدا الحراس المسلحين ، أمام قصور العروبة وفيلاتها التي تداولتها الأيدي، عبر التحولات من كريمة إلى أخرى، ثن فيلات الأربعينات وعماراتها الراسخة، بمداخلها الرحبة (التي انتشرت أمامها زبالة لا يجد أحد الهمة لإزالتها) وطوابقها القليلة (فيما عدا حالات التعلية) تخدمها مصاعد بطيئة احتفظت أخشابها بروائح ذلك الزمان، وشرفاتها الواسعة، التي ظهر أثر الزمن على بعضها، في حالة من أخنى عليهم الدهر، أو من ينتظرون في أوربا وأمريكا حتى تستقر الأحوال، ينما تحول البعض الآخر ، على يد الجيل الثاني أو الثالث، بعد تقفيله بالألوميتال والفيفمة ودهانه باللون الأبيض الناصع أو البنى الداكن، إلى مكاتب بيزينيس، علقت فوقها لافتات مضيئة تعلن عن شركة سياحية، أو استيراد وتصدير،شحن وتفريغ، تنشيط وتنظيم، تنظيف وتحليل، تزيين وتجميل ، تذكير وتأنيث، أو مجرد بوتيك، بواجهة زجاجية عريضة ، يزينها صندوق الكومبريسور، وخرطومه المعهود ، إلى جوار لافتة كتبت بحروف مذهبة، بالخط الكوفي أو الفارسي أو المغربي، خرجت

مـن خطـوط إنتـاج متوازيـة، تمتـد مـن مرجانـة إلى كهرمانـة أو لـورد فـامبراطور، أو باشـا حـتى أفنديا."[234]

فهكـذا يسـترعي صـنع الله ابـراهيم انتباهنـا إلى التبـاين أو التنـاقض الكبـير بـين الطبقتـين ويسـخر بهـذه الصـورة السـيئة. ثم إنـه يسـخر بأن الطبقـة العليـا لـيس فقـط تعـش في الـترف بـل إنهـا تـوزع الممتلكـات الوطنيـة فيمـا بينهـا. لقـد دعـم صنع الله ابراهيم هـذا الـدعوى لـه عـن طريـق التنـاص التـوثيقي وذلـك في صـورة سـاخرة جـدا. "الحقيقـة أن جـلال السـادات أخـذ شـقة واحـدة فقـط والشـقق الخمـس بيانهـا كـالآتي:... الشـقة الثالثـة قيـل أنهـا أجـرت لمـواطن اسمـه أحمـد عبـاس وهـو عـديل جـلال السـادات. وفعـلا نحـن أجـرنا لهـذا الشـخص ولكـن لمكانـة اجتماعيـة خاصـة وهـي أنـه مستشـار في محمكمـة الجنـايات. وهـذا التـأجير تم طبقـا لقاعـدة وضـعتها وهـي أن المسـتأجرين يجـب أن يكونـوا حسـنى السـمعة. والشـقة الرابعـة قيـل أنهـا أجـرت لسـهير السـادات وهـي لهـا زوج ضـابط بالقـوات المسـلحة وكنـا قـد وضـعنا بعـص الضـوابط أن الشـقق تـوزع علـى طوائـف المـواطنين جميعـا، وكمـا خصصـنا شـققا لأعضـاء الهيئـات الفضـائية خصصـنا شـققا لضـباط القـوات المسـلحة.. والشـقة الخامسـة أجـرت لجـلال السـادات باسـم زوجتـه هـدى عبـد اللطيـف.. وعنـدما أتممنـا تأجـير الشـقق تناقشـنا في أمـر الجـراج.. وعنـدها تقـدم جـلال السـادات.. أمـا واقعـة أنـه قـام بتـأجير الجـراج بمبلـغ 200 ألـف جنيـه لسـيدة فلـم أكـن وقتهـا مـدعيا اشـتراكيا."[235] فترسـم روايـة ذات شـجع

[234][234] المصدر السابق،ص 204، 205 &206.

[235][235] المصدر السابق،ص31.

وفساد الطبقة الحاكمة بصورة ساخرة، مما يعلمنا أن هذه الطبقة تعتبر مصر ممتلكا ذاتيا. ولقد نرى اللامساواة وانعدام العدالة الاجتماعية في التباينة الشاسع في الأجور التي تتمتع بها أعضاء الطبقتين العليا والدنيا. وعدم المساواة في الأجور يمثل أسوأ صورة عدم المساواة حيث أنه هو الذي يقرر مستوى المعيشة. فنرى أن كلين من عبد المجيد وزميله عبد الرحيم يعملان في البنك. ولكن ، بينما يكسب عبد المجيد أجرا خفيضا ضدا، على عكس ذلك يكسب عبد الرحيم الذي يمت إلى وزير بصلة القرابة، 3800 دولار أمريكي شهريا. وعكس هذا إن أعضاء الطبقة الدنيا أو الطبقة المتوسطة يكسبون أجرا خفيضا جدا. تفضح الرواية هذه الصورة عن طريق التناص على لسان جندي أمن مركزي. "نتقاضى ستة جنيهات في الشهر هي ثمن رغيف خبز مستورد في فندق جولي فيل."[236] ويتضح هذا التناقض أكثر من الاقتباس الآتي. "المحظوظ منا هو الذي يلتحق بالخدمة لدى أحد الضباط فيقود له سيارته أو يرافق أولاده إلى المدارس أو زوجته إلى السوق أو يقوم بتنظيف المنزل وإعداد الطعام أو دهان الجدران أو العمل في مزرعة الضباط أو دكانه."[237]

فكلا من التناص وقصة ذات يستدعيان انتباهنا إلى الفجوة البعيدة بين الأثرياء والفقراء. فتصور الرواية عن طريق حياة ذات وعبد المجيد وجارهما الشنقيطي مشاكل الطبقة القليلة الدخل في المجتمع المصري بكامله. وليس هذا التباين أو التناقض أو

---

[236] المصدر السابق،ص171.

[237] المصدر السابق،ص172.

الفجوة بين الطبقات محدودة في الدخل أو الأجور والسكن بل في جميع مسيرة الحياة. وتصل هذه الحالة إلى أعلى ذروتها في ميدان الصحة والرعاية الصحية والعلاج. بهذ الصدد نُفاد أن الحالة المعيشية التعيسة هي التي تدفع الطبقات المتوسطة إلى الأمراض المهلكة المتشتتة، وأن هذه الطبقة الفقيرة تعيش حالة البؤس والشقاء المضنية، علاوة على التسهيلات الضئيلة المتواجدة لديهم. يستخدم صنع الله ابراهيم صلاحيته للسخرية حيث يصور مرض وتعاسة ذات في تفاصيل ساخرة كوميكية. فذات تعاني من سرطان أو ورمة في الثدي ولا تتلقى علاجا ملائما على الرغم من الاختلاف المتواصل إلى شتى المستشفيات. فهي تضطر إلى أن تستسلم أمام المرض وتسكن في البيت. فهكذا نجد أنه يأتي فصل جديد في حياتها التعيسة خلال مساعيها وذلك ورم في الثدي. وأسخر شيئ في الرواية مما يوضح لنا واقع الرعاية الطبية التي يحصل عليها الطبقة الفقيرة أن الطبيب الذي شخص الورم في ثدي ذات يشير عليها أن تستأصل ثدييها. "خضعت ذات لكشف دقيق ومستفيض لدرجة أثارت شكوكها، إذ زل الطبيب يتحسس ثدييها ويضغط عليهما إلى أعلى وإلى أسفل ويعتصرهما ويفعص حلمتيهما. كان واقفا أمامها ورأسها في مستوى بطنه، وقاومت أن تهبط بعينيها إلى أسفل لتحسم الشك، وحسم هو الأمر عنما هز رأسه في وجوم ثم أعلن لها أن العناية الالهية ساقتها إليه في الوقت لمناسب (له بالطبع) وأنه سينتظرها في الصباح ليستأصل أحد ثدييها في محاولة لإنقاذ حياتها."[238] يجادل صنع الله ابراهيم في هذا الصدد أن الطبقتين تعيشان في عالمين

[238] المصدر السابق،ص65.

مختلفين. فلما كانت الطبقة الثرية يتمتع بأحدث العلاج المبني على العلوم والتكنولوجيا الحديثة. إن الطبقة الفقيرة تحصل على علاج خطر ليس له صلة بالعلوم والتكنولوجيا الحديثة. والأطباء الذين يخدمونها دجالون وبطبطة لم يتعلموا الطب ولكنهم يستغلون الفقراء لجهلهم وفقرهم. تصور الرواية هذه الحالة عن طريٌ تعاسة زميل ذات عيد أبو الرأس الذي أوقعه الطبيب في القبر لمرض بسيط جدا. "ففي أحد الأيام، اشتكى من آلام شديدة في بطنه، فنصحته ذات بالذهاب إلى طبيب الدريدة الذي أحاله إلى مستشفى الصدر بالعباسية، حيث أقام تحت العلاج لمدة شهر، خرج بعدها كما دخل. ونصحته ذات مرة أخرى بأن يتوجه إلى عيادة خاصة، وجمعت له من الماكينات النقود الضرورية لذلك، والتي مكنته من إجراء أشعة كشفت عم وجود جفت شرياني في بطنه طوله عشرين سنتيمتر، من مخلفات عملية استئصال طحال أقدم عليها قبل ثلاثة أشهر في مستشفى الصدر الذي أحاله إلى عيادة ناصر الشاملة بالتأمين الصحي، التي أحالته إلى مستشفى آخر أحاله-بعد جراحة عاجلة- إلى القبر."[239] وبموازاة تصوير تعاسة وبؤس ذات وعيد أبو الراس يصدمنا صنع الله ابراهيم بخبر محافظ الاسكندرية الذي يسافر إلى الخارج للعلاج الطبي. "محافظ الاسكندرية يصحب أسرته في علاج طبي واستجمام إلى الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا بدعوة من هيئة المؤن الأمريكية وهيئة تطوير المجتمعات المحلية والريفية."[240] وفي هذا الصدد يقوم صنع الله ابراهبم بالمزيد من

[239] المصدر السابق، ص155.

[240] المصدر نفسه، ص 111.

التأكيد عن طريق تصزير الفساد السياسي في ميدان الطب والرعاية الصحية. يدعي الروائي أن قصة ذات وتعاسة عيد أبوالراس يؤكدان أن الطبقة الحاكمة لا يهمها الوطن ولا الطبقة الفقيرة. ترتسم هذه النقطة في الفصل السادس التوثيقيي في تصوير الفساد السياسي في بناء المستشفيات؛ لم يكن اهتمام الوزراء بناء المستشفيات وإنما هو إدخار الأموال عن طريق المشروعات الطبية. لذلك فإنهم لم يستطيعوا أن ينشؤوا المستشفيات حتي في عدة في عقود وقد صور صنعالله ابراهيم هذه الحالةبقدر كبير من التفاصيل طريق التناص التوثيقي في الفصل السادس.

" وزير : بالنسبة للاستجواب المقدم حول مشروع إعادة بناء مستشفى القصر العيني، أؤكد أن إجراءات العقد مع الجانب الفرنسي سليمة، وأن هذه العقد يوفر للخزانة العامة 72 مليون فرنك فرنسي.

وزير آخر : الحكومة جادة في مراقبة المال العام من أجل مصلحة شعب مصر.

نائب : في أواخر السبعينات، هدم المستشفى وأعلنت الحكومة عن التقدم بعروض مبدئية للدخول في عملية إعادة بناء المستشفى، وتقدمت العديد من الشركات العالمية بعروضها، وتم تصفية العروض إلى عشر شركات لم يكن بينها المجموعة الفرنسية، وبقدرة قادر دخلت المجموعة الفرنسية بعطائها وفازت لأنها عرفت من أين تؤكل الكتف. دخلت من الباب الخلفي في يناير 1981."[241]

[241] المصدر السابق، ص103&104.

ثم إن الرواية تصور التباين الكبير في الرعاية الصحية بقدر كبير من التفصيل عن كلي الطريقين التناص وقصة حياة ذات. ومما وسع الفجوة في هذا الصدد هو سياسة الاستعمار الجديد، حيث أن الدولة المتقدمة أنشؤوا المستشفيات في مصر أيضا كما في جميع دول العالم الثالث، إلا أن أهمها هو استغلال مصر اقتصاديا ولذلك توفر خدمات غالية التكاليف مما لا تقدر الطبقة الدنيا أو الطبقة المتوسطة أن تحمل هذه التكلفة.

الخلاصة أن الرواية في كل من الوثائق التناصية وحكاية ذات الحافلة بالرمزية ترسم صورة بانورامة للمجتمع المصري المعاصر،مما يظهر أن المجتمع المصري متكون من طبقتين متضادتين : طبقة تملك السلطة والمال، وطبقة أخرى لا يملك شيئا. والطبقات الفقيرة تؤلف الأغلبية ولكنهمضطهَدة مستغَلة ومحرومة من الاحتياجات الأساسية للحياة الاجتماعية.

قد توزع المجتمع المصري إلى طبقتين اجتماعيتين متضادتين منذ ترسخ الاستعمار الجديد واستمرت هذه الحالة، إلا أن سياسة الانفتاح التي أتى بها أنور السادات قد فاقمت الحالة ووسع الفجوة المتواجدة بين الطبقات. وعلى عكس دعوى الطبقة الحاكمة قد جاءت سياسة الانفتاح بتأثيرات سلبية ضربت المجتمع المصري من نواحي شتى، حيث أن السياسة فتحت مصر للاستثمارات الأجنبية وحفز القطاع الخاص. حررت السياسة التجارة وأزالت مراقبة تحويل العملات. يدعي صنع الله ابراهيم في الرواية أن الطموحات الرأسمالية التي استكاع المصريون تحقيقها في اشتراكية جمال عبد الناصر استحال تحقيقها

في رأسمالية أنور السادات. "فالحلم الرأسمالي الذي كان يبدو قريب المنال في ظل اشتراكية عبد الناصر، صار للعجب مستحيلا في عهد رأسمالية السادات."[242]

ولم يكن عصر الانفتاح خلال فترة أنور السادات إلا فترة الأحلام اليقظة الكاذبة لم ينمو ولم يترق فيها إلا الدجالون. وتصاعد اضطهاد الطبقة الضئيلة الدخل. يعتقد صنع الله ابراهيم أن سياسة الانفتاح هي التي مسؤولة عن حالة التعاسة والبؤس والاضطهاد التي يجتازها هذه الطبقة التي تنتمي إليه ذات وعبد المجيد. "بدأت تظهر على عبد المجيد آثار اتساع الهوة بينه وبين أحلامه."[243] فلم يكن لنظام السوق الحر أن يحل المشاكل والأزمات الاقتصادية المصرية، على العكس إنها أحدثت آثارا سلبية للمجتمع المصري. وكان الغرض من التحول إلى نظام السوق الحر جلب الرأسمال الأجنبي إلى مصر ودعم إحياء القطاع الخاص للاقتصاد المصري، إلا أنها لم يحدث تغييرات اقتصادية مفيدة كما لم ينتعش الاقتصاد المصري، وإنما أحدثت آثارا سلبية، حيث أنها حولت مصر إلى مجتمع استهلاكي. وثانيانهالم تُفِد إلا نخبة قليلة من المصريين، مما أدى إلى إحداث طبقة نخبة استولت على الاقتصاد والسياسة على حساب الفقراء الذين لم يستفدوا إلا تعاسة وشقاءا.

والمثير في الرواية أن صنع الله ابراهيم رسم صورة مقارنة عن عهد كل من عبد الناصر وأنور السادات بإشارات مقارنة ساخرة متهكمة جدا، مما يعن عن اهتمام عبد الناصر

---

[242] نفس المصدر،ص21&22.

[243] المصدر نفسه،ص21.

بالمساواة والعدالة الاجتماعية والحرية المعيشية، بينما شهدت مصر في عهد السادات تصاعد البؤس والشقاء للطبقات الفقيرة، كما أن التناقض والتباين بين الطبقات تصاعدا لسبب سياسة الانفتاح التي سلكته أنور السادات. على أنه لم يكن عهد الناصر عهدا مثاليا إلا أن حب الناس له يحسم أنه استطاع أن يشبع طموحاتهم واحتياجاتهم الأساسية. يتم تأكيد أهمية عبد الناصر كرمز للعدالة الاجتماعية عن خلال الشخصيات المختلفة في الرواية. على سبيل المثال، حينما يسأل عبد المجيد ذات "أنت متأكدة أنه عبد الناصر وليس السادات."[244] يريد صنع الله ابراهيم أن يؤكد أنه على الرغم من اشتراكية جمال عبد الناصر ارتفع مستوى معيشة المجتمع المصري واستطاع الناس تحقيق أغراضهم. وقد يقوم صنع الله ابراهيم برسم مزيد عن طريق الرمز الساخر في أحلام ذات وآخرين من الطبقة المتوسطة. فإن صنع الله ابراهيم يزورهم في أحلامهم. الهدف التأكيد أن الناس يريدون استعادة الأيام الرخوة التي يتمتعون بها في عهد جمال عبد الناصر. إن صنع الله ابراهيم قد استخدم الماضي للسخر بالحال. فإن كثرة الأحلام تعني أن المشاكل قد وصلت إلى المستوى الكابوسي حتي ساورتهم نفسيا. فذلك يعني أن الطبقة المتوسطة تحلم بالتشخيص. والأحلام بذاتها تعني أن الناس ملتاعون إلى التغيير، وإنها تمثل الحد الأقصى للشعور بالإحباط، والحالة النفسية السيئة للناس من مثل ذات التي تحلم بحياة أفضل ولكنها تزداد شقاءا وتعاسة أكثر ما تبذل مساعيهم. ومستوى العنف والسخرية الذي استخدمه صنع الله ابراهيم في أحلام ذات يكشف عن مستوى الشعور بالإحباط

[244] المصدر السابق،ص 56.

والتمـرد والثـورة في المصـريين ضـد الطبقـة الحاكمـة. ولكـي يتضـح هـذه الناحيـة يليـق بأن ينقـل الاقتبـاس الآتي بالتفصـيل. "تعـددت الـزيارات الليليـة الـتي تتلقاهـا ذات والـتي كانـت قاصـرة علـى أبيهـا وجمـال عبـد الناصـر فقـد انضـم إليهـا زوج منـال بعـد حصـوله علـى الـدكتوراه، وزوج هنـاء بعـد انتقالهـا إلى شـقة الهـرم، وزائـر قـديم مـن أيام الجامعـة، بـلا مناسـبة، هـو عـزرز، زوج صـفية، بالإضـافة إلى زيارة مفاجئـة لم تتكـرر مـن منـير زاهـر، الصـحفي البـدين. وتميـزت هـذه الـزيارات بدرجـة كبـيرة مـن الرقـة والعذوبـة، إلى أن تسـلل إليهـا العنـف. فقـد دأب جمـال عبـد الناصـر أن يتحـول عنهـا فجـأة وينطلـق إلى المطـبخ فيتنـاول مطرقـة وينهـال بهـا علـى جدرانـه ودواليبـه ثم ينتقـل إلى الحمـام. وتـب مـن نومهـا مفزوعـة وهـي تهتـف: (المطـبخ.. الحمـام..)..."[245] وإن الروايـة، لكـي تعطـي صـورة أكثـر إيضـاحا، تسـتخدم رمزيـة إبقـاء الصـور المـؤطرة في المكتـب الـذي تعمـل فيـه ذات، حيـث أن البيـوروقراطيين وهـم مـع الـرئيس الجديـد كـانوا يريـدون إطاحـة صـورة الناصـر ولـيس السـادات والروايـة هنـا تعطـي التصـوير الواضـح للسياسـة المصـرية المتحولـة. "أصـبح لـدى البيـوروقراطيين خـبرة بتغيـير الرئاسـة، فجـرى علـى الفـور توزيـع صـور الـرئيس الجديـد المـؤطرة علـى المكأتـب والمؤسسـات. وطبقـا لمبـدأ الوفـاء الـذي أرسـاه الـرئيس المقتـول كـان يتعـين الإبقـاء علـى صـورته إلى جـوار صـورة الـرئيس الجديـد. ولم يتسـع جـدار غرفـة قسـم المتابعـة والتقـويم لصـور الرؤسـاء الثلاثـة الكبـيرة بإطاراتهـا السـميكة، فسـنحت بـذلك فرصـة الـتخلص مـن أولهـم. لكـن ذات لم تقبـل الإطاحـة برئيسـها المحبـوب، وفي شـجاعة نادرة لـن تبـدر منهـا مـن قبـل او مـن بعـد

[245] المصدر السابق،ص56&57.

قالت: إذا كان لا بد أن يذهب أحد فليكن السادات. أدرك أمينوفيس الخطر الكامن في هذا الموقف، إذ سيحي من جديد الاتهام الموجه إليه بعضوية التنظيمات السرية مما قد يؤدي إلى الإطاحة به من رئاسة القسم، خاصة وأن أحدا لم يكن يعرف بعد أين يميل الرئيس الجديد، رغم أنه أعلن أكثر من مرة: مای نيم ايز حسني مبارك، ولكي يخلي هو نفسه من المسؤلية كتب تقريرا بالأمرر ، رفعه إلى رئيس مجلس الإدارة.وأسفرت القصة كلها عن الإطاحة بشخصين: عبد الناصر وذات."[246] إن الرواية ترمز إلى التنقل الكامل للسياسة المصر إلى الغرب كما ترمز إليه قول حسني مبارك: مى نيم ايز حسني مبارك.

المهم بالذكر أن الصورتين تمثلان الماضي والحال، يعني اشتراكية عبد الناصر ورأسمالية السادات. واستطاع صنع الله ابراهيم أن يرسم هذا الأمر بصفة تصور الاضطهاد وتهميش الفقراء ومقاومتهم ضد النظام الرأسمالي. فالعزلة والنفور والمقاطعة التي تواجهها ذات في الأرشيف بسبب خلفيتها الاجتماعية ووجهات نظرها السياسية والاجتماعية لا تعني إلا بؤس وشقاء وتعاسة وإهمال الطبقة التي تنتمي إليها. فإن تفاهتها وعدم أهميتها في المجتمع تعنيان تهميش الفقراء بصورة عامة. ويهم أنةنذكر أن رفض ذات لصورة السادات يع عنة المقاومة من قبل الطبقة الفقيرة ضد سياسة الانفتاح التي جاء بها الرئيس أنور السادات، والتي جاءت في مصر بنظام السوق الحر الذي وسع الفجوة بين المصريين، إذ أن الاقتصاد والسلطة أصبحا يتركزان أكثر فأكثر في أيدي أقل قليل من الناس. ليست هذه

[246] المصدر السابق، ص 22&23.

المقارنات مجرد اتهامات يوجهها صنع الله ابراهيم إلى أنور السادات وسياساته الاقتصادية. بل إنها قائمة على الحقائق التأريخية. وفيما يتعلق بحنين الطبقة المتوسطة لعهد الناصر وحبهم له، فإنه يبدو أن هناك علاقة متبادلة بينهما، حيث أن المؤيدين الأساسين لعبد الناصر من الطبقة المتوسطة ماعدا المفكرين المثقفين.[247] ولما كانت معظم الاستثمارات الأجنبية في الترف دون الإنتاج، فلم يكن لها أن تنجب أعمالا ووظائف، بل على العكس تمخضت عن التضخم المالي والارتفاع في السعر.[248] مما أحدث مشاكل معيشية للفقراء. وكانت من إحدى النتائج لسياسة الانفتاح واقتراب السادات إلى الولايات المتحدة أنه سحب الدعم الغذائي على إشارة من الصندوق المالي العالمي، مما أدى إلى الاضطرابات الغذائية عام 1977.[249] وفي هياجهم أخذ الناس في الهجوم على كل ما له شأن بالترف والحياة الفاخرة الثرية بما فيه الأجانب والملاهي الليلية والعجلات الفاخرة. وارفقت الهجوم الهتافات ضد السادات وأسرته. استرعت هذه الحوادث انتباه المصريين من الطبقة المتوسطة إذ أن تباين عدة قروش في ميزانيتهم يعني الفرق بين الأكل والتجويع.

ثم إنه يجدر بالذكر أن صنع الله ابراهيم يستخدم عبد الناصر رمزا لصوت المقاومة والإدانة بالظروف الاجتماعية المعاصرة التي تتصف بالاضطهاد الطبقي وانعدام العدالة

---

[247] أسيوط، ص159.

[248] المصدر السابق،ص 159.

[249] المصدر السابق، ص 159.

الاجتماعية. فيتم استخدام عبد الناصر كمصدر لإلهام الطبقة الفقيرة لأن تكافح لحقوقها والعدالة الاجتماعية. فعبد الناصر يمثل للضعفاء من أمثال ذات وعبد المجيد الأمل والعدالة.

علاوة على هذا قدتمخضت سياسة الانفتاح عن عدة نتائج أخرى أثرت المجتمع المصري تأثيرا دقيقا وقد تصورها رواية ذات بصورة بالغة. ويهم بالذكر أن سياسة الانفتاح أسفرت عن إحداث طبقة للمقاولين ادخرت ثروات لا بأس بها، واخذت في استهلاك مسرف في الأدوات الالكترونية الأجنبية وسلع الأزياء، كما أن العدد الكبير من المهنيين هاجروا إلى الخليج ودول النفط، وكان هناك مظهرا جديدا أن العدد الكبير من الفلاحين أيضا هاجروا إلى الخليج كالعمال في المشاريع البنائية. تمخض كل هذه المظاهر عن آثار سيئة على المجتمع المصري وخاصة على اقتصادها حيث أن هجرة المصريين إلى دول الخليج أدى إلى تقلص العمال الماهرين في مصر، مما نتج في ارتفاع الأجور ونتيجة لذلك ارتفاع السعر. وكما أن الأموال التي جاؤوا بها لم تجد طريقا إلى الاستثمار الإنتاجي وإنما أنفقت على السلع الاستهلاكية، مما أدى إلى التضخم المالي وارتفاع تكاليف المعيشة للطبقة الضعيفة.

الخلاصة أن سياسة الانفتاح والمظاهر الناتجة منها من هجرة إلى دول الخليج والسلع الأجنبية التي وجدت طريقها إلى مصر ومظاهر الأزياء التي جاء بها المهاجرون حولت مصر إلى مجتمع استهلاكي ظلت آثارها عليها لمدة طويلة. فمل تؤد هذه السياسة

ونظـام السـوق الحـر إلى حـل مشـاكل المجتمـع المصـري وإنمـا خلـق لهـا مشـاكل كثـيرة منهـا اسـتهلاكية ضـخمة. يسـتخدم صـنع الله ابـراهيم الرمزيـة لانتقـاد هـذه الاسـتهلاكية الفـاخرة والمجتمـع المصـري الجديـد الاسـتهلاكي حيـث أصـبحت الأزياء والمظـاهر الخارجيـة أهـم علامـات طبقـة مـا . وفي بحثهـا عـن الهويـة الاجتماعيـة تنـدفع ذات إلى أهميـة المظـاهر الخارجيـة في مجتمـع مهـوس بالأزياء والموضـات حيـث الهويـة تتفـق مـع الاسـتهلاك.فـإذا كانـت عمليـة الهـدم والبنـاء أهـم رمـوز الاسـتهلاك إن ذات تلتفـت اهتمامهـا إليهمـا. عمليـة الهـدم والبنـاء تمثـل أوج الاسـتهلاكية والاعتنـاء بالأزياء والمظـاهر الخارجيـة الفنـاء للسـلع الجديـدة. فعمليـة اسـتهلاكها متـأثرة بعمليـة الهـدم والبنـاء في جيرانهـا حيـث أنهـا رمـز مهـم للمنزلـة الاجتماعيـة خـلال ذلـك العهـد.[250] تتـاثر ذات بالمنـاخ المتواجـد حولهـا فتـنظم إلى مسـيرة الهـدم والبنـاء علـى الـرغم مـن أنهـا لا تسـتطيع أن تتحمـل تكـاليف المعيشـية العائليـة. تـنظم ذات إلى مسـيرة الهـدم والبنـاء راجيـة في أن تغـير منزلتهـا الاجتماعيـة وأن تحصـل علـى أعلـى منهـا. فيسـخر صـنع الله ابـراهيم مـن الايـديولوجيا العامـة أن واحـدا منـا يسـتطيع أن يغـير منزلتـه الاجتماعيـة عـن طريـق أنمـاط الاسـتهلاك. وفي كلمـةأخرى إنـه ينتقـد المجتمـع المادي حيث تحدد المصادر المادية المنزلة الاجتماعية دون المزايا الذاتية.

يـدعي صـنع الله ابـراهيم أن الاسـتهلاكية نتيجـة مباشـرة لنظـام السـوق الحـر حيـث أنـه يعمـل علـى أسـاس أيـديولوجيا السـوق الحـر الـتي تـدعي أن كـلا منـا يملـك إمكانيـة سـواء لتحقيـق الأغـراض الـتي بريـد تحقيقهـا. ولكـن الواقـع أن نظـام السـوق لا يمكـن مـن الفـرص إلا القليـل

[250] المصدر السابق،ص55.

منـا. وهـؤلاء القلائـل لا ينجحـون إلا عـن طريـق الفسـاد. وذلـك يتمثـل في المؤظـف في قسـم إدارة الزراعـة. " بـدأت مسـيرة الهـدم والبنـاء في العمـارة علـى يـد مؤظـف الزراعـة عنـدما فـتح الله عليه أثر اشتعال المنافسة بين شركات المبيدات الحشرية الأجنبية الموردة للوزارة.."[251]

[251] المصدر السابق،ص54&55.

الفصل الثاني:

القضايا الاجتماعية كما تصورها رواية "شرف"

إن رواية شرف من أجرأ ما كتب صنع الله ابراهيم. تحكي الرواية قصة أشرف عبد العزيز سليمان أو "شرف" كما ألفت الأم أن تنادي حبة عينيها. شرف شاب في أوائل العشرين من عمره يجلبه حظه السيئ إلى السجن لأنه قتل "جون" سائحا أجنبيا بريطانيا دفاعا من اعتدائه على شرفه. وتقع معظم حوادث الرواية في السجن.

صدرت الرواية عام 1997، أي بعد فترة خمس سنوات من صدور رواية "ذات" عام 1992. صدرت الرواية من المطبعة الرسمية "دارالهلال" على خلاف عادة صنع الله ابراهيم إذ أن معظم روايته صدرت خارج مصر و أخيرا من دارالمستقبل العربي. يواصل صنع الله ابراهيم في هذه الرواية همه الأساسي فيفضح كما في رواية "ذات" كل ما يخل بالمجتمع المصري من الانتهاك و الظلم و الاستغلال و الفساد و قلة مشاعر الولاء إلى الوطن، كما يستمر و يقوم بالمزيد من التطوير في أسلوبه و تقنيات سرده من التناص و الوثائقي مما يجعل روايات صنع الله ابراهيم مسجلة ووثائق لما يلحق بالمجتمع المصري من تغييرات عبر الفترات المختلفة.

ربما يليق بنا أن نتحدث في البداية عن تعقيد التقنية السردية التي استخدمها صنع الله ابراهيم في رواية شرف. فإن رواية "شرف" أصعب روايات صنع الله ابراهيم تحليلا للتقنية السردية المعقدة فيها.[252] في هذا الصدد يقول "باول استاركي" 'في كثير من النواحي تقوم رواية شرف في خط مباشر لتطور روايات صنع الله ابراهيم الأخرى، فيقوم بتطوير مزيد للبطل المضادكشخصية مركزية بالنظر إلى أفكار الفشل و الإحباط. والموقع الرئيسي لأحداث الرواية – سجن مصري- يزود الروائي بخلفية مثالية لأن يجمع بين مواضيع الفساد والنفاق والإحباط الجنسي، المواضيع التي كانت بارزة في رواياته الأخرى، مع تأكيد جديد على التعصب الديني الذي يعكس تحولا في المجتمع المصري المعاصر؛ بينما أن تقديم الدكتور رمزي كشخصية ثانية و مضادة ساعد الروائي على المزيد من التقدم بالمواضيع و الأفكار التي لم تحتل أهمية مركزية من قبل، ولكن التي كانت من قبل متواجدة في "اللجنة" و "ذات" و في رواياته أخرى.[253] ثم إن هذه الرواية تتميز بالتعقيد البنائي الإضافي من البناء الخيالي وكذلك التجريب الأدبي الجرئ.

القصة :

تحكي الرواية قصة أشر ف عبد العزيز سليمان أو "شرف". شرف شاب في أوائل العشرين من عمره، ولد في عام 1974 كما تؤكد الرواية، في أسرة من الطبقة المتوسطة التي شوهت حياتها بعوامل الانفتاح الاقتصادي و نظام السوق الحرة و

[252]Starkey, Paul, Sonallah Ibrahim: Rebel with a Pen, pg. 133.

[253]نفس المصدر، ص 133.

الخصخصة و العولمة و السياسات النيولبرالية. تبدأ الرواية وشرف يهوم في سوق من طراز غالي تائها مبهورا حول العلامات التجارية الأجنبية من "اسكوت" و"أديداس" و"نائك" و"ليفايس" و"رانجلر" وأمثالها، ومطاعم غالية من "شاورما" و"هامبورجر" كل ما لا يطيقه هو أن يدفع لشئي من هؤلاء والقارئ يتعلم أن الهيام في شوارع القاهرة واختلاس النظر إلى شبابيك الدكاكين العالمية من أهم هوى وتسلية شرف. وفي هيامه يذهب إلى سينما من طراز غالي حيث يتعرف على سائح أجنبي من انجلترا اسمه "جون". ثم يذهب معه إلى سينما وبعد سينما يأخذه جون إلى منزله حيث يحاول أن يعتدي عليه. ودفاعا عن شرفه يقتل شرف جون مما يسبب وقوع شرف في السجن. بعدئذ يدور معظم القصة في السجن حيث يكتشف عالم الفساد والرشاوى وأنواع انتهاك الحقوق البشرية. يمثل عالم شرف في السجن مرآة عاكسة للدنيا خارج السجن المتوزعة بين طبقات مالكة و غير مالكة، حيث يظطر الجميع أن يدفعوا الرشاوي لكل ما يريدون أن يأكلوا أو لكل حركاتهم في السجن[254]. و كذلك، إن الرواية تعبر عن كيف أن الحالة الاقتصادية تلعب أهم الدور في الحصول على العدالة و الحقوق. وذلك واضح في شخصية شرف ذاته حيث أنه لايستطيع أن يحصل على العدالة مع كونه على الحق لأنه لا يقدر تحمل تكاليف أحذق المحامين. ومع أنه مجرم للدفاع عن النفس فقط ولكنه يعترف بأنه قتل سائحا خلال حملة النهب بعدما خضع للتعذيب الشديد والتهديات

[254]Mehrez , Samia . Egypt's Culture Wars: Politics and Practice, Pg 34&35.

على أيدي البوليس بأنهم يعتدون على أخته إن لم يعترف. بينما أن قاتلا استطاع أن يفوز بالبراءة لأنه استطاع أن يحصل على خدمة محامي حاذق. "روى بلحة حادثة مشابهة، تعرض فيها صديق له لاعتداء راح ضحيته لكن القاتل فاز بالبراءة لأن محاميه أثبت أن القتيل كان مسلحا و بادر بالهجوم. و سرد صلصة عدة وقائع نال فيها المعتد البراءة أو حكما مخففا لأن القاضي لم يجد دليلا على نية مدبرة".[255] والمساجين في هذه الزنزانة متوزعون في طبقتين، فالذين من الطبقة الثرية في العنبر الملكي (regal ward) و المساجين من الطبقة الفقيرة في العنبر الميري (military ward). "الملكي يعني تاكل و تلبس زي ما أن عائز، والميري تلبس بدلة السجن وتأكل عيش وجبنة وتستغل كل يوم عند بتوع الملكي".[256] والذي عليهم أن يشتغلوا به في السجن هو التنظيف: "لمزيد من الإيضاح حول الفرق بين القطاعين الخاص والعام أضاف الصول أن الشغل المقصود هو تنظيف الزنازين وتفريغ دلاء البول والخراء".[257] فالرواية تسرد تجارب شرف في الزنزانة إذا يتحول من العنبر الميري إلى العنبر الملكي حيث يتعرف على شخصية رئيسية أخرى للرواية، الدكتور رمزي بطرس ناصيف، اللذيأوقع في اتهام كاذب من قبل زملائه لأنه حاول أن يفضح الظلم والاضطهاد والفساد والاستغلال التي تمارسها الشركات المتعددة الجنسية من دفع الرشاوي واختبار الأدوية على المواطن الغير الراضين. وفي الزنزانة يحاول الدكتور "رمزي" أن يعلم المساجين ويخلق وعيهم بهذا الصدد

[255]ابراهيم، صنع الله، رواية شرف، ص 60.

[256]ابراهيم، صنع الله ، رواية شرف46.

[257].نفس المصدر، ص 46

والأمور الأخرى من هذا القبيل. ثم يعرض الدكتور "رمزي" مسرحية في الزنزانة في احتفال عرائس حرب 1973م مستهدف لأن يعلم المساجين أن مصر وصلت هذه الحالة من الركود الاقتصادي بالنتيجة لتحالف مصر لإسرائيل والغرب مما أدى إلى تصعيد الاصطهاد والظلم والفساد في العرب. ولكن المعرض يتدهور إلى اضطراب. فيودع الدكتور في حبس انفرادي. هناك يأخذ في جمع القصاصات من الصحائف والمجلات لكي يضع قلقه وهمه عن طريق الحقائق والوثائق. ولكن محاولاته لتحريض زملائه على الثورة تذهب بلا جدوى. ويختتم العمل و الدكتور رمزي يصيح في حبسه وقد أصبح مجنونا. بينما الشخصية الرئيسية شرف يحلق جسده استعدادا لممارسة جنس مثلي. فهكذا يخضع شرف شرفه للاعتداء، نفس الشيئ اللذي دخل السجن لسبب الدفاع عنه.

التركيب البنائي للرواية :

قد قسم الروائي الرواية ي ثلاثة أجزاء متألفة من تسعة عشر فصلا، مستخدما تقنيات سردية مختلفة. يتألف الجزء الأول من اثني عشر فصلا ويحتل نصف الرواية تقريبا ويحكي قصة "شرف" بصيغة الغائب في فصل، ثم بصيغة المتكلم في فصل آخر بالتناوب. يبدأ الفصل بصيغة الغائب، فسارد غائب يسرد يحكي قصة شرف، و الفصل الثاني يستخدم ضمير المتكلم، هكذا يستمر إلى الفصل الثاني عشر. يفتتح الفصل الأول بالبطل الرئيسي "شرف" و هو هائم في سوق غالي من طراز جديد متشوقا

إلى سلع الأزياء الجديدة من أحذية الماركات الأجنبية ووجبات الشاورما و الهامبورجر. والفصل الثاني يفتتح بشرف وهو في السجن في العنبر المبري و بعدئذ يدور الرواية في السجن. فمن هذا المنطلق تعد رواية شرف في أدب السجون.

وبعد التقنية السردية في الجزء الأول يلجأ صنع الله ابراهيم في الجزء الثاني إلى تقنية التناص والتسجيل حيث يصور الروائي مساوئ المجتمع المصري عن طريق قصاصات وجذاذات من الصحائف والمجلات. يتم تطوير الرواية في هذا الجزء عن طريق بطل رئيسي آخر، الدكنور رمزي بطرس ناصيف. يتألف الجزء الثاني من ثلاثة فصول، من الفصل الثالث عشر إلى الخامس عشر. يتألف الفصل الثالث عشر من قصاصات جمعها الدكتور من الصحائف و المجلات وأخفاها في كيس من البلاستيك في الزنزانة. هذه القصاصات تعلق على ما يلحق بالمجتمع المصري من اختلال و تدهور. و الفصل الرابع عشر يتألف من مسودة الدفاع استعدها الدكتور رمزي لنفسه و لكنها تعلق على الكثير من نواحي المجتمع المصري. والفصل الخامس عشر يقدم مسرحية أعدها الدكتور في احتفال لعرائس انتصار مصر في حرب أكتوبر 1973.

وأما الجزء الثالث فيرجع إلى قصة شرف في السجن ويحكي قصته كالسابق بصيغة الغائب و المتكلم على التناوب و يحتوي على أربعة فصول من الفصل السادس عشر إلى الفصل التاسع عشر. و الرواية تنتهي و شرف في إزالة الشعر من جسده لكي يعد نفسه لممارسة اللواطة.

الخلفية الزمانية للرواية :

تـدور حـوادث الروايـة في التسـعينيات مـن القـرن العشـرين، ثمـة أكثـر مـن إشـارة في الروايـة إلى الفـترة الـتي تـدور فيهـا الأحـداث نسـتطيع رصـدها مـن خـلال سـرد المشـاهد الـتي يمـر بهـا البطـل الرئيسـي "شـرف" و هـو فـتى مراهـق، تـذكر الروايـة أنـه ولـد في سـنة 1974م وكـان في السـن الـتي تفـور فيهـا الـدماء و تغلـى لأقـل لمسـة.[258] وإشـارة أخـرى في الروايـة "توقـف التاكسـي أمـام منـزل مـن الأربعينيـات (تحـيط بـه حديقـة و بضـعة أشـجار)، يتصـدره بـواب مـن التسـعينيات (يجمـع بـين منتهـى الحراسـة و القـوادة)".[259] فالعمـل يـدور في التسعينيات.

والـزمن الـذي يـدور فيـه أحـداث عمـل بمثابـة الخلفيـة لمـا يطـرأ علـى أي مجتمـع. وعلـى أن حـوادث الروايـة تقـع في التسـعينيات إلا أن الروايـة ترصـد للتغيـيرات و التحـولات الـتي لحقـت بالمجتمـع المصـري عـبر فـترات رئاسـة الثـالوث مـن عبـد الناصـر إلى السـادات إلى مبـارك، وخاصـة عـن طريـق تسـجيلات وقصاصـات الـدكتور رمـزي في الجـزء الثـاني مـن الروايـة. ومـما يهـم أن التسـعينيات لهـا أهميـة كبـيرة في تأريـخ المجتمـع المصـري كـان مـن شـأنها أن تـؤدي إلى نقطـة تحـول في القـرن الحـادي والعشـرين. ومـما تتسـم بـه التسـعينيات أن الـرئيس حسـني مبـارك واصـل سياسـياته مـن الثمانينـات أي العقـد الأول لحكمـه بمـا فيهـا اتكـال لابأس بـه علـى المعـونات الماليـة وغيرهـا مـن الـولايات المتحـدة. لا شـك أن خـوض مصـر في

[258] ابراهيم، صنع الله . شرف ، ص8.

[259] نفس المصدر، ص15.

حـرب الخلـيج سـنة 1991 كحليـف للـولايات المتحـدة جلبـت لمصـر فوائـد ماليـة جمـة في شـكل إعفـاء الـديون، إلا أنهـا لم تلبـث أن أخـذت تعـاني مـن التـدهور في ظـروف أمنهـا الـداخلي لسـبب ازدياد في نمـو الجماعـات الأصـولية الـتي أخـذت في تعمـيم العنـف والهجومـات بمـا فيهـا اغتيـال الكتـاب و العقلانيـين وموجـة مـن الحمـلات علـى السـياح والأجانـب. وإضـافة إلى ذلـك، اسـتمر الـرئيس حسـني مبـارك بسياسـة الانفتـاح الـتي جـاء بهـا الـرئيس أنـور السـادات. وفي التسـعينيات مـن القـرن العشـرين نفـذ حسـني مبـارك بـرنامج التكيـف الهيكلي(structural adjustment policy) علـى إشـارة مـن الصـندوق المـالي الـدولي(IMF)، وذلـك أدى إلى طغيـان الفسـاد الاقتصـادي وتركيـز السـيطرة السياسـية والاقتصـادية وتصـاعد في اللامسـاواة والبطالـة والفقـر. وذلـك الـذي نـتج في موجـات عنيفـة مـن المظـاهرات والاحتجاجـات. وكمـا أدت هـذه السياسـة إلى تصـعيد في المسـتوردات الأجنبيـة الـتي اكتظـت الأسـواق المصـرية بهـا، الأمـر الـذي أثـر المجتمـع المصـري مـن نـواحي شـتى، بمـا فيهـا الازدياد في الاسـتهلاك المظهـري، وسـوء الحالـة الماليـة المصـرية، والتضخم المالي وارتفاع السعر وارتفاع تكاليف الحياة لعامة الناس.

القضايا الاجتماعية كما تصورها الرواية :

في البدايـة يجـدر بالـذكر أن روايـة شـرف روايـة واقعيـة جـدا مـن حيـث مواضـيعها، فكـل مـا تتعامـل بـه الروايـة مـأخوذة مباشـرة مـن المجتمـع، وإضـافة إلى ذلـك، تقنيـة صـنع الله

ابـراهيم الوثائقيـة تجعـل الروايـة كأنهـا تعليـق اجتمـاعي وسياسـي علـى واقـع المجتمـع المصـري المعاصـر علـى أسـاس الحقـائق المتواجـدة في الحيـاة اليوميـة. وأكثـر مـا يهـم في هـذا الصـدد أن الروايــة ترصــد، إضــافة إلى الموضــوع الرئيســي – شــرف الفــرد المصــري والمجتمــع المصــري- لمعظـم القضـايا الاجتماعيـة والسياسـية مـن البطالـة والعطالـة، والفقـر والبـؤس والتكـاليف المعيشــية المتصــاعدة، والأصــولية والتطــرف في الــدين والعنــف باســم الــدين، والأزمــات السياسـية والاجتماعيـة والاقتصـادية الـتي جلبتهـا المتطرفـون في فهـم الـدين، كمـا أنهـا ترصـد لفســاد رجــال السياســة والأعمــال و البيــوروقراطيين و إهمــالهم صــالح الطبقــات المهمشــة والـوطن لمصـالحهم الذاتيـة وقلـة ولاء الطبقـة الحاكمـة إلى الـوطن، إضـافة إلى هجـوم العولمـة والاستعمار الجديـد علـى المجتمـع المصـري و العـربي وتواطـؤ الحكـام العـرب مـع القـوات الغربيـة المستعمرة في هـذا. وقـد تسـاعد ضـخامة الروايـة علـى أن تكـون الروايـة مكثفـة بالعـدد الكثـير مــن الشخصــيات الغــير المتمركــزة وهكــذا أن ترصــد للعــدد الكبــير مــن القضــايا. فحينمــا يــدخل شــرف، بطــل الروايــة، الســجن يتعــرف علــى القــاتلين والمختطفــين والمغتصــبين و الســارقين والمتطــرفين وتجــار مهــربي المخــدرات وتجــار الأغذيــة الفاســدة منتهيــة الصــلاحية للاســتهلاك البشــري، والبيــوروقراطيين الــذين قبضــوا علــيهم للفســاد، وضــباط الشــرطة الــذين متورطــون في تهريــب المخــدرات، كمــا أن الروايــة لا تــترك دون الرصــد لمشــاعر الخيــب والإحبـاط بـين الشـباب وكيـف أن فشـل الحكومـة في حـل القضـايا السياسـية والاقتصـادية جعلت الشباب يعانون من التشتت والتشظي والاغتراب .

وربما يليق بأن نعلق على تسمية الرواية ب"شرف". وفي هذا الصدد يهم أن نذكر أنه علاوة على أن الرواية تدور حول شرف أو أشرف عبد العزيز سليمان، إن مواضيع شرف الفرد المصري والمجتمع المصري والكرامة الانسانية والحرية والعدالة الاجتماعية قد تشكل الهم الأساسي لكتابات صنع الله ابراهيم. فلم يكن لتسمية الرواية هكذا أن تكون خالية من الرمز والمعنى، كأنما يريد الروائي أن يقول شرف المجتمع المصري والفرد المصري تحت ضربة من الأجانب الغربيين. فاعتداء جون على شرف يعني اعتداء المستعمرين الأجانب على المجتمع المصري عن طريق آليات السوق الحرة والعولمة. فقد رصد صنع الله ابراهيم في هذه الرواية للاعتداءات على المجتمع المصري. ولما كان معظم الرواية يدور في السجن، يريد صنع الله ابراهيم أن يعبر عن خلال ذلك أن المجتمع المصري خارج السجن كما هو داخله حيث يفقد الانسان الحرية والكرامة.

فيحتل الإسم في طياته معاني كثيرة، مستهدفا الشرف البشري والجسدي للأفراد والوطن. مما يؤكد أن الكفاح للوجود الحر ضرورة ملحة. لذلك فمنذ البداية يأتي شرف في حيز الوجود وهو مستعد لتراجديا الرواية مع أنها لا تبرز إلا قبل أن يجتاز تجارب السجن. هذا، والرواية تدور حول أفكار متعددة، فيليق بنا أن أن نتعامل مع هذه الأفكار المركزية علىحدة لكي يتضح مقصد الرواية الأساسي.

العولمة وسياسة الانفتاح:

بـدأً مـن روايتـه "اللجنـة" قـد شـكلت مشـكلة العولمـة همـا أساسـيا و فكـرة مهمـة في معظـم روايات صـنع الله ابـراهيم. هنـا يجـدر بالـذكر أن صـنع الله ينظـر إلى العولمـة كظـاهرة للاسـتعمار الجديـد والرأسماليـة العالميـة والمشـروع النيـولبرالي. كـل هـذه تشـكل مشـروعا واحـدا غايتهـا الوحيـدة اسـتغلال الـدول الضـعيفة وخاصـة الضـعفاء فيهـا. والـذي يهمنـا في هـذا الجـزء تحليـل مـا لحـق المجتمـع المصـري مـن مسـاوئ و ضـعف وفسـاد وانحـلال قيمـي بسـب العولمـة كمـا تصـورها روايـة "شـرف".مهـم أن الروائـي فـتح الروايـة بمظـاهر العولمـة ذاتهـا، وذلـك في صـورة سـاخرة جـدا. في هـذا الصـدد يليـق بنـا أن نسـأل سـؤالا واحـدا : مـا الـذي سـبب وقـوع شـرف في السـجن؟ هـذا السـؤال مهـم لأن جميـع أحـداث الروايـة ممـا سـوى الفصـل الأول تقـع في السـجن. نجـد الإجابـة علـى هـذا السـؤال في افتتـاح الروايـة حينمـا يبـدأ الكاتـب الروايـة بجملـة سـاخرة جـدا "مـن المؤكـد أن **الحـذاء** لـيس هـو المسـؤل عـن المصـير الـذي آل إليـه أشـرف عبـد العزيـز سـليمان، (أو شـرف كمـا ألفـت الأم أن تنـادي حبـة عينهـا) فقـد كـان مبرمجـا، بجيناتـه الداخليـة و الخار جيـة لمـا وقـع مـن أحـداث. ولا يغـير مـن الأمـر قصـر الطريـق الـذي قـاد مـن "كوتشـي" إلى "جـون"، ولا مـن الأخـير إلى بـؤر أخـرى".[260] ربمـا تخلـق هـذه الجملـة الافتتاحيـة غموضـا وابهامـا وربمـا ينحصـر أثـر هـذه الجملـة علـى إثارة الإعجـاب والضـحك، ولكـن الحقيقـة أن الحـذاء المسـتورد مـع العلامـات الأجنبيـة والماركـات المثـيرة ظـاهرة العولمـة، فالحـذاء المسـتورد الـذي شـرف منبهـر بـه جـدا لم يسـبب وقوعـه في السـجن، ولكـن العولمـة الـتي أسـفرت عـن هـذه الظـاهرات الاسـتهلاكية والـتي لا

[260]نفس المصدر، ص 7.

يقدر أمثال شرف أن يتمتع بها دفعت به إلى السجن. ثم إن صنع الله ابراهيم يؤكد أن المصير الذي آل إليه شرف لم يكن له من بد منه، فقد كان مبرمجا له، فلا محالة لأمثال شرف أن يؤلوا إلى هذا المآل. الذي يريد الروائي أن يقول أن مشروع العولمة الذي يتم تنفيذه عن طريقللسياسات النيولبرالية قد أدت إلى إفقار أغلبية الناس، بينما أنٍ الطبقة الثرية التي ادخرت ثروةلا بأس بها منغمسةٌ في الاسنهلاك المظهري.

ويتم تعميم هذه الاستهلاكية عن طريق ترويعها من خلال الإعلانات عبر أجهزة الإعلام مما يحث حتى الفقراء على اشتهاء هذه السلع الاستهلاكية الفاخرة. ولكن الحقيقة أن هذه الطبقة لا تسطيع أن تتحمل تكاليف هذه السلع، و لكن الرغبة الشديدة لديهم لهذه الأشياء قد تجلب لهم المصائب. "صحيح أن كوتشي صارت رائحته لا تطاق وبليت مقدمته لكن هذا لم يكن السبب الذي دفه إلى التوقف أمام الواجهة الزجاجية المضاءة بمصابيح اسبوت لائت. السبب الأصلي أن **كوتشي كان أخضر اللون** بينما هو مفبل على **المرحلة السوداء الذي وضع أساسها برأس حلق على المودة الانجليزية** مع مقدمة مفلفلة".[261] هناك سؤال مهم جدا لا بد أن نسأل : على أي أساس يدعي صنع الله ابراهيم أن المصير الذي آل إليه شرف كان مبرمجا له؟. الإجابة على هذا السؤال يأتي من نظريته السياسية. لكون صنع الله ماركسيا بوسعنا أن نفترض أنه يدعي أن مغزى العولمة الأصلي عولمة الاقتصاد الذي يدعمه الاستعممار

[261] رواية شرف، ص7.

الجديد، فالذي هو يعني أن العولمة تحول دول العالم الثالث إلى أسواق تحفلها بالسلع الاستهلاكية من دول العالم المتقدم. ثم إن العولمة تعمل عن طريق السيطرة الايديولوجية، فلما كانت الدول المتقدمة تتحكم بوسائل الإعلام إنها تستخدمها لتحقيق أغراضها، نحو مراقبة مشاعر وأهواء الناس وتشويقهم إلى السلع الاستهلاكية المستوردة وعن طريق جعل المظاهر والأزياء علامة المكانة الاجتماعية. فشرف وأمثاله من الطبقة المتوسطو مولعون بهذه السلع. لذلك فحينما تبدأ الرواية نجد شرف حائما هائما في سوق من السلع مع الماركات الأجنبية.وإذا كان شرف لا يقدر على اشترائها و لكنه مولع بها إنه كان مبرمجا إلى هذا المآل.

نظرة على االمجتمع المصري من خلال شرف

فيما سبق قال الباحث إن صنع الله ابراهيم يجادل أن المجتمع المصري خارج السجن ليس مختلفا عنه داخله. و لما كانت الرواية تتميز بكثافة الشخصيات فإنه بوسعنا أن نعلق على ما يدور في المجتمع حسب ما تسرد الرواية. يقدم صنع الله ابراهيم قصته بخلفية مكانية تتسم بالضيق والقبح المكاني الممزوج بالتدهور النفسي والخلقي لحياة الشخصيات كما تمثلها "حيز" السجن. وقد يمد هذا الحيز المكاني في كشف وقاحة الحقائق الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للمجتمع المصري خاصة وحقائق العرب عامة. و تختلط بهذا الحيز المكاني حركة القوات الخارجية العالمية التي تغلب على العالم

العربي. وأهمية الحيز المكاني تنحصر ليس فقط في أنه يمثل خلفية الأحداث ولكن أيضا لأنه من العناصر التي تشكل الشخصيات حيث أن الحيز المكاني آلية الفهم والإدراك وذريعة للحصول على العدالة والتعلم عن العالم الخارجي.

عموم الفساد من أقسام كثيرة

بقراءة واحدة في الرواية يتجلى لنا العدد الكبير من القضايا التي يعاني منها المجتمع المصري، منها الجرائم و الفساد والفوضى الخلقية والاستغلال السياسي والاقتصادي وممارسة الطرائق الغير الخلقية في الأعمال التجارية . مهم جدا أننا إذا جردنا الرووايـة من شخصية شرف الذي يلعب أيضا دور السارد في السجن -- في السجن إنه بمثابة عين تشوف وتكشف كل شيئ يدور حوله-- يبدو كأن الرواية ترصد للجرائم. ولما كانت الرواية تقع أحداثها في السجن فإن هذا منطقي. المغزى أن صنع الله ابراهيم يريد أن يقول أن المجتمع المصري منغمس في الجرائم و أن جميع طبقاته منغمسة فيها. والجرائم تضم الخطيرة منها من القتل والاختطاف والاغتصاب والاعتداء وكذلك التافهة من مثل السرقة و الغش. كما أن شرف، بطل الرواية، يشاهد في السجن الاستغلال والعنف واعتداء الجنسية المثلية والحب السحاقي. في السجن يحاول شرف أن يتعرف على حقيقة هوية المسجونين فيتكشف أن العدد الكبير منهم من القاتلين و لمعتدين والمغتصبين والمختطفين ومهربي المخدرات وكذلك تاجري المخدرات. يتكشف عليهم صنع الله من بداية حياته في السجن. فالذين معه في السجن يضم سارقا بلحية كثة.

يحاول شرف أن يعلم حقيقة هويته من كعب دائر. " أومأت إلى رجل وقور بلحية كثة تتجلى على صدره و قلت : من الجماعات، مش كده؟"(ن جماعة إسلامية، أليس كذلك؟). فالذي يتعلم، "ده سواق على نقل سوزوكي، حرامي". ويزيد كعب دائر من وصفه " اتفق مع تاجر ينقل له كمية بيض و في الطريق هدده بموس و أخذ منه البيض و خمسمائة جنيه".[262] وتعريف الباقين الذين يتعرف عليهم شرف هكذا: "سائق سفير أعطاه شيكا بسبعة آلاف دولار لصرفه من البنك فصرفه و تررك السيارة و سافر إلى الأردن بحثا عن لعمل و عندما فشل عاد فقبض عليه في المطار، و مٍ دير فرع في مؤسسة حكومية لتعبة الأغذية وجدوا عنده كميات كبيرة من الشاى الذي انتهت مدة صلاحيته و أقر بأنه تلقى تعليمات من رؤسائه بإعادة تعبئتها في عبوات أخرى ببيانات جديدة، جزار ذبح عجلا مريضا في المقابر، عاطل ينتظر الترحيل إلى الزقازيق حيث اغتصب فتاة صغيرة هاربة من بيتها عمره 15 سنة و إثنان من أصدقائه، كهل بدين في ثياب متسخة قبض عليه لأنه يبيع مكرونة في عربة متسخة".[263] والغريب أن الناس يستخدمون آليات الدين للفساد. يتعرف شرف على جماعة ثمانية أشخاص متهمين بالاعتداء على أعوان الشيخ عبد الكافي، والحقيقة أن أعوانه كانوا يجمعون التبرعات لمسلمي البوسنة قائلين أنهم يفعلون ذلك بتكليف من وزير الأوقاف و شيخ الأزهر، و لما اعترض هؤلاء لعدم صحة هذا الزعم بعد التأكيد من الوزارة والأزهر اهتدى أنصاره عليهم وألقي

[262] شرف ص 27.ابراهيم، صنع الله

[263]نفس المصدر،ص 27&28.

القبض على الضحايا بدلا من المعتدين.[264] والرواية تحفل بأمثال الذين يستخدمون الوسائل الغير الخلقية في ممارسة الأعمال. فشرف يتعرف على قصة الحاج صاحب الكباب، "فهو تاجر أسماك مستوردة وجدوا في ثلاجته كمية من الماكريل منتهية الصلاحية زكان ينوي تعديل تواريخ لإنتاجها و طرحها في الأسواق".[265]

وقد يكتشف شرف عن طريق الحوار فيما بين المسجونين أن الانحراف الاجتماعي والجنسي وكذلك جريمة القتل تسود المجتمع المصري. ومن مظاهر عامة أن يرافق خيان الزوجين القتل. "قال صبري الأسبوع التي فات واحد ذبح مرأته عشان لقاها نايمة مع واحد".[266] والمثير في هذا الصدد أن القاتل يفوز بالبراءة. ومهم أن صنع الله يقول أن نسق العدالة في مصر مختل به لأنه ليس موضوعيا، فعلى يد واحدة تلعب الحالة الاقتصادية دورا هاما وعلى أخرى تلعب الأيديولوجيا دورها في الحصول على العدالة. في هذه القضية فاز القاتل بالبراءة لأن زوجته كانت قد خانت.[267] خلال الحوار يتعلم شرف أن السجين "سامبو" متهم بجريمة قتل خفير، قتله سامبو وزوجة الخفير حينما و جدهما في بيته يخونان[268].

[264]نفس المصدر، ص 35.

[265]نفس المصدر، 35.

[266]نفس المصدر، ص60.

[267]أيضا ص60.

[268]أيضا ص61.

بينما كانت الحالة الاقتصادية تلعب دورها في الحصول على العدالة فإنها أيضا تلعب دورا مهما في تفشي الجرائم كما أنها تثير السخط والحقد في الطرقة الفقيرة، فمثلا بطشة وأصحابه لجؤوا إلى السرقة بسبب الحالة الاقتصادية السيئة. وكذلك يتعرف شرف في السجن على "مجاهد سليم". مجاهد سليم شاب من الطبقة المتوسطة، قتل ابن سيدة رفقت عليه وأنقذته من الكلاب كما وفرته وظيفة في بيتها. مجاهد سليم يناول شرف جريدة فيها قصة قتله ابن السيدة بعنوان "ضاعت القيم وجاء الحقد ليحصد الخير". وفي الجريدة أن الجاني – مجاهد سليم- "اعترف بجريمته وبررها بأن الحقد استولى عليه عندما اكتشف أن الكلب يأكل وجبة أسرة كاملة وأن الدراجة البخارية التي يلهو بها الطفل بثمن خمسة أفدنة".[269]

العنف الديني في العصر الحديث

وقد تصور الفصول الأربعة الأخيرة – من السادس عشر الى التاسع عشر حيث استخدم الروائي الاسسترجاع والاعترافات لكي يصف الشخصيات بما الذي سبب وقوعها في السجن- كيف أن الجرائم والفساد والانحطاط الخلقي تؤزم المجتمع المصري. والمهم أن جرائم القتل يغلب في هذا الفصل وقد يتم تصوير هذه الجوانب عن طريق الفلاشباك والاسترجاع، بما فيه الخلفية الاجتماعية والاقتصادية والأيديولوجية للمسجونين وكذلك تحليلهم النفساني على سبيل المثال حينما يريد المأمور أن يُرسل

[269] نفس المصدر، ص83.

الـدكتور رمـزي إلى التأديـب فيجـده مكتظـا بأصـحاب اللحـى[270] ممـا يـدل علـى أن المجتمـع المصـري في التسـعينيات كانـت تعـاني مـن العنـف الـديني والأصـولية والاضـطرابات الطائفيـة. وقـد أضـاء الروائـي الظـاهرة المتصـاعدة للعنـف الـديني مـن بدايـة الروايـة بـذاتها. فكـان هـذا ميـزة خاضـة في الجـزء الأول مـن االروايـة نفسـها. فمـع تطـور السـرد يطلـع القـارئ علـى أن الشـيخ عصـام يتمتـع بميـزات خاضـة في السـجن ولـه نفـوذ في تصـرف الأمـور في السـجن- مـن مثـل مراقبـة صـور المجـلات أو الاعـتراض علـى بـرامج التلفزيـون مـن قبيـل الأسـباب الخلقيـة. والـذي يهـم في هـذا الصـدد أن الشـباب مـع التعلـيم الجـديث أكثـر انسـياقا إلى التطـرف والعنـف. في السـجن يحكـي الشـيخ عبـد الفتـاح كيـف أن أحـد أبنـاء قريتـه الـذي عـاد مـن القـاهرة بعـد أن أتم دراسـته في كليـة الآداب أخـذ في الـدعوة إلى التطـرف. إضـافة إلى دعوتـه إلى إقامـة الصـلاة و الفـرائض الأخـرى كـان يـدعوا إلى مـا سـليق بالإسـلام بأي صـلة. "بـدأ يعتلـي منـبر المسـجد قبـل وصـول الشـيخ فيـدعوا للجهـاد ضـد الحكـام ابتـداء مـن الخفـراء إلى تحـريم التعامـل مـع النصـارى و مـع الجمعيـة الزراعيـة و يهـاجم خـروج الفتيـات للدراسـة و ينـادي بالامتنـاع عـن أكـل الخيـار و الباذنجـان".[271] ولمـا اتهمـه شـيخ القريـة وإمـام مسـجد القريـة بالتطـرف في فهـم الشـريعة اتهمـه الشـاب بالتواطـؤ مـع الحكـام. والمسـألة لا تتوقـف علـى هـذا، فـإن الشـاب اكتسـب أنصـارا مـن الشـبان والعـاطلين، ثم أخـذ الجانبـان في تبـادل الاتهامـات وأفـتى الشـباب عـدم جـواز الصـلاة في مسـجده لأنـه مسـجد ضـرار، وبعـد

[270] نفس المصدر ص461.

[271] راية شرف ص 154.

شورى قرر الشباب اعتبار الشيخ مرتدا وأباحو دمه مما أدى إلى التصادم بين الفريقين. لا يسرد الروائي هذه الحوادث الغير المتمركزة لغرض سرد الحكايات فقط، بل يتم سرد الحكايات مع الخلفيات والرمزية. وتكمن هذه الحوادث في طياتها معاني الشعور بالفشل والإحباط والخواء النفساني وكذلك النقص في سياسات الحكومة الاقتصادية والاجتماعية وعدم كفاءتها في الاتصال مع الشباب. فاستطاع هذا الشاب أن يكسب العدد الكبير من الشبان كأنصاره لأنهم عاطلون ويعانون من البطالة. "اكتسب الشاب أنصارا من الشبان و العاطلين الذين أغلقت أبواب الهجرة في وجوههم بعد حرب الخليج".[272] وهنا يهم أن نسترعي الانتباه إلى أن صنع الله ابراهيم كثيرا ما يوظف الرمزية إذا أراد أن يسخر بظاهرة اجتماعية. فحينما ينادي الشاب المذكور فيما أعلاه 'بالامتناع عن أكل الخيار و الباذنجان' فالذي يعني الروائي أن الأصوليين ينقصون الموضوعية والوضوح في فهم الأمور و ليس لديهم برنامج بالنسبة للمجتمع والاقتصاد والسياسة. لذلك حينما يتعلم شرف أنهم ينادون بالامتناع عن أكل الخيار والبازنجان ويبدي دهشته على هذا يجيب الشيخ عبد الفتاح أن أفكارهم وحشة لا يفهمها الناس. "أبديت دهشتي لمسألة الخيار والبازنجان وسألته عن السبب فاحمر وجهه وتحاشى النظر إلى وهو يقول: لأنها بتجيب أفكار وحشة".[273] إن رواية شرف أصعب روايات صنع الله ابراهيم تحليلا لأنه استخدم تقنيات ومستويات سردية معقدة. لا شك أن الغرض الرئيسي لهذه الرواية

[272] نفس المصدر،ص154.

[273] نفس المصدر ص 154.

تحليل المجتمع المصري وتقديم ما به من مساوئ ولذلك الغرض استخدم صنع الله تقنيات عديدة تجريبية. فهذه الرواية مكثفة بمستويات السرد الاسترجاعي(retrospective) التي تجمع بين الحاضر والماضي التي بمثابة الاعتراف. فكل مسجون يحكي قصته مسلطا الضوء بالتفصيل على الحوافز والظروف التي دفعته إلى ارتكاب الجريمة، لكي يخفف من من معاناته ويساعده على التغلب على التعذيب والآلام التي في صدره. ويعتمد الرواي على هذه الحكايات إلى حد كبير لإخصاب الجوانب الأخرى من قصته لكي يصف الواقع المأساوي الذي يتميز به كل جانب من جوانب حياة الناس اليومية من الاقتصادي والاجتماعي والسياسي . فاعترافات المتهمين والفلاشباكات مع التفاصيل التي يتم تقديمها على المستوى الوثائقي قد توضح الأسباب الأصلية للانحطاط الشامل للشخصيات الروائية. هذا المستوى السردي الذي يستخدم فيه صنع الله ابراهيم تقنية الفلاشباك و يخضع الشخصيات للاعترافات يساعد في تسليط الضوء على الحوافز الاجتماعية و الاقتصادية والنفسية التي تدفع بهم إلى الى ارتكاب الجرائم وكذلك ما الذي يجتاز به المجتمع. والاسترجاع يقوم بتسليط الضوء على ما فات في الماضي، " تسليط الضوء على ما فات أو غمض من حياة الشخصية في الماضي، أو ما وقع لها خلال غيابها عن السرد[274]. عن هذا الطريق استطاع الروائي أن يسلط الضوء بقدر من التفصيل على العدد الكبير من شخصيات الرواية مما يسلط الضوء على القضايا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في المجتمع المصري. ربما يمثل الفصل الخامس مثالا

[274]، ص18.زيتوني، لطيفة، معجم مصطلحات نقد الرواية

جيدا لهذا حيث يقدم الروائي قصة الكثير من الشخصيات وهم في المحكمة، بما فيها سبب وقوعهم في السجن وماضيهم وكذلك مكانتهم الاجتماعية وخلفيتهم الدينية وظروفهم الاقتصادية. في المحكمة يلتقي شرف طالبا في المعهد الفني قد سجن لأنه قتل أخته إذ أنها كانت على علاقة مع شاب[275]. في هذا الفصل القصة التي هي أكثر إثارة و إنارة على الحالة الاجتماعية المصرية قصة الصبي "حجاج". حجاج ينتمي إلى أسرة من الطبقة المتوسطة، أبوه يتاجر في إبر الخباطة. ذات مرة يدعوه "حسن ورافة" مقدما نفسه على أنه صاحب محل و أنه يريد كمية كبيرة من بطاقات الإبر، و بعد إمضاء الوقت حتى المساء يذهب به إلى بيته ، ثم يختطفه إلى مكان غير معلوم، و يستمر يستغله لأعمال و جرائم كثيرة من السرق و النهب و تهريب المخدرات. هناك يتعلم حجاج أن حسن ورافة يستغل هكذا العدد الكبير من الصبيان. وقع حجاج في السجن حينما ألقت الشرطة القبض عليه خلال تهريب المخدرات[276]. و المثير أن حجاج لا يحصل على الحرية من الاستغلال حتى بعد ذلك، فيستغله "الحاج رأفت" في السجن و يجعله يعمل له جميع الاعمال التافهة.[277] و الذي يهم، إضاقة إلى ذلك أن الدولة لا يقوم بأي إجراءات ضد المستغلين. و الذي يريد صنع الله هو أن المجتمع في الحقيقة مستغل، الأقوياء يضطهد الضعفاء كما أن الطبقة الحاكمة تستغل الطبقات الضعيفة.

---

[275]شرف ص93& 94

[276]ايضا ص 95&96.

[277]أيضا ص522.

قال الباحث فيما أعلاه أن الفصول الأربعة الأخيرة ترصد تقريبا لجميع القضايا و المساوئ المتواجدة في المجتمع المصري. يتطور السرد في هذه الفصول على مستوين، معظمه يعتمد على الاسترجاع حيث تعترف الشخصيات خلال الحوار فيما بينهم بجرائمهم و الأسباب وراءها مع ذكر خلفيتهم الاجتماعية و الاقتصادية أو شخص آخر يسرد لشرف الاسباب وراء دخول مسجون في السجن، و يتكون المستوى الثاني للسرد من خطابات الدكتور رمزي الذي يحث فيها المساجين على مقاومة الفساد و الظلم و المطالبة بحقوقهم. المستوى الثاني هنا- خطابات الدكتور رمزي- يمركزعلى الفساد السياسي و الاقتصادي بصورة أن خطاباته تصبح بمثابة الربورتاج على الاستغلال في المجتمع المصري، و خطابات الدكتورأيضا ترصد للحالة السيئة في السجن وعدم تطبيق لائحة السجون، "... لماذا تقبلون معاملة الحيوانات؟ لماذا تتركونهم يسرقونكم و يضطهدونكم؟ لماذا لا تطالبون بحقوقكم؟"،...."طبقا للائحة السجون لكل واحد فيكم الحق في رعاية صحية كاملةلكن السجن به طبيب واحد يأتي مرة واحدة في الأسبوع لمدة ساعتين و لكي يفوز الواحد منكم بلقائه لا بد أن يدفع علبة سجائر للتومرجي"، ..... "لماذا نقبلون استغلال النوبتجية و الحراس؟"[278]. و المثير أن عامة الناس لا يفهمون استغلالهم و الذين يفهمون يجدون أنفسهم غير قادرين على المبادرة لأنهم يظنون أنهم لايستطيعون أن يغيروا الشؤون. لذلك على خطابات الدكتور رمزي يسخر سجين به و يعلن بصوت جهوري: "الدكتور رمزي عاوز يروح لامه يا جدعان" و سجين آخر يقلد

[278]نفس المضدر ص464.

عربية الدكتور الفصحى و يكرر نفس الاستنتاج " الدكتور رمزي يريد أن يذهب إلى أمه يا رجال"[279]. تقاطع خطابات الدكتور تطور الرواية في كل من الفصول الأربعة و تتعامل خاصة مع فساد الطبقة الحاكمة السياسية و الاقتصادية منها. " هل تعرفون أن 60 بالمئة من ثمن الدواء في مصر يذهب إلى الموزع و المستورد؟ و أن الدواء الذي تدفعون فيه الآن ثلاثة جنيهات ستدفعون فيه عشرين بعد تطبيق الجات؟ هل تعرفون أن 55بالمائة من الاطفال مرضى باكبادهم و أن عدة أفراد لا وطن لهم ولا ضمير كدسوا ثروات بالملايين من استيراد الأطعمة الفاسدة و رش المبيدات"[280]. يهم أن نذكر أن أيديولوجيا الروائي صنع الله لبراهيم تلعب دورا مهما في جميع كتاباته، فلكونه ماركسيا إنه يدعي أن الاقتصاد يكون القاعدة في أي تركيب اجتماعي و يلعب الدور الرئيسي في هيكل السلطة، فالذي يحتل قوة الاقتصاد يحتل أيضا الدولة و السياسة و السلطة. "- يا غلابة يا مساكين.. هل تعلمون أن خمسة من أهالي القرية يشغلون أهم المناصب الإدارية بها، من العمودية إلى الى إدارة الجمعية، هم أنفسهم تجار الأسمنت و مواد البناء"[281]. "- يا غلابة يا مساكين.. هل تعلمون أن ثمانية تجار يسيطرون على سوق الخضر و الفاكهة، و اربعة على تجار اللحوم المستوردة و سبعة على البقالة و ثلاثة على سوق السمك"[282]. والذي يريد صنع الله هو أن النظام الراهن فيه عيب، حيث أن طل من

---

[279]نفس المصدر ،ص 465.

[280]نفس المصدر، ص467.

[281]نفس المصدر، ص473.

[282]أيضا، ص 473.

المستهلكين و المنتجين صحيته و التجار هم الذين فقط يستفيدون في هذا النظام. "... و أن المستهلك ليس هو الضحية الوحيدة .. المنتج ايضا من الضحايا.. فالمزارع و الصياد لايحصلان على أطثر من نصف حقهما و يذهب النصف الآخر لتجار الجملة"[283].

وأما المستوى الأول حيث يوظف الروائي تقنية الاسترجاع و الاعترافات فينير لنا عموم و تفشي الجرائم بين الناس كما أنه يسلط الضوء كيف أن الناس و خاصة الشباب يعانون من مشاعر الإحباط و الفشل و التشظي، مثلا الحاج شوقي الذي في زنزانة شرف ُ سجن للاتجار في هيروئين لتغطية نفقاته. " كان تاجرا ناجحا .. إلى أن سقط في الإدمان و أهمل عمله فتكاثرت عليه الديون و اتجه إلى الاتجار في الهيروئين لتغطية نفقاته"[284]. يهم أنه بوسعنا أن ..

[283] ايضا، ص 473.

[284] نفس المصدر ،ص474.

الفصل الثالث

المجتمع المصري قبل ثورة 23 يوليو 1952

كما تعكسه عين سارد طفل

في رواية "التلصص" لصنع الله ابراهيم

رواية "التلصص" لصنع الله ابراهيم

ومما سبق في هذا البحث يتضح لنا أن المصاعب الاقتصادية و تكاليف المعيشة و مشاكل الحياة من أجل السياسات الاقتصادية السيئة قد تكون الهم الأساسي و الفكرة المركزية في معظم روايات صنع الله ابراهيم. فمن هذا المنطلق تحتل رواية "التلصص" مكانة مميزة بين روايات صنع الله ابراهيم لأنها أقل سياسية و أكثر ذاتية بالنسبة إلى معظمها حيث أن هذه الرواية تلج العالم الذاتي للبطل السارد الطفل و أبيه وعلاقتهما مع الجيران. و الذي أكثر أهمية في هذه الرواية أنها مكتوبة في لغة غنائية موسيقية مشوقة جدا في جمل قصيرة جدا. خلال قراءة الرواية يبدو كأننا أمام صورة فوتوغرافية أو فيلم وثائقي. الرواية مكتوبة في جمل قصيرة جدا مع الاعتناء البالغ بالرنة و الموسيقي.

صدرت رواية "**التلصص**" عام 2007 و عكس معظم رواياته الأخرى تدور الرواية في الأربعينيات من القرن العشرين فهي أول رواية لصنع الله ابراهيم- ما عدا رواية "العمامة و القبعة" التي ترصد للحملة الفرنسية على مصر - تعكس المجتمع المصري قبل ثورة 23 يوليو لسنة 1952.يرسم الروائي في هذه الرواية مصر الأربعينيات من القرن العشرين من خلال عين طفل في التاسع أو العاشر من عمره يعيش وحيدا مع أبيه بينما تتلقى أمه العلاج النفسي في مستشفى نفسي.

وعلاوة على موضوع الرواية إن هذه الرواية لها مكانة مميزة بين روايات صنع الله ابراهيم و الرواية العربية عامة من حيث التقنية السردية أيضا. فالرواية تتبع تقنيات السرد الحداثية. منذ صدور روايته "تلك الرائحة" قد جرب صنع الله ابراهيم بالتقنيات و الأساليب المتنوعة التي في معظم الأحيان أدت إلى المناقشات الحادة بالنسبة إلى تجديده في الشكل و المضمون. فنستطيع أن نقول أن صنع الله ابراهيم قد طور عبر 50 سنة مشروعا روائيا فريدا ينتمي إليه. فشأن رواياته البدائية من مثل " تلك الرائحة" و "نجمة اغسطس" قد استخدم صنع الله ابراهيم التقنيات الحداثية في رواية "التلصص" من نحو الجمل القصيرة الحادة التي تكشف أكثر مما يريد السارد، والمونولوج الداخلي الذي يتم استخدامه لكشف القناع عن الأحوال النفسية للبطل، والأحلام والاسترجاع (الفلاشباك) وتيار الوعي التي كما يبدو تبدي عن لا مبالاة الراوي / السارد عما يحدث حوله و لكن تترك آفاق النص الروائي مفتوحة للقراء كي يستطيعوا التأمل في أحداث الرواية و التجاذب معها كما نرى في رواية "الغريب" (The Stranger) لألبرت كامو"، أو رواية "المحاكمة" (The Trial) ل"فرانز كافكا"[285].

والذي يسترعي الاهتمام في الأسلوب أن صنع الله ابراهيم لجأ إلى استعمال فعل المضارع بدل الماضي للدلالة على سرد الأحداث. "و هذا أسلوب وارد في اللغة الفرنسية présent de narration أكثر منه في اللغة العربية. و أعتقد أن الكاتب

[285] Dalia Said Mustafa (2011) Son'allah Ibrahim's al-Talassus: The politics of modernity in Egypt through the child narrator's lense, Journal of Postcolonial Writing, 47:4, 416-427, DOI: 10.1080/17449855.2011.590317.

أراد بـذلك تقريـب الـذكريات القديمـة (أربعينيـات القـرن العشـرين بخاصـة) مـن زمـن القـارئ و تقصـير المسـافة بينهـا و بينـه، كأنـه بـذلك يختـزل الـزمن و يعطيـه بعـدا حيـويا و نابضـا و كأنـه بـذلك يخلـق أيضـا حميميـة بـين الطفـل و الـراوي"[286]. والبنيـة السـردية في هـذه الروايـة شـيئ مهـم يلفـت انتباهنـا إليـه.فالروايـة ثنائيـة البـنى السـردية، و كلتـا البنيتـين السـرديتين تسـتخدمان الفعـل المضـارع. ولمـا كانـت الروايـة قائمـة علـى الـذكريات و التـذكر فـإن اسـتخدام الفعـل المضـارع أليـق و أكثـر انسـجاما مـع الروايـة كـأن الروائـي يقـول " أنا لا أحكـي عـن زمـن مـاض، بـل أنا انتقلـت إلى الماضـي بكليـتي لأحـيى فيـه".[287] و فيمـا يتعلـق بالبنيتـين السـرديتين فواحـدة بحـرف عـادي و الأخـرى بحـرف غـامق. و الأولى تتنـاول الأحـداث الـتي تقـع وقـت السـرد و الثانيـة ذكـريات عارضـة يتـذكرها الطفـل مـع أمـه الغائبـة، أو مـع أشخاص و أحداث مرت به في ماضي يسبق به زمن الحكي

ومـن ناحيـة تقنيـة السـرد تتبـع الروايـة نفـس الأسـلوب الـذي اتبعـه الروائـي في معظـم رواياتـه فيـتم سـرد أحـداث القصـة بصـيغة المـتكلم (homodiegetic narration) حيـث يشـارك السـارد كشخصـية في الروايـة، و حينمـا يسـتعمل ضـمير الغائـب، في هـذه الحالـة أيضـا السـارد الـذي هـو شخصـية رئيسـية وهـو الـذي يسـرد القصـة

[286]دكتور. جمال شحيد، الذاكرة في الرواية العربية المعاصرة، ص225.

[287]ناعوت، فاطمة. https://aljaml.com

فاطمة ناعوت شاعرة و صحفية و مهندسة مصرية ولدت في القاهرة عام 1964، و اشتهرت بالنسوية و حقوق الحيوان.

عـن الآخـرين. ففـي روايـة "التلصـص" يتحـدث الطفـل السـارد عـن نفسـه بصـيغة المـتكلم و عن أبيه بصيغة الغائب.

تتوزع الرواية في أربعة أجزاء و أربعة و ثلاثين فصلا غير معنونا.

.رواية "التلصص" بين الذاتية والسياسية

والـذي يهـم ذكـره في هـذا الصـدد أن السـرد يحمـل مميـزات تمـاهي بحيـاة صـنع الله ابـراهيم. في كثـير مـن النـواحي يمكـن للقـاري أن يقـرأ الروايـة كسـيرة ذاتيـة إلا أن كلمـة الروايـة علـى الغـلاف هـي مـا تضـمن لـه فنيـة العمـل. في هـذا الصـدد يقـول "بـول استاركي"(Paul Starkey) صاحب Sonallah Ibrahim : Rebel with a Pen الـتي صـدرت عـن مطبعـة جامعـة ادينـبرج (EdinburghUniversity Press): إن العمـل معنـون ب"روايـة" علـى الغـلاف، ولكنـه شـأن الكثـير مـن رواياتـه السـابقة، يلـتهم مـن تجـارب الروائـي الذاتيـة، علـى أنـه لـيس بسـيرة ذاتيـة في معـنى الكلمـة[288].و الكاتـب نائـل الطـوخي يعتقـد أن التمـاهي بـين أحـداث الروايـة و الحيـاة الشخصـية للكاتـب قويـة جـدا. فيقـول "لايمكـن قـراءة روايـة التلصـص لصـنع الله إبـراهيم مـن دون السـؤال عـن مـدي التمـاهي بـين أحـداث الروايـة وبـين الحيـاة الشخصـية لكاتبهـا. في الروايـة كافـة التفاصـيل الـتي تقطـع بأن الحـديث هـو عـن ذلـك الطفـل الـذي أصبح فيمـا بعـد واحـدا مـن أهـم كتـاب جيلـه. كـان هـذا هـو السـؤال الأساسـي الـذي طـرح

[288] Starkey, Paul, Sonallah Ibrahim: Rebel with a Pen,Pg.171.

علي صنع الله في الندوة التي عقدت لمناقشة الرواية مؤخرا في ميريت، طرح السؤال أكثر من مرة وبأشكال مختلفة. كان صنع الله يؤكد علي أن كلمة "رواية المسجلة علي غلاف الكتاب هي ما تضمن له فنية العمل. وذلك بالمقارنة بعمل آخر وهو يوميات الواحات الذي يحتوي بعض المعلومات الواردة في التلصص بشكل تسجيلي مجرد. يقول صنع الله: لم أكتب أن يوميات الواحات رواية. أما في "التلصص فكتبت ويضيف أن الصورة علي غلاف الرواية هي صورة أبيه، أما الطفل الذي معه فقد يكون هو صنع الله، ولكنه قد يكون شخصا آخر من العائلة أيضا"[289].

فتعتبر هذه الرواية بصورة عامة أقل سياسية و أكثر ذاتية من رواياته الأخرى إلا أنها لا تخلو من التأريخ و السياسة كليا لأن الروائي قد استخدم الظروف السياسية والاجتماعية و الاقتصادية كخلفية تدور حولها الرواية. تدور الرواية في نهاية الأربعينات من القرن العشرين- أي أيام الملكية و هي في حالة الاحتضار و القوات البريطانية لا تزال تتحكم بالسياسة المصرية و لكنها أيضا في التراجع و الجذوة الثورية ضد الملكية و الغيظ ضد الانجليز في أعلى قمتهما. و تلك فترة كان صنع الله ابراهيم نفسه حينها في العاشرة أو الحادي عشرة من عمره. صدرت الرواية عام 2007م من "دار المستقبل العربي" و تحتوي على 300 صفحة. تفتح الرواية في سنة 1948 و تللك سنة نكبة فلسطين التي حارب فيها العرب و الصهاينة في فلسطين بعد إعلان دولة اسرائيل. قبل أن تبدأ السرد الروائي يذكر الروائي الأوضاع السياسية في مصر كخلفية للرواية. وإن

[289]الطوخي، نائل، الحوار المتمدن، العدد 1899- 2007.

الخلفيـة تحتـل أهميـة كبـيرة لهـذه الروايـة. فالجـدير بأن ننقـل هنـا: "القاهـرة 1948. جيش الإحتلال الإنجليزي ينتقل إلى قناة السويس. الأحكام العرفية مطبقة. الجيش المصري يدخل فلسطين بعد إعلان دولة اسرائيل. الغـــــــــــلاء ومغامرات الملك النسائية همـــــــــا حديث الشارع. مظاهـــــــــرات الطلبة واعتصامات رجال الشرطة والممرضين. الإغتيالات السياسية ومحاآمة أنور السادات. قنابل الأخوان المسلمين ومطاردة الشيوعيين . أم آلثوم في حفلتها الشهرية بمسرح الأزبكية. أغاني محمد عبد الوهـــــــاب وفريد الأطرش وليلي مراد وأسمهان. أفلام يوسف وهـــــــبي وحسين صدقي ومحمد فوزي وتحية كاريوكا وسامية جمال"[290].

القصة

يـتم سـرد الروايـة مـن خـلال طفـل في العاشـر أو الحـادي عشـر مـن عمـره و هـو أيضـا بطـل الروايـة. ليسـت الروايـة إلا سـردا لأحـداث يوميـة، فشـأن جميـع رواياتـه الأخـرى تتكـون روايـة "التلصـص" مـن حبكـة روائيـة ضـئيلة جـدا. في الحقيقـة يمكـن أن نقـول إنهـا أقـل قليـل في طبـاع الحبكـة الروائيـة مـن معظـم رواياتـه الأخـرى[291]. تتبـع الروايـة نمـو طفـل يعـيش في الوحـدة و الاغـتراب وقلمـا يمتـزج بأولاد الجـيران في وترسـم مدينـة يـنعكس تـدهور بنيتهـا الجسـدية و الاجتماعيـة في اخـتلال الحيـاة العائليـة لأسـرته. حيـث أن في غيـاب أمـه، يلعـب أبوه العجوز الذي يعاني من الأمراض دورا رئيسيا في حياته.

---

[290] ابراهيم ، صنع الله، رواية التلصص، ص1.

[291] Starky, Paul, Sonallh Ibrahim: Rebel with a Pen, pg175.

وفيما يتعلق بالقصة فإن الرواية تحكي قصة الطفل الذي يلازم والده العجوز في غياب أمه، و علاقته معه، و بلوغه إلى سن الرشد الذي يبدو معوقا و غير متاكد لأنه يبقى كلا على والده، كما أنها ترصد لغياب الأم عن حياة الطفل الذي لا يستطيع هو أن يجد تفسيرا عنه، و محاولاته للتعامل مع غيابها عن حياته. و من خلال ذكرياته و نزواته الخيالية و ملاحظاته الحادة نواجه محاولاته للتلصص على عالم الكبار، و مغامراته تصور مدينة "القاهرة" الممتلئة بنجوم السينما و القصر الملكي و الثوريين و عامة الناس ومساعيهم لأجل البقاء في المدينة المائلة إلى الانحطاط، مع ملاحظات ثاقبة على أكثر تفاصيل المدينة التي هو لا يفهمها حتى الآن. و ليست الملاحظاته كسولة، إنما هي فعالة، فيتلصص عن ثقب المفتاح كما لو كانت الثقب لذلك الغرض. وإنه يظل صامتا خلال معظم الحوارات. طالما نشعر كأن سرده نسخ صامت مكبوت لفيلم وثائقي متمركز على علاقة ابن و أبيه و علاقتهما مع الأصدقاء و الأسرة و الجيران. و مهم جدا أن السارد الطفل لا يفسر ما يلاحظه ولا كيف يتصرف الناس، بل إن ملاحظاته الدقيقة الحادة الصبورة تجعلنا نرى الأفعال و الحركات و المشاعر و التعبيرات التي نفسرها كالغضب و الحب و الحقد و الغيظ و الحنق و صراع القوة في العلاقات و الخدع و الأمانة و الصدق. ولكن من الخطأ أن نرى هذه الملاحظات مجرد ملاحظات موضوعية مجردة. والبطل السارد الطفل لا يعلم حتى الآن كيف يتفاعل مع الدنيا حوله، ولديه وعي أنه لا يفهم الكثير من أمور الدنيا، لذلك فإنه يتراجع بعد ملاحظة شاملة على كل ما يرى، فنراه متزعزعا لأنه ليس متأكدا من شيئ. و رغبته الملحة لأن يعلم و يتعلم

ماجريات الدنيا تظهر في صورة أقوى من خلال الجنسانية التي تحتفل بها الرواية، فإنه يختلس النظر إلى السيقان و الأفخاذ العارية كلما يجد فرصة لنظرة خاطفة إليها. وبعد ما يرى الرجال منتبهين إلى النساء ومهتمين بهن يتعلم أن عليه أيضا أن يركز عليهن مع أنه لا يفهم لما ذا. ومع تطور السرد وتطور إدراك الطفل واقترابه إلى فهم الأمور حوله قد يتغير هدف نظره، فلا يلاحظ النساء أكثر فأكثر فقط بل إنما الذي يرعى انتباهه إليه يتغير من الأفخاذ والسيقان العارية إلى المؤخرة المتأرجحة والفلقتين البارزتين. وليس هذا التمركز كسولا، فثقب المفتاح و تحركه من غرفة إلى غرفة وتسلله لأن يتلصص على ما لا يراد منه أن يراه، كلها حركات نشيطة.

إن هذه الرواية القائمة على الذكريات و التذكر ترعي اهتماما بالغا إلى جميع تفاصيل الحياة: الطلاب، و مدرسة الراهبات، و الدكاكين، و الشوارع, و الأشجار، و الثرثرة بين الرجال والجيران، والتحولات السياسة، وآثار الحرب. و العامل المحرك في جميع هذه الأشياء الجنس و الطعام. فالسارد يرعي اهتماما بالغا دقيقا إلى وصف جميع أقسام الطعام. ولا يتوقف الوصف على الرائحة و المذاق فقط، بل إنه يرصد لصوت و لون و جسدية الإعداد و الأكل:"يعد "سخينة" باللبن للعشاء.يغلي الحلبة. يضيف إليها العسل الأسود. يقطع الخبز إلى لقم. يصعها في إناء يحمرها على النار. يضيف خليطة

الحلبة والعسل. يقلبها عدة مرات. يغرف لي في طبق ويصب قليلا من اللبن. أتناولها بالملعقة وأنا جالس فوق السرير"[292].

تحكي الرواية علاقة الطفل المضطربة مع أبيه العجوز "خليل بيه"، وهو ضابط عسكري متقاعد والوالد الوحيد للطفل لأن أمه حبيسة في مستشفى نفسية. وإن تصوير الحرمان الوجداني الناتج عن غياب "أنثى" من حياة الابن و أبيه ربما يكون الجانب الأقوى من جوانب سرد الرواية. الرواية تعكس صورة طفل وأبيه، الذي يضطر أن يكافح لأجل البقاء و لتحمل تكاليف المعيشة بعد تقاعده، في غضون فترة حياة مليئة بالهيجان السياسي والثورات والتحولات السياسية والاجتماعية الراديكلية. مع أن هذه الحوادث السياسية لا تحتل المكانة المركزية في الرواية، إلا أنها تسلط الضوء على المناخ السياسي و الاجتماعي لتلك الفترة.

وكان خليل بيه في وقت مؤظفا محترما من الطبقة المتوسطة، وكان يتمتع بمستوى جيد من المعيشة. ولكن بعد التقاعد، يأخذ يعاني من الانحطاط في مستوى المعيشة. فيضطر إلى أن ينتقل مع ابنه إلى شقة صغيرة متهالكة مشتركة في ضواحي الطبقة العاملة للقاهرة، بينما كانا يسكنان في شقة أكبر حينما كان يستطيع دفع الإيجار. ونتيجة للأسعار الصاروخية وتكاليف المعيشة المرتفعة والظروف الاقتصادية المتحولة لمصر خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها، ولسبب بروز الطبقات الاجتماعية

[292].ابراهيم، صنع الله، رواية التلصص، ص44

الجديدة من نحو رجال الأعمال والمقاولين الصغار والذين أصبحوا أثرياء خلال الحرب من جراء الصفقات في الأسلحة والعمل مع الانجليز، دفع الكثير من المؤظفين الرسميين من مثل "خليل بيه" إلى فقر مضني. ويحتل الوالد المكانة المركزية في أي حادثة تقع في حياة الطفل، وإنه يراقب والده وكل حركاته عن كثب ويسجل في دماغه كل شيئ يقوله وكل شيئ يفعله. وأما فيما يتعلق بأنه لماذا يشعر بحاجة التلصص على عالم والده فهناك أسباب كثيرة. إن البطل الطفل لديه فضول ملح على الإلمام بعالم الكبار و حكاياتهم و أحاديثهم و حواراتهم و علاقاتهم. وعلى ذلك ليس لديه شقيق أو شقيقة يلعب معه أو معها، فلا يجد شيئا أكثر ملائمة لسد الفراغ من دراما الكبار. ولما كانت المدرسة لا تشغفه فيصبح عالم الكبار نافذة مفتوحة على الحياة الجديدة في المدينة. والطفل السارد يستطيع أن يطو ّر وعيه عن الطبقات الاجتماعية و سلوكيات الناس، و خاصة عن مكانته الاجتماعية بنظرته الثاقبة المراقبة في طرائق الناس في الملابس و الطعام و الأثاثات في غرفهم وعن أزياء الشعر لدى النساء، والعطور التي يستخدمونها وهكذا. علاة على ذلك إنه يتمتع بأنه يعلم عن طريق التلصص الكثير َ من الأمور التي لا يعلمها الآخرون. فإنه يتلصص من ثقب المفتاح على الزوجين في الغرفة المتلاصقة يمارسان الجنس و كيف أن عمو "فهمي" زوج أخته "نبيلة" يغازل الشغالة في غياب زوجته، وكيف أن أبيه كان يبكي في الوحدة بعد ما فشل في ممارسة الجنس. فهذا هو عن طريق التلصص أن الطفل يتعلم عن المواجهات الجنسية والمشاعر الخفية وعالم النساء. وأهم شيئ أن هناك سؤال يلازمه ويسوسه، سؤال يبقى دون الإجابة وذلك عن

غياب أمه الغير المبرر. فإن الطفل يشعر بأن هناك شيأً غير طبيعية بالنسبة إلى كبر سن أبيه وغياب أمه التي أصغر بكثير عن أبيه، على الرغم من أنه يستطيع أن يتذكر وقائع مرضها الدماغي وزيارته إليها في المستشفي. ولكن لا أحد يتكلم إليه عنها، ليس في البيت ولا خارجه. وذلك سر يعلمه الجميع مما سواه. وكذلك لا أحد يرغب في أن يتكلم معه إلا قليلا، ولا أحد يرعي الالتفات الكامل إليه ما عدا والده. فمن هذا المنطلق إن رغبته الأساسية هي في التلصص على عالم النساء، كما لو كان يبحث عن بقايا أمه وعن ذكرياته المبكرة عنها عن طريق النساء التي يواجهها. لذلك فإنه يأخذ يحب الجارة القريبة "تحية" و يدعوها "ماما".

يستطيع القارئ أن يعلم عن الأم عن طريق ذكريات الطفل عن الماضي التي يضيئها الروائي بخط مختلف للتمييز من السرد الرئيسي. و فيما بعد نتعلم عن قصة الزواج بين خليل بيه وأم الطفل الأصغر منه بالكثير من خلال الحوار بين خليل بيه وأصدقائه، والمحادثات الوجيزة في بيت "نبيلة". فخلال حادثة يتصادف الطفل أن يسمع محادثة بين والده وصديق له. فكان يحكي له قصة لقائه بأم الطفل وزواجه بها وهو يحاول أن يجعله ينام. وكان خليل بيه غافلا من أن الطفل يسمع كل شيئ. " جابها لنا الدكتور لما أم "نبيلة" قعدت في السرير. كانت بتشتغل عنده في العيادة..... لحست عقلي. و لأول مرة في حياتي أحب. تصور؟ واحد عنده 55 سنة و يحب؟ قلت لها نتجوز. وافقت. أبوها قال فرق السن كبير. قالت له: و ما له؟ بأحبه. أتجوزها في

السر"[293]. " أنصت مبهورا. يستطرد أبي: أجرت شقة قريبة. اللي أنت عارفها قدام مدرسة اليهود. راعيت الله في كل شيئ. أنام جنب أم "نبيلة" كل ليلة. أقوم الصبح على الديوان. الضهر(الظهر) أجري على الشقة الثانية. يظهر عند باب الشقة في بزته البيضاء الكاملة و طربوشه. المظلة البيضاء في يده اليمنى. يضم ذراعه الأيسر على كيس فاكهة من الورق. وجهه الأسمى متهلل. ينحني علي و يحتويني بين ساعديه"[294].

فنعلم أن خليل بيه كان قد تزوج بزوجة ثانية (أم الطفل) حينما كانت زوجته الأولى مريضة. و الزوجة الشابة التي وقع في حبها أنجبت له ولدا و ابنة و لكن الابنة تموت في سنها المبكر. ثم ساءت الحالة النفسية للأم فوقعت حبيسة المستشفى النفسي، فيجد "خليل" نفسه وحيدا تماما مع ولده الطفل، يقتصر حياته عليه ويحاول سد الفراغ الناتج من غياب الأم. ولكن خليل لايوضح للطفل أبدا ما حدث لأمه. والسخرية أن قارئ رواية "التلصص" يستطيع أن يكتشف السر في القصة وليس الطفل السارد. والطفل يبقى وحيدا في سد الفراغ في القصة. إنه يمثل السارد الغير العالم الذي لا يعلم القصة بكاملها ولا الرد على التحديات التي تواجهه. إنه يسرد الحوادث كما يشهدها. إن يمثل أيضا السارد الخفي: ففي أعمال تلصصه و تسلله يبقى دون ملاحظة الكبار. ومع أنه على هامش الحوادث إنه يوصل أعمق عوطفه إلى القراء والتربية الصعبة. ولا أحد من الكبار حوله بمن فيهم والده يستطيع أن يتصور ما يدور في ذهنه

[293]رواية التلصص، ص32.

[294]نفس المصدر ص 32.

وما يشعر به وما الذي يخفيه. والطفل يبقى وحيدا في عالمه من التلصص و التسلل، مختلسا النظر إلى كل شيئ حوله، والتنصت إلى كل محادثة تصل إلى أذنه في مكافحته للكشف عن التناقضات المدهشة في حياته، من نحو فقدانه المادي وحرمانه العاطفي بالمقارنة مع حياة أخته "نبيلة" المترفة في منزل كبير. وهناك إيحاء خفي أن الطفل يحمل أبيه مسؤلا عن غياب أمه. فإن الطفل يتبع بحيرة و رعب المحاولة المستمرة من جانب أبيه للتزوج لمرة أخرى، ففي مرة يصادف أن يستمع حوارا بين ابيه و جاره "الكونستابل" عن الجيران و خاصة عن البنات و النساء، يسمع في أبيه يقول: "يا ريت ألاقي واحدة طيبة بنت ناس ترضى بشيبتي و تربيلي الواد. تعبت من الخدامات و الطباخات. و تتجوزها؟ آه. بس تكون مبتخلفش".[295] ولا يستطيع خليل بيه أن يتجنب ملاحظة الطفل الحساسة الممعنة. ففي تمرده الوحيد ضد الأب في نهاية الرواية حينما يصادف أبيه يمارس الجنس مع الخدامة "فاطمة" إنه يصرخ: "ينعل أبوكم".[296]

التصوير الاجتماعي و السياسي في رواية "التلصص"

معاني التلصص

وقبل أن نتحدث عن الأحوال السياسية و الاجتماعية كما تصورها الرواية قد يليق بنا أن نسلط الضوء على معاني التلصص ورمزه في الرواية. قد سمى الروائي الرواية هكذا لأن الرواية حافلة بتصرفات ومعاني التلصص الكثيرة، لغوية منها ورمزية. وقد

[295] نفس المصدر، ص21.

[296] نفس المصدر،ص82.

يحدث فعل التلصص رئيسيا على يد الطفل السارد ولكن هناك إيحاءاً أن كل واحد يتلصص على كل واحد.ومدفوعا بالفضول الطبيعي إن الطفل يشم ويختلس النظر إلى كل ما تجتازه عيناه. فإنه يحاول أن يستمع إلى ما يدور بين الكبار من حوارات، وحينما على الشارع يلقي النظر على تفاصيله من الأشجار والعمارات والدكاكين والباعة المتجولين وسلوكياتهم وأحاديثهم، وفي زيارة إلى بيت أخته "نبيلة" يختلس النظر إلى كل تفاصيل البيت من الأثاث والحوارات والحميمية بين عمو "فهمي" زوج أخته "نبيلة" وخدامته، ويرعي انتباهه إلى تفاصيل العطور والكريمات التي تستخدمها النساء. صحيح أن فضول الطفل يدفعه أن يشم ويلمس كل شيئ إلا أن تلصصه موجه خاصة إلى الحميمية والجنس، وذلك لأن الطفل لديه فضول للتلصص على عالم الكبار وما يدور فيما بينهم وخاصة العلاقة الخاصة بين الرجال والنساء. وفي هذا لا يتلصص الطفل على الذي يدور خلف الباب فحسب ولكن أيضا على الأجزاء الجسدية الخاصة للنساء كما أنه يختلس النظر كلما وجد فرصة إلى كيف يحدق الرجال على الأجزاء الجسدية الخاصة للمرأة من فخذها أو مؤخرتها أو فلقتيها وهكذا يتعلم أن عليه أيضا أن يختلس النظرإلى كل ذلك. فيتلصص على مدرسة الراهبات "أقترب من سور حديقة مدرسة الراهبات المكون نت أشجار كثيفة. أتلصص المظر داخلها.يتوقف أبي في انتظاري. أعرف أنه يراقبني. أتظاهر بالانهماك في الفرجة".[297] وهو وأبوه يتلصصان على البلكونة المقابلة "يميل أبي براسه إلى ليتمكن من رؤية نافذة "صبري" أفندي. ابنته الكبرى "سهام" في

[297]نفس المصدر،ص28.

قميص نوم عاري الذراعين. مستندة بصدرها إلى حافة النافذة".[298] وأوضح فعل التلصص يتمثل في محاولات الطفل السارد على التلصص من ثقب المفتاح على ما يدور خلف الباب، ففي موقع يتلصص على "ماما تحية" االتي تسكن الشقة المجاورة. "ألصق عيني بثقب المفتاح. أراها جالسة فوق مقعد المطبخ. جانبها الأيمن ناحيتي فلا أرى وجهها. منحنية فوق ساقها اليمنى المثنية. تضع قطعة حلاوة أعلى القدم. ترفعها و تلينها. تضعها على منتصف الساق. تكرر العملية مقتربة من فخذها. تلتفت نحو الباب فأبتعد بسرعة. أسرع إلى مقعدي. أجلس و أفتح كراسة الاغاني...

أغادر مقعدي و أخطو نحو الباب في حذر. أتطلع من ثقب المفتاح. ظهرها لي. تتناول قطعة حلاوة و تضعها بين ساقيها ثم تشدها. تهمس: "آه". تتناول آخر قطعة من الحلاوة.. تضعها بين ساقيها ثم تجذبها بقوة. تكرر العملية عدة مرات. تتنهد."[299]

التصوير الاجتماعي و السياسي في الرواية.

التصوير السياسي

تعتبر رواية "التلصص" أكثر ذاتية و أقل سياسية من جميع روايات صنع الله ابراهيم، إلا أن الروائي قد جعل الأحوال الاجتماعية و السياسية خلفية لهذه الرواية فقد

[298] نفس المصدر، ص37.

[299] نفس المصدر، ص39&40.

أمعـن نظـره في القضـايا السياسـية و الاجتماعيـة وقـد ألمـح إلى الأوضـاع الثقافيـة و الدينيـة والأخلاقيـة في المجتمـع المصـري. إن الروايـة ترسـم المجتمـع المصـري والحكومـة المصـرية مـن وجهـات عديـدة مـن ثـرثارة النـاس علـى الشـارع و نكـاتهم عـن الملـك والقصـر وأحـاديثهم عـن السياسـة والساسـة وتصـوير الـدور الـذي يلعبـه الكتـاب والعلمـاء والصـحافة، وتظـاهرات النـاس والطـلاب والنسـاء ونشـاطات الإخـوان المسـلمين- "يتسـاءل "علـي صـفا" يا تـرى الإخـوان المسـلمين ناويـين يقتلـوا مـين بعـد وكيـل محكمـة الاسـتئناف" -.[300] وترينـا الحقـائق المـرة الـتي تمتلـئ بالنفـاق والزيـف والخـداع علـى لسـان صـبئ بـرئ، كمـا أنهـا تضـم الإشـارات والتلميحـات إلى الكثـير مـن الحـوادث و الحقـائق السياسـية والاجتماعيـة والاقتصـادية مـن الأسـعار الصـاروخية والمصـاعب الاقتصـادية وتكـاليف المعيشـة الغـير المحملـة إلى الحـرب في فلسـطين والكفـاح لإجـلاء الانجليـز وتظـاهرات الطـلاب ضـد الانجليـز والملـك في وقت واحد.

إن الروايـة ترسـم الملـك والقصـر عـن طريـق أحايـث وثـرثارة النـاس علـى الشـارع والنكـات العامـة بـين النـاس عامـة عـن القصـر والملـك. يسـتهدف صـنع الله عـن هـذا الطريـق أن يصـور أن الملـك لا يهـتم بعامـة النـاس ولا الـوطن و أن هنـاك سـخطا ضـده بـين النـاس. "يقـول "رأفـت" أن بائـع بطـيخ نادى علـى بضـاعته صـائحا: بطـيخ الملـك. و اشـترى أحـد المـارة واحـدة وعنـدما شـقها لـه البـائع تبـين إنهـا قرعـة. هنـا صـاح البـائع: بطـيخ الملـك

[300] نفس المصدر،ص30.

"فـاروق". يضـحك الجميـع فـأدرك أنهـا نكتـة".[301] وإنمـا الساسـة و القصـر والملـك منغمسـون في الملـذات، " الغـلاء و مغـامرات الملـك النسـائية همـا حـديث الشـارع".[302] وكـذلك تضـم الرواية إشـارات عـن أحـوال الصـحافة المصـرية و المفكـرين والكتـاب المصـريين كمـا أنهـا لا تـترك إلا و تتحـدث عـن الـدور الـذي يلعبـه العلمـاء في المجتمـع و السياسـة و لـو في صورة ساخرة متهكمة.

تفـتح الـرواي و تنشـأ الخلفيـة السياسـية العامـة المتواجـدة في مصـر قبـل "ثـورة يوليـو" الروايـة تفـتح بالطفـل السـارد و الأب راحيـان إلى السـوق، و السـوق حافلـة باللافتـات الـتي تهنـئ الملـك "فـاروق" بعيـد مـيلاده و في دكـان الخـردواتي يجـدان صـورة الملـك مضـاءة بالمصـابيح، هـذه الخلفيـة مهمـة جـدا لأن الاحتفـال بعيـد المـيلاد يعقـد و العـالم العـربي في حـرب مـع إسـرائيل في فلسـطين.[303] و سـرعان مـا نصـل إلى الفصـل الثالـث فنجـد الروايـة تهـتم بالأحـوال السياسـية المصـرية في خلفيـة الحـرب في فلسـطين.فعـن طريـق الطفـل السـارد نجـد طـلاب المدرسـة يكـررون نشـيد " في جمـال الربيـع عيـدك أقبـل. أنـت أبهـى مـن الربيـع و أجمـل".[304] بمناسـبة عيـد المـيلاد الملكـي. وبعـد الانصـراف مـن السـوق حينمـا يخلـع أبـوه سـترة البـزة يـرى في عروتهـا قطعـة مسـتديرة كتـب عليهـا "الجـلاء" الـذي يشـير إلى إجـلاء الانجليـز مـن مصـر. إنهـا كانـت فـترة عـانى المجتمـع المصـري خلالهـا مـن احـتلال الانجليـز و

[301]نفس المصدر، ص 26.

[302]نفس المصدر، ص1

[303]نفس المصدر،ص1.

[304]نفس المصدر،ص7.

حـرب في فلسـطين و فسـاد القصـر الملكـي. فعنـد عودتـه مـن المدرسـة يجـد الطفـل ملصـقا يـــدعو إلى إغاثـــة اللاجئـــين الفلســـطينيين[305] و عبـــارة تقـــول " لا مفاوضـــة إلا بعـــد الجـلاء"[306] أي إجـلاء الانجليـز.. و هنـاك إشـارات متكـررة إلى "اليهـود" فعنـد انصـرافه مـن المدرسـة يقـف الطفـل السـارد علـى مدرسـة اليهـود ويتلصـص عليهـا و يصـف بأنهـا غـير محاطـة بسـور خـارجي. الظـاهر أن الروائـي يريـد تصـوير حالـة الصـراع الـتي جلبتـه الحـرب في فلسـطين. و في حـوار بـين أبيـه و أصـدقائه يسـمع "رأفـت" أفنـدي يقـول أن الإنجليـز لا زالـوا يهربـون يهـود الـيمن إلى فلسـطين.[307] ،كمـا أنهـا ترسـم في صـورة واضـحة لسـخط المصـريين ضـد اليهـود لسـبب ظلمهـم فيقـول والـد الطفـل "اليهـود ناويـن علـى حـرب"[308] و الطـلاب و عامـة النـاس يتظـاهرون ضـد الانجلييـز و اليهـود معـا " يبـدأ الإضـراب بعـد الحصـة الأولى مباشـرة. نـردد خلـف طالـب بطربـوش مـن السـنة الخامسـة: نطالـب باسـتئناف القتـال مـع الصـهاينة و جـلاء الانجليـز و وحـدة مصـر و السـودان.[309] والطفـل السـارد يسـمع "علـى صـفا" صـديق أبيـه يـروي تفاصـيل مذبحـة "ديـر ياسـين". دخلهـا الصـهانة تتقـدمهم سـيارة مصـفحة عليهـا ميكروفـون. و طلبـوا مـن السـكان أن يخرجـوا مـن بيـوتهم لينقـذوا أنفسـهم.

---

[305] نفس المصدر،ص 8.

[306] نفس المصدر، ص8.

[307] نفس المصدر،ص15.

[308] نفس المصدر،ص26.

[309] المصدر نفسه، ص 69.

صدق البعض و خرجوا فأطلقوا عليهم الرصاص و قتلوهم. ثم ألقوا القنابل على من بقي في البيوت من النساء و الاطفال و الشيوخ فقتلوهم عن آخرهم.[310]

والرواية تلمح إلى السياسة العالمية أيضا، فالسارد يلتصق به اسم "غاندي" الزعيم السياسي الهندي بسب نظارته، من الممكن أن الروائي يشير إلى قتله بسب العنف الديني و الطائفي. والرواية تصور انهزام العرب في فلسطين والسخط المتصاعد على المستوى الوطني ضد الملك و الانجليز الذي في أوجه و قد غمرت المظاهرات و الإضرابات من طبقات المجتمع المختلفة البلاد كله. فعلى سبيل المثال يتذكر الطفل الحوار التالي بين والده و أصدقائه الذين يتجمعون كل يوم في مقهى لتبادل الأخبار و الآراء، يتذكر الطفل هذا الحوار الذي يشير إلى التوتر السياسي السائد إبان 1948. " يقول أبي إنه يقرأ الجرنال عند الجزمجي. و على العموم أخبار النهاردة زي إمبارح. "يقول "رأفت" أفندي: على رايك شف خبر النهارده عن يهود اليمن و ازاي انجلترا بتهر ّ بهم فلسطين. من ساعة التقسيم و المراكب رايحة جاية تلمهم من كل حتة".[311]

ولكي يصور أن الملك لا يهمه البلاد و إنما هو منغمس في الملذات في هذه الفترة العصيبة يستعين الروائي بالثرثارة في الشارع و عامة الناس عن الحياة الذاتية للملك و القصر.

[310] المصدر نفسه،ص31.

[311] نفس المصدر،ص 15.

"يضيف بصوت خافت إن طلبة الجامعة مزقوا صورة الملك و لقبوه بملك "مصر والسودان و سامية جمال". يقول الشيخ "فضل" إن الملك ترك "سامية جمال" من مدة و استبدلها ب "أم كلثوم".يقول المحامي إنها وضعت جهازتكييف في فيلتها".[312]

فالناس على الشارع فقدوا الثقة بصلاحية و أمانة الملك و الساسة و الأحزاب و لديهم الدرجة القصوى من السخط و الاستياء حيث أنهم يعتقدون أن الملك لا تهمه مصر و لا المصريون و أن الملك قد تجاوز حده في الظلم على الناس. "سمعت آخر فضائح الملك؟ عجبته مرأة واحد ضابط. أمر قائده يحجزه في القشلاق. الفار لعب في عب الضابط فهرب و راح بيته. لقي مرأته مع الملك في السرير. الملك رفع طبنجته و ضربه بالرصاص. وثاني يوم أنعم على أبوه بالباشوية. مش عارف الشعب حفضل ساكت لإمتى. و يقول أبي: و حيعمل إيه الشعب؟ خليها على الله.[313] و في حديث بين أبيه و عمو "فهمي" يسمع عمو فهمي يقول " إن البلد هايصة بسبب طلاق الملك من الملكة "فريدة" و إن بنات مدرسة "السنية" تظاهرن هاتفات: خرجت من بيت الدعارة إلى بيت الطهارة".[314] وفي حوار بين أبيه و رأفت أفندي يقول الأب في سخط "اليهود ناويين على حرب. واحنا في دنيا تانية. الحكومة بتشتي و بعدي تصيف. و الزعماء بيتكلموا عن حاجة اسمها "العمل الإيجابي". و لا أحد عارف إيه هو ده العمل

[312]نفس المصدر،ص15.

[313]المصدر نفسه، ص30.

[314]المصدر نفسه،ص 80.

الإيجابي. يتنحنح الحاج " عبد العليم". يقول إن الناس فقدت الثقة في زعماء الأحزاب وانصرفت عنهم".[315]

والرواية ترسم الحالة السياسية المصرية من النواحي الشتى من تصوير الصحافة والعلماء و الكتاب والشعراء ولهذ الغرض يستخدم صنع الله أحاديث و حوارات فيما بين الناس لكي يتم تصوير ما يعتقد الناس على الشارع بالنسبة إليهم. فإنها ترصد للظروف السائدة في الصحافة المصرية و تصور كيف أنها لم تعد وسيلة مؤثرة في الكفاح ضد الاضطهاد والظلم والفساد و غياب العدالة من المجتمع ولا للكفاح لحق الناس و لرفاهيتهم.فعلى سبيل المثال إن الرواية – متحدثة بشخصية الرواية الدكتور "مندور"- تصف "أخبار اليوم" بأنها "الصحيفة الصفراء لأنها نشرة بريطانية مخصوص لمناصرة الملك ضد الوفد. تقول عليه الملك الصالح و العامل الأول و التقي الأول".[316]

وكانت تلك فترة قد تجذرت خلاله تغييرات كثيرة في المجتمع المصري مما جلبت صراعا حادا بين رجال الدين و العلماء المتحلين بالعلوم العصرية. يتجلى هذا أكثر تجليا في الجدال على الضرائب التصاعدية و تحديد الملكية. " يسأل الحاج "عبد العليم" قريتم "فكري اباضة"؟ بيطالب بفرض الضرائب التصاعدية و تحديد الملكية و توزيع الأراضي

[315]نفس المصدر، ص 26.

[316]نفس المصدر،ص73.

و محاربة الغلاء. يعلق "الشيخ" بأن الدعوة لإلى تحديد الملكية تخالف الدين. وإن شيخ الأزهر أفتى بذلك".[317]

والرواية أيضا تشير إلى مستوى اهتمام الشعراء و الكتاب بالسياسة والوطن و لو في صورة ساخرة إلا أن له رمزا و معنا بالغين. " يسال "رأفت" أفندي: حد قرا قصيدة :العقاد" الجديدة؟ يستفسر ابي: عن إيه؟ - بيتغزل في شفائف الممثلة"كاميلياء". صاحبة الفم الدافئ كما تسميها "أخبار اليوم".[318]

التصوير الاجتماعي

إن الرواية ترسم لنا صورة المجتمع القاهري قبل ثورة يوليو مع التر كيز على فترة الأربعينيات من القرن العشرين. وقد يتم تصوير المجتمع من خلال ما يرى الطفل من من عادات و أطوار و عقائد الناس و التناقضات و التضادات المتواجدة في المجتمع المصري و خاصة التناقضات التي جاء بها العصر الجديد من تواجد الدين و الموضات والأزياء الغربية المنافية للدين. والرواية تضم الإشارات الكثيرة من مظاهرات الحداثة من السينما و نجومها المصرية منها و الغربية الشهيرة حينذاك و العمارات و البناءات الشامخة الجديدة و الرواية تعطينا تفاصيل كثيرة متعلقة بالمأكل و الملبس و المشرب وعلاقات الناس ببعضهم . ولكي نفهم غاية الرواية يليق بنا أن نحدد منظورا محددا. وهنا أحرى بنا أن نفهم من المنظور الإسلامي و منظور الحداثة. ومن كلي المنظورين نرى أن التناقضات أهم سمات

[317] المصدر نفسه،ص15.

[318] المصدر نفسه،ص26.

المجتمع المصري حينذاك. والرواية ترسم كل شيء من خلال الحياة اليومية. فالرواية تفتح والطفل و أبوه يخطوان إلى الحارة وثم تضم وصفا حيا للحارة مع المقاهي والخردواتي والجزار. والطفل يتذكر معظم التفاصيل للحياة اليومية. يفتح السرد بهذه الجمل " يتمهل أبي في مدخل المنزل قبل ان نخطو إلى الحارة. يرفع يده إلى الى فمه. يتحسس طرفي شاربه الرمادي الملين إلى أعلى. يتأكد من أن طربوشه مائل قليلا ناحية اليسار. ينزع سيجارته السوداء المطفأة من ركن فمه. ينفض رمادها عن صدر معطفه الاسود الثقيل. يبسط أساريره لتتلاشى تجاعيد جبهته. يرسم ابتسامة على شفتيه. يقبض على يدي اليسرى. نلتمس طريقنا في ضوء الغروب...نتجه يمينا نحو الفتحة الوحيدة للحارة. ندلف إلى الشارع الذي يعج بالمارة و الحزانيت. بقالة الحاج "عبد العليم"، شيخ الحارة. ينادينا" تفضل يا "خليل" بيه. يجيب ابي في وقار: حنمر و احنا راجعين".[319]

فهكذا إن الرواية تلجأ إلى تفاصيل الحياة اليومية العادية التي تشير إلى أن هذه التجارب تعكس الحياة و المجتمع في صورة واقعية. يليق بنا أن نرجع إلى "خليل" بيه وابنه. فبعد ما يغادران الحارة ينزلان " ميدان السيدة" حيث يبيع "خليل" بيه ساعة جيبه. إن هذا الفعل في افتتاح السرد يعمل لنا كنافذة إلى المصاعب الاقتصادية التي يعاني منها ويحاول أن يكتمها "خليل" بيه الذي له مكانة اجتماعية.

[319]المصدر نفسه،ص1.

بعد ما يغادران الحارة، نواجه المدينة بأسرها: الميادين، والشوارع الواسعة، والدكاكين الكبيرة، ولافتات الأفلام، والمصابيح المضاءة، والترام وصخب الناس. نحن في مواجهة المدينة الحديثة بمناسبة عيد ميلاد الملك مع اللافتات والمصابيح المختلفة الألوان في كل اتجاه. إن مظاهرالحداثة هذه قد تجلب للطفل السارد الابتهاج والسرور و لكن الحياة الجديدة قد أصبحت ثقلا للوالد حيث أنها تعني ارتفاع الأسعار و الارتفاع في الأجرة وتكاليف المعيشة وفي لفظ آخر ثقل المسؤليات اليومية. فالرواية بأجمعها تمثل لنا الصراع المستمر بين عالم الطفولة وأحلام الجديد أو الحديث و بين مظاهر لا تحصى للحرمان الاقتصادي حيث يعد الحديث تهديدا لأنه يؤدي إلى المضاعفة من فقر طبقات في أسفل السلم الاجتماعي.

والرواية تكشف التناقضات المتواجدة في المجتمع من الناحية الأخري التي تناقض كلا من الدين و العقلانية الحديثة لأن المعتقدات الشعبية و الخرافات الشائعة تكون جزءا مهما من عادات وأخلاق المجتمع حتي الآن. فهذا "ماجد" أفندي يتزوج من جنية تبدل شكلها حسب رغبته. "يقول ماجد أفندي إنها هي التي طلبت الزواج منه واشترطت أن لا يتزوج عليها وألا يتناول الثوم أو البصل في طعام العشاء. يعلق أبي: معها حق. يواصل "ماجد" أفندي إنه لا ينكر محاسنها. فهي تمده بالأموال التي يحتاجها و عند عودته من الخارج يجد الطعام جاهزا مع أنواع الفاكهة في غير أوانها كما يجد البيت نظيفا والملابس مغسولة. طيب و أنت زعلان من إيه؟ يقول إنه لا يستطيع

السيطرة عليها. فهي تحضر فورا بمجرد التفكير فيها و تنصرف وقت ما تشاء. و هي تقرأ أفكاره أولا بأول فلا يستطيع الاحتفاظ بأي اسرار."[320]

وأوضح مثال للتناقضات يتضح من الكتب الموجودة في على الرفوف، فخلال بحثه ذات مرة عن الكتب الموجودة يكتشف الطفل عن المجلة التي تضم صورة فتاة عارية الظهر إلا من كلسون صغير وفي وقت سواء إنه يجد "شمس المعارف الكبرى" الذي يضم أرقاما و حروفا لفوائد كثيرة: "فائدة للصلح بين الرجل وزوجته. فائدة لتكثير المال. فائدة لإذهاب النسيان. فائدة لطول العمر. فائدة لإخراج الحشرات من البيوت. فائدة لتسهيل الفهم و الحفظ. لرد البصر. لمنع النفس عن الشهوات. لجلب الرزق من غير تعب. للاحتفاظ عن اعين الناس. لقضاء الحوائج والدخول على الحكام. للبليد و إعانته على الفهم والحفظ".[321]

[320] المصدر نفسه، ص25.

[321] المصدر نفسه.

الباب الرابع:

صنع الله ابراهيم: فنه وأسلوبه

الفصل الأول: نوعية فن صنع الله إبراهيم

قد يتجلى واضحا مما سبق في هذا البحث أن الأعمال الروائية لصنع الله ابراهيم تتسم بصفتين بارزتين، وهما أن رواياته وثيقة التشابك بالشؤون السياسية والاجتماعية والاقتصادية المصرية والعربية وكذلك بتأريخهما، وأن رواياته تتميز بالتجريب في الشكل والأسلوب؛ في الحقيقة لا تكتمل أية دراسة لروايات صنع الله ابراهيم بدون دراسة أسلوبه وفنه وتقنياته، لأن محاولاته التجديدية في الشكل الروائي هي التي ميزته قبل كل شيئ من الجيل السابق . وفي هذا الصدد، يتحتم علينا أن نعتبر أمرين مهمين، وهما، أولا أن القيادة السياسية التي استولت على زمام مصر بعد ثورة يوليو 23، لعام 1952م عامة والبلدان العربية الأخرى خاصة لم تتمكن من تحقيق طموحات وآمال شعبهعا، و ثانيا، أن المجالات الثقافية من الأدب والصحافة ووسائل الإعلام الأخرى كانت قد فشلت أن ترصد للفشل السياسي في العالم العربي، وأن تعبر عن الجو الحقيقي السائد هناك. فإن الجيل الذي جاء بعد توفيق الحكيم(1898م - 1987م) ومُحَمَّد حسين هيكل (1888م -1956م)، وطه حسين () دون شك تقدم بالرواية العربية إلى مرحلة جديدة، إلا أنه لم يستطع أن يتحرر من القيود الشكلية القديمة. وإن النزعة الواقعية المتمثلة في رواية "الأرض" لعبد الرحمن الشرقاوي (1920-87م)، التي صدرت عام 1954م، كانت تطور جديدا بالنسبة للرواية العربية حيث أنها ترفعت بوظيفة الأدب

من مجرد التسلية إلى وظيفة التقدم بالمجتمع. ومتأثرا بفكرة "engagement" للفلسفي والأديب الفرنسي "جان بول سارتر" () كانت رواية "الأرض" مثالا رائعا لأدب "الالتزام". وكان هناك أدباء آخرون الذين ساهموا في تطوير أدب "الالتزام" من أمثال "لطيفة الزيات" (1923-1996م) في روايتها "الباب المفتوح الصادرة سنة 1960م، و"فتحي غانم" (1924-1999م) في روايته الأولى "الجبل" الصادرة سنة 1959م، و"يوسف إدريس" (1927-1999م). ولكن هؤلاء الواقعيين لم يتمكنوا أن يقتربوا من الواقع؛ لذلك، فإن الجيل الذي جاء بعدهم أرجع فشلهم في هذا الصدد إلى أسلوبهم الذي كان تقليديا. الجيل الذي جاء بعدهم يسمى في مصر بـ"جيل الستينات" كما رأينا في الباب الأول. والنزعة الأدبية التي اتبعوها تسمى "الواقعية الجديدة" على عكس "الواقعية الجديدة" التي تبناها الجيل السابق، أو "الحساسية الجديدة" والحساسية التقليدية/القديمة" كما يسميهما الكاتب "إدورا الخراط" (1926-2015م). وأبرز الصفات التي تميز كتابات هذا الجيل هي 'طغيان محاولات التجديد والتجريب في الشكل عليها'[322]، بالإضافة إلى النقد السياسي العنيف المباشر وغير المباشر.

مهم جدا في هذا الصدد أن صنع الله ابراهيم في طليعة هذا الجيل الجديد، وأكثر أهمية أن الآخرين من هذا الجيل رفعوا صوت التمرد بعد نكسة 1967م، بينما أن الرواية الأولى لصنع الله "تلك الرائحة" التي صدرت أولا في سنة 1966م كانت بمثابة تنبؤ للنكسة. قد وجه صنع الله ابراهيم في هذه الرواية انتقادا لاذعا إلى الساسة العرب

[322] السكوت، حمدي، الرواية العربية: ببلوغرافيا ومدخل نقدي 1865-1995، الجامعة الأمريكية بالقاهرة، القاهرة،2000،ص91

بأنهم لا يستطيعون أن يقاوموا الامبريالية الغربية ولا العدوانية الإسرائيلية؛ إن الرواية تقول في شكل غير مباشر أن الساسة العرب يعاونون من العنة، وإنهم بدلا من أن يقاوموا الاستعمار والعدوان الإسرائيلي يقهرون ويضطهدون مواطنيهم. وإن هذه الرواية تقوم بتعليق حاد على الحالة الأدبية في تلك الفترة، كما لو كان الروائي يقول ما هي وظيفة الأدب ومسؤوليته إلى المجتمع. فقد يليق بنا أن نلقي نظرة على رد فعل صنع الله ابراهيم إلى النقد العنيف الذي وجهه إلى الرواية الأستاذ "يحيى حقي" ()، "ألا يتطلب الأمر قليلا من القبح للتعبير عن القبح.. ولماذا يتعين علينا عندما نكتب ألا نتحدث إلا عن جمال الزهور وروعة عبقها، بينما الخراء يملأ الشوارع ومياه الصرف الملوثة تغطي الأرض، والجميع يشمون الرائحة النتنة ويشتكون منها؟"[323] في هذه المقدمة نفسها يكتب الله ابراهيم صريحا "..وأنا أتساءل عن جدوى كتابة لا تتعرض للصراع الضاري مع الاستعمار، لمحاولات بناء الاشتراكية، وللتناقضات الملتبسة بكل ذلك: الرعب والتعذيب والسجن والموت والشجن الشخصي."[324] في الواقع كانت رواية "تلك الرواية" بمثابة

323

ابراهيم، صنع الله، على سبيل التقديم الذي كتبه في سنة 1986 للطبعة الكاملة الأولى، رواية "تلك الرائحة"، الطبعة الثالثة، دار الهدى للنشر والتوزيع، القاهرة،مصر،2003، ص15.

[324] المصدر نفسه،ص16.

إعلان عما سيكتبه وعن الأسلوب الذي سيكتب فيه صنع الله ابراهيم، كما أنها سجلت نموذجا يتبعه الآخرون من جيل الستينات.

الأثرات على هذا الجيل

تأثر هذا الجيل بكل من التطورات السياسية والثقافية في العالم العربي والعالم بأجمعه. والتطورات السياسية التي أثرت هذا الجيل مباشرة هي حرب 1948 في فلسطين وإنشاء دولة جديدة فيها، دولة إسرائيل إثر الحرب تلك السنة، وثورة يوليو 23 في سنة 1952 وعدم قدرة قيادة الثورة في تحقيق العدالة الاجتماعية وإنجاز طموحات الشعب المصري، و نكسة 1967 التي انتهت بهزيمة العرب على أيدي الإسرائيلين. وتأثر هذا الجيل، بما فيه صنع الله ابراهيم، مباشرا وغير مباشر بالتطورات الأدبية في العالم العربي والغربي سواء. وبين الروائيين العرب كان "نجيب محفوظ" () قد تبنى نزعة جديدة بسلسلة جديدة من رواياته التي تضمنت النقد الاجتماعي مع الاعتناءات الوجودية والفلسفية. فبداية من "اللص والكلاب" الصادرة في سنة 1961م وانتهاء بـ"ميرمار" إن الروايات التي صدرت له في هذه، المرحلة مما سوى هاتين، من "السمان والخريف" الصادرة في 1962، و"الطريق" الصادرة في 1964، و"الشحاذ" الصادر ة في 1965، و"ثرثرة فوق النيل" الصادرة في 1996 يمكن أن نقرأها كاحتجاج

مباشر على السمت الذي توجه إليه الحكومة الناصرية، كما أن هذه الروايات تتضمن شعورا بالغا للاغتراب مع نزعة ملموسة في التجريب البنيوي.[325]

أصبحت نزعة التجديد والتجريب في الشكل ميزة بارزة في أواخر الستينات، ورواية "تلك الرائحة" في مقدمة الطليعة. تأثرت إنتاجات هذا الجيل بالتطورات الأدبية الغربية وخاصة في الولايات المتحدة وفرنسا. تأثر هذا الجيل مثلا بـ"كافكا"، و"فوكنر"، وبالتجريبات في الروايات الفرنسية الجديدة (الرواية الجديدة)، والتقنيات السردية الحداثية. والمؤثرات الأخرى تشمل "مسرح العبث" و"الأدب الوجودي". كان هذا النمط من الأدب الغربي في الرواج حينذاك وقد تمت ترجمة هذه الأعمال في العالم العربي، وخاصة في بيروت. فظهرت لدى هذا الجيل الجديد عدد كبير من الروايات التي تعبر عن الاغترابِ في جميع المستوى وشعورِ العنة السياسية نتيجة للحياة في الدكتاتورية، والشعورِ بالتشتت الذي تكثف أكثر بعد نكسة 1967م.[326] وكان "جاليري 68" المتحدث الرئيسي باسم هذا الجيل، إلا أن صنع الله ابراهيم لم يكن أبدا جزء لهذه الجماعة. صدرت هذه المجلة، مجلة جاليري 68، التي رأسها الكاتب الروائي الكبير "إدورا الخراط" في ثمانية أعداد من 1968 إلى 1971. على الرغم من أن هذه المجلة لم تعش إلا لمدة قليلة إلا أنها أثرت تأثير ا قويا على الجيل الجديد.[327]

---

[325] Starkey, Paul, Sonallah iibrahim: Rebel with a Pen, Edinburgh University Press, Uk, 2016, pg.8

[326] Badawi, M. M. A Short History of Arabic Literature , Clarendon Press- Oxford,1993, pg 158&159.

[327] Starkey, Paul, Sonallah iibrahim: Rebel with a Pen, Edinburgh University Press, Uk, 2016, pg.10 .

وقد سرد صنع الله ابراهيم هذه الآثار الأدبية الغربية التي أثرت على إنتاجه الأدبي في مقدمة روايته "تلك الرائحة" وسيرته الذاتية "يوميات الواحات" التي صدرت في 2005م. تعرف الروائي على معظم هذه الأعمال وهو في السجن، والتعرف لم يكن عن طريق قراءة النصوص مباشرا أو عن طريق الترجمة، وإنما عن طريق التعليقات والاقتباسات في الملاحق الثقافية الصادرة من القاهرة والمجلات الأمريكية والفرنسية[328]. يذكر الروائي هذ وجيزا في 'على سبيل التقديم' في الطبعة الكاملة الأولى لروايته "تلك الرائحة". "ومن رواء أسوار سجن الواحات الخارجة كنا-أنا وأصدقائي كما القلش ورؤوف مسعد وعبد الحكيم القاسم-نتابع في حماس الشعراء السوفيت- الشابين يوفتوشنكو وفوزينيسكي والعجوز تفاردوفسكي- وهم يفجرون الأبنية العتيقة، بقدر ما كنا نتابع تجارب الكتابة التلقائية، وفنون الضوء والحركة في أمريكا، وموجة "الرواية الجديدة" في فرنسا. وكانت المجلات القاهرية تحفل بالإشارة إلى شتى التجارب الأدبية الجديدة في العالم. وراحت المعارضة اليمينية المقنعة للنظام الناصري- وهي التي كانت تسيطر بالفعل على كافة منافذ النشر والإعلام في البلاد-تروج في دهاء لأعمال بيكيت ويونسكو ودورينمات.

كان التمرد إذن وقود المرحلة، والتجربة شعارها. وأعطى نجيب محفوظ ظهره لكتابته البلزاكية، ليخوض في مغامرات مثيرة، قفز فيها بالفن الروائي العربي قرنا باكمله. وبرزت أسماء جديدة مثل إدوار الخراط وغالب هلسا وبهاء طاهر وسليمان

[328] المصدر السابق،ص22.

فياض وابراهيم أصلان ويحي طاهر عبد الله وغيرهم. وخيل إلي أني وجدت الطريق حينما وقعت على هيمنجواى من خلال كتابين وجدا طريقهما إلى سجن الواحات الخارجة: الأول لكارلوس بيكر، والثاني يضم عدة دراسات أهمها واحدة لناقد سوفيتي قديم، غاب عني اسمه، عنيت بتحليل أدوات الكاتب الأمريكي الكبير. وقد آمنت على الفور بهذه الأدوات- مازلت أعتمد بعضها- وأهمها الاقتصاد ةالتعبير المشكوم. وبدا "لجبل الثلج العائم" بريق خاص في مواجهة الترهل التقليدي في أسلوب التعبير العربي, وتحت تأثير هيمنجواى بدأت أعمل في رواية الطفولة التي لم يقدر لها أن تكتمل."[329] ومتحدثا عن الرواية المذكورة لهيمنجواى يكتب صنع الله ابراهيم في يوميات الواحات "أحببت رواية هيمنجواى القصيرة هذه ويبدو أني تأثرت بشكلها في رواية "تلك الرائحة" عندما اعترضت السرد الرئيسي بمقاطع في أسلوب مختلف تعتمد على الذكريات."[330] قد ذكر صنع الله ابرهيم في مذكراته "يوميات الواحات" أسماء العدد الكبير من هؤلاء الروائيين والأدباء الذين تأثر بهم. ومنهم دوستوفسكي وجيمس جويس وفجينيا وولف والبرت كامي وجورج لوكاتش. ولقد يستخدم صنع الله ابراهيم التقنيات السردية الحداثية من "الفلاشبك" (الاسترجاع) و"الأحلام" و"تيار الوعي" في صورة ملموسة. فلا شك أن للروائيين من أمثال هيمنجواي وفرجينيا وولف وجيمس أثرا قويا على أعماله. وإننا نرى الأثر البالغ للروائي الأمريكي عليه في أسلوبه التيليغرافي والجمل القصيرة الحادة في روايته

[329] على سبيل التقديم الذي كتبه في سنة 1986 للطبعة الكاملة الأولى، رواية "تلك الرائحة،ص15&16.

[330] ابراهيم، صنع الله، يوميات الواحات، الطبعة الأولى، دار المستقبل العربي،شارع بيروت،مصر الجديدة، القاهرة،2005،ص262.

"تلك الرائحة". وقد استخدم الروائي هذا الأسلوب التليغرافي مع الجمل القصيرة جدا، والإيقاع الموسيقي بصورة بارزة في روايته "التلصص". وبالنسبة للموضوع يبدو أن للأدباء من أمثال "البرت كامو/ كامي" و"جان بول سارتر" أثرا قويا عليه. فالإحساس الذي تولد لدى هذا الجيل بالنتيجة لنكسة 1967م والقهر الاجتماعي والإحباط النفسي تمخض عن شعور عندهم بعبثية وعدمية الأشياء وانعكس ذلك بدوره على الشكل الروائي.فالروايات التي ظهرت في هذه الفترة لا تلتز م بالبناء التقليدي مثل البداية والعقدة والحل.

فمتأثر بجميع هؤلاء العناصر، الظروف الجديدة في مصر في الستينات التي اتسمت بألوان القهر والقمع والاضطهاد، وانعدام الديمقراطية والعدالة الاجتماعية، وعدم اعتناء أدباء الجيل القديم بالواقع الحقيقي وعدم جرأتهم على تجاوز القيود الأسلوبية التقليدية، وثم ظهور العناصر الجديدة في الأداب الغربية، أخذ الجيل الجديد، بمن فيهم الروائي صنع الله ابرهيم، في البحث عن أساليب أكثر ثراء وواقعية للتعبير عن الواقع الجديد. وصنع الله ابراهيم في مقدم طليعة "الواقعيين الجدد" الذين خرجوا من الأنماط التقليدية وكتبوا برؤية واقعية جديدة مختلفة عن واقعية الجيل السابق. فجاءت رواية هذا الجيل لصيقة بالمجتمع المصري فتصور الجوانب المتعددة والحقيقة المتواجدة بكل موضوعية، تناقش قضايا ومشاكل المجتمع المصري وتغلغل في جذورها واقتربت من الحس الشعبي والنبض العام للإنسان المصري. وأكثر ما تتجلى هذه الخصوصية في بناء الشخصيات الروائية لديهم وخاصة ما يسمى "البطل المضاد"/أو "مضاد البطل" الذي هو أبرز

خصوصيات الواقعية الجديدة، وكما أن كتابة الروائي صنع الله ابراهيم تتميز بالحبكة الروائية الضئيلة. ومن السمات البارزة في الأسلوب الروائي لصنع الله ابراهيم هي استخدام ضمير المتكلم في معظم رواياته، والأثر القوي للسيرة الذاتية، والحبكة الروائية الضئيلة، والأسلوب الصحفي الريبورتاجي، والتناص واستخدام الوثائق الأكاديمية والتضمينات من الوثائق التأريخية، والفلاشباك، وتيار الوعي، والأحلام، والرمزية، والسخرية السوداء الكافكاوية، ومونولوج الداخلي (المناجات الداخلية)، والتشيؤ (الاعتناء البالغ بالأشياء التافهة)

مضاد البطل

لقد كون شخصية "البطل المضاد" / أو "مضاد البطل"/ أو "واللابطل" جزء مهما من التجديد في الشكل الروائي على أيدي الروائيين الجدد.وقد كان "مضاد البطل" ملائما للتعبير عن العيوب والنقص في المجتمع، والضعف البشرية، والشعور بالعنة السياسية، وعموم الفساد السياسي والاقصادي والخلقي والاغتراب، والتشتت والشعور بالإحباط. يمتاز صنع الله ابرهيم بأن بطله المضاد انتقاد عنيف مباشر على الشؤون السياسية المصرية. و"البطل المضاد" يعني ،كما يبدو من الكلمة نفسها، الشخصية الرئيسية التي تحمل الأوصاف المخالفة للبطل، فلا يتسم البطل المضاد، عكس الأبطال التقليدية، بسمو الأخلاق والمثالية والشجاع والهمة والقوة والإيثار بالذات. وإنه، إنما يتصف بقلة الثقة بالنفس، والضعف النفسي، والعجز، واليأس والقنوط، ضلال

الهـدف والسـمت والهـدى، وقـد يقتلـه الشـك في قدرتـه، إنـه يشـعر أنـه لا يسـتطيع أن يتحكم بقدره، كما أنه لا يستطيع أن يغير قدر وطنه.

"بطـل مضـاد anti-hero شخصـية تمثـل الـدور الرئيسـي في الروايـة مـن دون أن تتمتـع بالصـفات الجسـدية أو المعنويـة المتفوقـة الـتي تخلعهـا الروايـة علـى بطلهـا عـادة.فالكاتـب يختـار عمـداً شخصـية رجـل سـاذج أو مغفـل أو ضـعيف لتمثيـل الـدور الرئيسـي في الروايـة، وذلك قصـدَ التعبـير عـن رؤيـة معينـة للواقـع أو مفهـوم محـدد للعـالم . مـن الأمثلـة المعروفـة للبطـل المضـاد شخصـية السـاذج في روايـة كانديـد Candide لفـولتير Voltaire، وشخصـية شـارل بوفـاري البورجـوازي الضـيق الأفـق وزوجتـه السـيدة بوفـاري الـتي تغـذي ذهنهـا بمطالعـة القصـص الرومانسـية في روايـة السـيدة بوفـاري Madame Bovary لفلـوبير Flaubert ، وشخصـية دون كيشـوت Don Quichote الـذي يتغـذى بمطالعـة قصـص الفروسـية في روايـة دون كيشـوت لسـرفانتش Cerventes Saavedra.

يبـدو البطـل المضـاد في أدب القـرن العشـرين ضـحية مجتمـع ذي آليـة غريبـة وغـير مفهومـة، لـذا لا يعـرف سـوى البـؤس والوحـدة،

ولا يعطيه حظه غير السأم (كامو Camus: الغريب L'Etranger؛ كافكا Kafka: القصر le Chateau، المحاكمة le process). وقد استغلت الواثعية الجديدة هذه الصورة لتوجه النظر إلى مصائر العاطلين عن العمل واتسلط الضوء على الفقراء غير القابلين للاستيعاب الاجتماعي بسبب رتابة الحياليلومية التي تُفقد الناس َ حماستهم للمغامرة وتجعل كل شيئ عبثا مرسوما."[331]

الشخصية الرئيسية هي مضاد البطل في معظم روايات صنع الله ابراهيم. ولقد يتضح هذا مما سبق في هذا البحث. في الواقع إن البطل السارد في روايته الأولى نموذج مثالي للبطل المضاد. وفي رواياته الثلاثة الأولى "تلك الرائحة" و"نجمة أغسطس" و"اللجنة" إن البطل السارد شخصية مجهولة بلا اسم وملامح اجتماعية. يعاني هذه البطل من الاغتراب والعزلة، والعجز وعدم القدرة على المبادرة والإقدام، والشعور بالإحباط، إنه شخصية منهارة تماما وضائعة. في الحقيقة، يعترف البطل في رواية تلك الرائحة بأنه يشعر كأنه عجوز، "وقلت لها إني أشعر أني عجوز. نادراً ما ابتسم أو أضحك."[332] البطل المضاد في هذه الرواية نموذج نمطي للبطل المضاد الكلاسيكي. إنه في كل مجالات الحياة، والذاتية والمهنية. إنه لم يستطع أن يمارس الجنس مع أية واحدة من

[331] زيتوني، الدكتور لطيف، معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان ناشرون، بيروتن لبنان، الطبعة الأولى، 2002، ص36&37.

[332] ابراهيم، صنع الله، رواية تلك الرائحة، الطبعة الثالثة، دار الهدى للنشر والتوزيع، القاهرة،2003، ص41.

ثلاثة النساء حاوله معهن. وكذلك إنه عاجز عن أن يكتب لكي يوقظ الناس. إضافة إلى ذلك إنه يحاول مرارا، كما أنه سريعا ما تثار رغبته الجنسية. ولكنه يفشل، فيلجأ إلى الاستمناء. "وعدت أجلس إلى المكتب. وأمسكت بالقلم. لكني لم أستطع الكتابة. وأغمضت عيني. تصورت فتاة الأمس بجسمها الأبيض أمامي على الفراش، ممتدة وشعرها طازج، وأنا أقبل كل جزء منها. وأمر بحدي على فخذها وأسنده إلى نهدها. وامتدت يدي إلى ساقي. وجعلت أعبث بجسمي. وأخيرا تنهدت."[333] لكن هذا اللجوء إلى الاستمناء لا يحط من آلامه والشعور بخيبة آماله. وإنه يحس بهذا.الهدف من كل هذا تصوير الشعور العنيف بالإحباط في الفترة الناصرية التي اتسمت بألوان القهر والقمع. وكذلك نرى أن البطل السارد في رواية "نجمة أغسطس" دائما وحيد وغريب ومطارد، إنه يشعر دائما أن رجال المخابرات والمباحث دائما في أثره.إنه يبدي خوفه كلما يواجه شخصا غريبا له هوية مجهولة. إنه أيضا خائف ويعيش في مناخ القهر والقمع. استهدف صنع الله ابراهيم أن يصور مناخ القهر المتواجد في الفترة الناصرية. فخوف البطل السارد أن المباحث دائما في أثره يصور هذا المناخ القهري. إن هذا الإحساس يقوم على أسس موضوعية اجتازها الكاتب مع أصحابه بعد خروجهم من السجن.وفي أماكن كثيرة يشعرالبطل بالقشعريرة والخوف على رؤية شخص غريب يحدق فيه. فبعد وصوله بأسوان حينما هو يرتشف القهوة في مقهى تلتقي عيناه بعيني رجل أجنبي فيقشعر. "وبدأت أرتشف قهوتي عنجما التقت عيناي بعيني رجل طويل القامة

[333] المصدر السابق، ص50.

يجلس على مقربة. كان يرتدي قميصا داكن اللون وبنطلونا رماديا. وخيل أنه يحدق إلي بدقة. تطلعت لإليه بعد برهة فالتقت عينانا مرة أخرى"..أصبح الرجل بجاني وتجاوزني وواصل السير على الأفريز. جذبت نفسا عميفقا من سجارتي... توقفت في مدخله لحظة ريثما تطلعت خلفي. لكني لم أرى أثرا لرفيق المقهى."[334] وإن لديه شعور قوي أنه لا يستطيع أن يغير شيئا.فنراه يرفض دعوة ذهني للمجيئ إلى الكونغو لكي يحارب. "قلت ونعمل ايه في الكونغو؟ نحارب. تطلعت إليه لحظة ثم هززت رأسي: لا يا عم. أنا حاربت كفاية."[335] وفي رواية اللجن نرى أن البطل السارد يعاني من الأزمة الفرية الروحية. وشأن البطل في الروايتين السابقتين تلك الرائحة ونجمة أغسطس، إنه أيضا سجين سياسي سابق. ومثل البطل في الروايتين السابقتين بدأ حياته بأحلام عريضة، إلا أنه يصادم بالظروف المتحولة ويظهر له التباين الشاسع بين طموحاته وقدراته. يظهر عجزه واستسلامه في المثول أمام اللجنة. هذه اللجنة لجنة أجنية مخابراتية تجند المصريين لتحقيق أغراضها قد تعارض مصالح المصريين أنفسهم. إلا أنه يستسلم ويمثل أمام اللجنة لأنه يشعر انه لا يستطيع أن يغير ظروف وطنه ولأن الجميع قد استسلموا. تنتهي هذه الرواية بأكل البطل نفسه كامتثال لحكم اللجنة تعذيبا له. إن هذا يمثل أوج الشعور بالعجز والإحباط. ولكن الأمر ليس أن البطل المضاد يعني كل شيئ سلبي وأنه لا يترك مناصا للأمل والرجاء. لا شك أن الشعور بالعجز وعدم القدر على تغيير القدر وعبثية

[334] ابراهيم، صنع الله، رواية "نجمة أغسطس" ، دار الفارابي- بيروت ص.ب. 3181، الطبعة الثالثة، 1980،ص15.

[335] المصدر السابق،ص185.

الإقدام يطغى عليه، إلا أننا نرى بريق الأمل في صوري خفية في كل هذا. فبطل رواية نجمة أغسطس خائف ولكنه ليس مذعورا. في الواقع إن فكرة المقاومة ضد القهر السلطوي جزء لازم لهذه الرواية. وذلك ظاهر في التضمينات من كتاب مائكل انجلو. وفي رواية اللجنة، حينما يفشل البطل في الانطباع الأول يقول بأنه لمس شعورا بالارتياح في أعماقه. "لمست في أعماقي شعورا بالارتياح لهذا الفشل. كأنما كان ثمة جزء من نفسي يخشى عل نفسه من نجاحي."[336] إن هذه الرغبة الشديدة لدى البطل عبارة عن رغبته للمقاومة ضد الظلم والاضطهاد، إلا أنه يعاني من الشعور بعدم القدرة على المبادرة.

[336] ابرهيم، صنع الله، رواية اللجنة، الطبع الثانية، مطبوعات القاهرة، القاهرة،1982،ص10.

الفصل الثاني:

التقنيات السردية في روايات صنع الله ابراهيم

البنية السردية في روايات صنع الله ابراهيم

روايات قصيرة وروايات طويلة

من حيث الحجم تتوزع روايات صنع الله ابرهيم إلى قسمين، الروايتان الثانيتان الأوليان اللتان تشتملان على تلك الرائحة الصادرة في سنة 1966م ورواية الرويه الغير المطبوعة قصيرة، ورواية اللجنة التي طبعت لأول مرة في سنة 1981م روايات قصيرة. فإن رواية تلك الرائحة، كما رأينا قصيرة جدا، بالكاد تكاد تصل إلى خمسة وثلاثين صفحة، كما أن رواية اللجنة بالكاد تصل إلى مائة وخمسين صفحة. في الواقع، المناسب أن يطلق عليهما ما يسمى في اللغة الانجليزية "novella"[337]. وأما بقية الروايات المتكونة من نجمة أغسطس وذات وبيروت بيروت وشرف ووردة وغيرها روايات طويلة. في الحقيقة إن الروايات من أمثال ذات وشرف (خاصة) ووردة طويلة جدا.

[337] Paul Starkey, Sonallah Ibrahim: Rebel with a Pen, pg. 52.

مستوى السرد في روايات صنع الله ابرهيم

معنى السرد

إن السرد يكون عنصرا مهما من العناصر المختلفة في الرواية الحديثة. ومن العناصر المهمة للرواية: الشخصية، والحدث، والسرد، والحوار، والوصف،والزمان، والمكان، واللغة. والسرد في الروية كالعمود الفقري تعتمد عليه الأدوات الفنية الأخرى نحو الحوار والوصف. والسرد هو فن تعبير الألفاظ عن الوقائع ليبين لنا الصورة المتخيلة إلى الصورة اللغوية من خلال نقل الجزئيات مع الأحداث.[338]

> السرد أو القص هو فعل يقوم به الراوي الذي ينتج القصة، وهو فعل حقيقي أو خيالي ثمرته الخطاب. ويشمل السرد، على سبيل التوسع، مجمل الظروف المكانية والزمنية، والواقعية والخيالية، التي تحيط به.فالسررد عملية إنتاج يمثل فيها الراو ي دور المنتج، والمروي له دور المستهلك، والخطاب دور السلعة المنتحة. وتنعقد العلاقة بين الراوي والمروي له في السرد من خلال الأسئلة المباشرة أو غير المباشرة التي يطرحها الأول ليضمن حسن متابعة الثاني لحكايته، أو يطرحها الثاني حين يواجه ما يستغربه أولا يوافق منطقه من كلام الأول. ويشرك الراوي أحيانا شخصيات الرواية في

[338] الرويلي،ميجان والبازغي،سعد، دليل الناقد العربي، الطبعة الثانية، الثقافي العربي، ص172.

السرد، فيضع على ألسنتهم أجزاء من الخطاب (شهادة، رسالة،حكاية فرعية). وقد يحصر معرفته بالأحداث بما تعرفه الشخصية، أو بما يبدو منها، أو يوسع هذه المعرفة لتصبح بلا حدود في الرواية. فالسرد هو الخيارات التقنية (والإبداعية) التي يتم من خلالها تحويل الحكاية إلى قصة فنية. وهو يشمل الراوي والمنظور الروائي وترتيب الأحداث.[339]

ويطلق السرد كذلك على صيغة من صيغ الخطاب وظيفتها وصف سير الحدث كفعل في زمن. وهو، بهذا المعنى (أي تمثيل الحوادث) يقابل الوصف الذي يتناول عناصرالحدث كالشخصيات والفضاء، ويقابل التعليق الذي ينقل رأي االراوي (أو الكاتب) في الحدث، ويقابل العرض الذي تتميز به المسرحية عن القصة.

من مميزات التقنية السردية في روايات صنع الله ابراهيم البطل المضاد وتواجد عناصر السيرو الذاتية والحبكة الضئيلة وتقنية التناص و الفلاشباك والمونولوج الداخلي وتيار الوعي والأحلام. ولقد نري أن صنع الله ابراهيم يحب

[339] زيتوني، الدكتور لطيف، معجم مصطلحات نقد الرواية،ص105

استخدام الجمل القصيرة وذلك الذي يسمى الأسلوب التليغرافي، هذه الميزة بارزة خاصة في رواية تلك الرائحة ورواية نجمة أغسطس ورواية التلصص.

معنى مستوى السرد

يستخدم اصطلاح مستوى السرد في التقنية السردية في معنى خاص. يستعمل هذا الاصطلاح من موقع الراوي في السرد، ما إذا كان داخل السرد أو خارجه، وما إذا كان يروي سيرته أو حكاية الأخرين من الشخصيات الروائية. ويأتي مستوى السرد في حيز الوجود في اللغة العربة في الصيغ التي يستعملها الكاتب، صيغ الغايب أو المتكلم. من هذا القبيل يوزع الدكتور لطيف الزيتوني مستويات السرد في ثلاثة مستويات. "ويمكننا أن نطلق على هذه المستويات تسميات كالمستوى الرئيسي والمستوى الثانوي والمستوى الفرعي. كما يمكننا أن نحدد هذه المستويات بدءأ من أقربها إلينا، فنقول: المستوى الأول والثاني والثالث وهكذا."[340]

مستوى السرد في روايات صنع الله ابراهيم

وفيما يتعلق بالبنية السردية ومستوى السرد في روايات صنع الله ابراهيم، فإنه قد استخدم في معظم رواياته صيغة المتكلم أو الذي يسميه جررا جينيت بـ "التقنية السردية الهوموداثجيتيكية" (Homodeigetic narrative) حيث يشترك السارد كشخصية روائية[341]. في الحقيق إن السارد/ أو الراوي في هذه الروايات كلها

[340] زيتتوني، الدكتور لطيف، معجم مصطلحات نقد الرواية،ص154.

[341] Starkey, Paul, Sonallah iibrahim: Rebel with a Pen, Edinburgh University Press, Uk, 2016, pg. 52.

شخصية رئيسية يلعب دور "البطل المضاد" كما رأينا في الفصل السابق. يتألف هذا القسم من الروايات من "تلك الرائحة" و"نجمة أغسطس" و"اللجنة" و"بيروت بيروت" و"وردة" و"أمريكانلي" و"العمامة والقبعة" و"القانون الفرنسي" و"الجليد" و"التلصص". وإن جميع هذه الروايات تقريبا تتضمن عناصر السيرة الذاتية، وخاصة رواية تلك الرائحة ونجمة أغسطس و'شبه السيرة الذاتية التلصص'.[342] لا شك أن هذه الروايات المذكورة تتضمن الكثير من عناصر السيرة الذاتية، من تجارب الحياة اليومية والتجارب السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي عاشها الروائي، إلا أنه ليس من المناسب أن نقرأ هذه الأعمال كلها كأعمال سيرة ذاتية، لأن العمل الروائي قبل كل شيئ عمل فني قد يتكون من الخيال والواقع. في الحقيقة إننا نرى أن الروائي هو نفسه نحذرن أن نقرأ هذه الروايات كسير ذاتية. "ولكن المشكلة التي ما زالت تلاحقني، ونتيجة أيضا لأعمالي الأخرى، هي ميل القراء إلى اعتبار ما أكتبه واقعا مؤكدا حدث لي. السبب في ذلك بالطبع هو أني أفضل استخدام ضمير المتكلم لما يسبب لي من راحة (ولأني أيضا أميل إلى قراءة الروايات التي تستخدمه) وأني أستعين ببعض المواقف والخبرات التي مررت بها بالفعل، كما أن أغلب أعمالي تشير عادة إلى شخصيات وأحداث حقيقية. لكن ما أكتبه لا يمكن اعتباره من قبيل السيرة الذاتية وبعبارة أخرى، فإذا كنت أستعين ببعض الخبرات الشخصية فإنها تتعرض لكثير من التحريف والتغيير طبقا لأهداف

و زيتوني، الدكتور لطيف، معجم مصطلحات نقد الرواية،ص153،152&154.

[342] Starkey, Paul, Sonallah iibrahim: Rebel with a Pen, Edinburgh University Press, Uk, 2016, pg. 52.

العمل."[343] هذا، وإن عدة من رواياته تماهي كثيرة من سيرته الذاتية، من أمثال تلك الرائحة ونجمة أغسطس وخاصة التلصص. ولقد رأينا فيما سبق في الباب الثاني أن رواية تلك الرائحة بمثابة رواية سيرة ذاتية حيث أن صنع الله ابراهيم كتب هذه الرواية فورا بعد تسريحه من السجن، وكان قد سجن لسبب لالتزامه السياسي اليساري. تستهل الرواية بتسريح البطل السارد من السجن، ولكن القضاء حتم عليه التواجد في المنزل من غروب الشمش إلى شروقها. فيضطر البطل السارد أن يضي ليلة أخرى في الزنزانة لعدم وجود مكانة إقامة له قابل للمراقبة اليومية. إنه واضح أن لهذا الأمر تماهي قوي للسيرة الذاتية لصنع الله ابرهيم. "كنت- عندما كتبت تلك الرائحة"- خارجا لتوي، خاضعا للرقابة القضائية التي تستلزم التواجد في المنزل من غروب الشمش حتى شروقها. وكنت أقضي بقية اليوم في التعرف على عالم ابتعدت عنه أكثر من خمس سنوات."[344]. ورأينا أن الروايتين تلك الرائحة ونجمة أغسطس قائمتان على الأحداث والوقائع والخبرات الحقيقية. إن الروايتين كلتيهما تتضمنان الذكريات عن تعذيب وموت صديق الروائي شهدي عطية الشافعي. وإن رواية التلصص تحمل الكثير من مميزات تماهي بحياة صنع الله ابراهيم.في كثير من النواحي لهذه الرواية يمكن للقاري أن يقرأ الرواية كسيرة ذاتية إلا أن كلمة الرواية على الغلاف هي ما تضمن له فنية العمل. في هذا الصدد يقول "بول استاركي"(Paul Starkey) صاحب Sonallah Ibrahim : Rebel

[343] ابراهيم، صنع الله، مقدمة الطبعة الثالثة، رواية تلك الرائحة، الطبعة الثالثة، دار الهدى للنشر التوزيع، القاهرة،2003،ص 7&8.

[344] مقدمة الطبعة الثانية (على سبيل التقديم)، رواية تلك الرائحة، ص 12.

Edinburgh) الـتي صـدرت عـن مطبعـة جامعـة ادينـبرج with a Pen University Press): إن العمـل معنـون ب"روايـة" علـى الغـلاف، ولكنـه شـأن الكثـير مـن رواياتـه السـابقة، يلـتهم مـن تجـارب الروائـي الذاتيـة، علـى أنـه لـيس بسـيرة ذاتيـة في معـنى الكلمـة[345]. و الكاتـب نائـل الطـوخي يعتقـد أن التمـاهي بـين أحـداث الروايـة و الحيـاة الشخصـية للكاتـب قويـة جـدا. فيقـول "لايمكـن قـراءة روايـة التلصـص لصـنع الله إبـراهيم مـن دون السـؤال عـن مـدي التمـاهي بـين أحـداث الروايـة وبـين الحيـاة الشخصـية لكاتبهـا. في الروايـة كافـة التفاصـيل الـتي تقطـع بأن الحـديث هـو عـن ذلـك الطفـل الـذي أصبح فيمـا بعـد واحـدا مـن أهـم كتـاب جيلـه. كـان هـذا هـو السـؤال الأساسـي الـذي طـرح علـي صـنع الله في النـدوة الـتي عقـدت لمناقشـة الروايـة مـؤخرا في ميريـت، طـرح السـؤال أكثـر مـن مـرة وبأشـكال مختلفـة. كـان صـنع الله يؤكـد علـي أن كلمـة "روايـة المسـجلة علـي غـلاف الكتـاب هـي مـا تضـمن لـه فنيـة العمـل. وذلـك بالمقارنـة بعمـل آخـر وهـو يوميـات الواحـات الـذي يحتـوي بعـض المعلومـات الـواردة في التلصـص بشـكل تسـجيلي مجـرد. يقـول صـنع الله: لم أكتـب أن يوميـات الواحـات روايـة. أمـا في "التلصـص فكتبـت ويضـيف أن الصـورة علـي غـلاف الروايـة هـي صـورة أبيـه، أمـا الطفـل الـذي معـه فقـد يكـون هـو صـنع الله، ولكنـه قـد يكون شخصا آخر من العائلة أيضا"[346]

[345]Starkey, Paul, Sonallah iibrahim: Rebel with a Pen, Edinburgh University Press, Uk, 2016, pg.171.

[346] الطوخي، نائل، الحور المتمدن،1899-2007

وفي البنية السردية تحتل رواية التلصص مكانة مميزة لاسيما لأن صنع الله ابراهيم لجأ إلى استعمال فعل المضارع بدل الماضي للدلالة على سرد الأحداث. ربما للتأثيرا ت التي طبعتها عليه قراءة الروايات الفرنسية. وربما أرادالكاتب بذلك تقريب الذكريات القديمة (أربعينيات القرن العشرين بخاصة) من زمن القارئ وتقصير المسافة بينها وبينه، وكأنه يريد بذلك أن يعطي بعدا حيويا ونابضا . وشيئ مهم يلفت انتباهنا إليه. أن الرواية ثنائية البنى السردية، و كلتا البنيتين السرديتين تستخدمان الفعل المضارع.ولما كانت الرواية قائمة على الذكريات و التذكر فإن استخدام الفعل المضارع أليق و أكثر انسجاما مع الرواية. و فيما يتعلق بالبنيتين السرديتين فواحدة بحرف عادي و الأخرى بحرف غامق. و الأولى تتناول الأحداث التي تقع وقت السرد و الثانية ذكريات عارضة يتذكرها الطفل مع أمه الغائبة، أو مع أشخاص و أحداث مرت به في ماضي يسبق به زمن الحكي. وتتبع رواية التلصص نفس الأسلوب، فالروية مسرودة بضمير المتكلم بـ"التقنية الهومودائجيتيكية"، إلا أن لضمير الغائب في هذه الرواية نصيبا ملحوظا لأن والد الطفل السارد له دور مهم في الرواية. فالرواية تستهل هكذا، "يتمهل أبي في مدخل المنزل قبل أن نخطو إلى الحارة. يرفع يده إلى فمه. يتحسس طرفي شاربه الرمادي الملويين إلى أعلى.يتأكد من أن طربوشه مائل قليلا ناحية اليسار.ينزع سيجارته السوداء المطفأة من ركن فمه. ينفض رمادها عن صدر معطفه الأسود الثقيل. يبسط أساريره لتتلاشى

تجاعيد جبهته. يرسم ابتسامة على شفتيه. يقبض على يدي اليسرى. نلتمس طريقنا في ضوء الغروب."[347]

قد استخدم صنع الله اباهبم في معظم رواياته صيغة المتكلم، ولكنه أيضا استخدم ضمير الغائب أو مستوى السرد المزدوج، كما في رواية ذات وشرف. وفي هذا الصدد إن رواية شرف تحتل مكانة مميزة حيث أنها قائمة على مستوى سردي معقد. فقد قسم الروائي هذه الرواية إلى ثلاثة أجزاء متألفة من تسعة عشر فصلا، مستخدما تقنيات سردية مختلفة. يتألف القسم الأول من اثني عشر فصلا ويحتل نصف الرواية تقريبا ويحكي قصة "شرف" بصيغة الغائب في فصل، ثم بصيغة المتكلم في فصل آخر بالتناوب. يبدأ الفصل الأول بصيغة الغائب، فسارد غائب يسرد يحكي قصة شرف، و الفصل الثاني يستخدم ضمير المتكلم، هكذا يستمر إلى الفصل الثاني عشر. والقسم الثاني المتألف من ثلاثة فصول تتكون من تناص القصاصات. وأما الفصول في القسم الثالث فمثل القسم الأول تتناوب بين وضمير الغائب ضمير المتكلم.

فالسرد في الفصل الأول الذي يستخدم ضمير الغائب يذهب هكذا: **"من المؤكد أن الحذاء ليس هو المسؤل عن المسير الذي آل إليه أشرف عبد العزيز سليمان(أو شرف كما ألفت الأم أن تنادي حبة عينيها)؛ فقد كان مبرمجا، بجيناته الداخلية، والخارجية لما وقع له من أحداث.** ولا يغير من الأمر قصر الطريق الذي قاد

[347] ابراهيم، صنع الله، رواية التلصص،ص1.

مـن كوتشـي إلى "جـون"، ولا مـن الأخـير إلى بـؤر أخـرى."[348] وقـد تم اسـتخدام ضـمير المـتكلم في الفصـل الثـاني. فيـذهب السـرد في الفصـل الثـاني هكـذا: "**أسـلمني** الرقيـب في صـمت إلى حـارس وقـع **باسـتلامي** علـى دفـتر وتبعتـه في ممـر طويـل تضـيئه المصـابيح الكهربائيـة وتتصـاعد مـن جنباتـه رائحـة غريبـة في مـزيج مـن الفنيـك والبـول. **مـررنا** بغـرف خاليـة اكتظـت بالمكاتـب الخشـبية وأضـاعتها شمـس العصـارى، و**نزلنـا** سـلما إلى الطـابق الأرضـي؛ فـأبرز الحـاس حلقـة مـن المفـاتيح الضـخمة فـتح بأحـدها بوابـة مـن القضـبان الحديدية.**انتهزتُ الفرصة لأطلب منه مساعدتي في الاتصال بأهلي.**"[349]

الحبكة ضئيلة جدا في روايات صنع الله ابراهيم

معنى الحبكة

الحبكـة مـن العناصـر الروائيـة المهمـة في الفـن الروائـي. والحبكـة تعـني ترتيـب بناء الأحداث ونظامها.

> "الحبكـة في الروايـة هـي بنيـة الـنص، أي النظـام الـذي يجعـل مـن الروايـة بنـاء متكـاملا. فتسلسـل الأحـداث البسـيط لا يصـنع روايـة، بـل يصـنعها ترتيـب الوقـائع واسـتخلاص النتـائج. فالحبكـة حركـة حيويـة تحـول مجموعـة مـن الأحـداث المتفرقـة إلى حكايـة واخـدة

[348] ابراهيم ، صنع الله، رواية شرف، الطبعة الأولى، درا الهلال، القاهرة، 1997، ص1.

[349] المصدر السابق، ص22.

متكاملة ضمن إطار رئيسي. وهي لا تتكون من ترتيب الظروف وتحولها من حال إلى حال جديدة.

تتقاطع الحبكة في السردية مع مجموعة من المفاهيم تندرج كلها في إطار المصطلحين المتضادين: الحكاية والقصة. فإذا كانت الحكاية هي مادة القصة، أي الأحداث قبل أن تأخذ شكلها الفني في النص المكتوب بمضمونه، وإذا كانت القصة هي النص المكتوب بمضموته ونظامه الفني، فإن الحبكة هي نظام يشيد أجزاء الحدث ويتولى تركيبها وترتيبها في بناؤ متكامل. لهذا ترتبط الحبكة بالزمن لأن أهمية الحدث الفنية ليست بمضمونه بل بموقعه، أي توقيت ذكره. فإذا كانت الحبكة سلسلة أحداث ذات معنى فإن ما يعطي الحدث معناه هو موقعه داخل السلسلة. وتعيين هذا الموقع يخضع لقوانين الزمن الطبيعي والنفسي والفنين أي لا يخضع لنظام ترتيب واحد.[350]

إن الحبكة في روايات صنع الله ابراهيم ضئيلة جدا. الحبكة الضئيلة من التجريب الشكلي في روايات الواقعية الجديدة. فمن قبيل التجريب في الشكل ترك صنع الله ابراهيم الأدوات التقليدية. في هذا الصدد نلاحظ شيئين مهمين. أولا، إن صنع الله ابراهيم يلجأ

[350] زيتوني، الدكتور لطيف، معجم مصطلحات الرواية،ص72.

إلى وصف الأشياء اليومية التافهة. فما أكثر في رواياته استخدام كلمات الاستيقاظ والنوم والأكل والاغتسال والرحلة والذهاب.وثانيا، لما كانت روايته تتمحور حول السارد مضاد البطل فإن التركيز على عالم البطل الداخلي يحلل مشاعره ومواقفه وسمته. وللتعبير عن العالم الداخلي للسارد هجر صنع الله ابراهيم أداة حكبة معقدة متكاملة. فالحبكة في روايته لا تتكون من المميزات التقليدية الواضحة من البداية والوسط والختام. ولا تسرد في ترتيب زمني. كثيرا ما يكسر الترتيب الزمني بتداخل الفلاشباك وتيار الوعي والأحلام. فنرى أن الحبكة الروائية في رواية تلك الرائحة لا تجتاز سرد أحداث ووقائع أيام عديدة بعد خروج البطل من السجن. وتتداخل في معظم الأحداث صورة من الفلاشباك يسترجع به إلى ذكر الأحداث في الأيام الماضية. وكذلك في رواية نجمة أغسطس، إن الحبكة لا تتعدى الأيام المعدودة التي يقضيها السارد في أسوان وابي سنبل. فالسارد يرحل من القاهرة إلى أسوان حيث يستقر لعدة أيام يزور خلالها إلى مواقع بناء السد ويلتقي عدة أصدقائه وينشأ الصداقة مع تانيا، ومن ثم يرتحل إلى أبي سنبل حيث يقيم لعدة أيام ويشاهد نقل معابد رمسيس. ثم يقرر أن يعود إلى القاهرة. وكذلك شأن رواية اللجنة، إن الحبكة ضئيلة جدا. حتى أنه يمكننا أن نلخص النقاك المهمة في جمل معدودة.[351] وكذلك في رواية بيروت بيروت تتكون الحبكة من زيارة السارد إلى بيروت لكي يجد ناشرا لكتابه. يقيم السارد في بيروت لعدة أيام ويلتقي عدة أصدقاء ويعمل في مشروع تحقيق على سينما تسجيلية. ثم يعود إلى القاهرة والرواية تختتم. وأما فيما يتعلق برواية ذات فإن

[351] Starkey, Paul, Sonallah iibrahim: Rebel with a Pen, Edinburgh University Press, Uk, 2016, pg.72.

حبكتها الرواية أيضا صئيلة المنظور التقليدي. تقع أحداث الرواية في عدة سنوات، وتركز على حياة امر أة من الطبقة المتوسطة "ذات".

الفصل الثالث:

المميزات الخاصة في تقنية صنع الله ابراهيم السردية

ومما يميز صنع الله ابراهيم في تقنياته السردية هو استخدام التناص والاسترجاع وتيار الوعي والأحلام، وكذلك السخرية والرمزية.

التناص

معنى التناص

التناص يعني وجود نص في نص آخر، ويتم استخد التناص لأغراض عديدة نحو الاستشهاد والتوازي. "وللتناص، كانعكاس نص في نص آخر,وجوه مختلفة، منها المعارضة (pastiche) والمحاكاة الساخرة (parodie) والتلميح (allusion)

والصـــدى (echo) والاستشـــهاد المباشـــر (citation directe) والتـــوازي في بنـــاء النص(parallelisme structurel).[352]

التناص في رواية صنع الله ابراهيم

إن تقنيـــة التنـــاص ميـــزة مهمـــة في روايات صـــنع الله ابـــراهيم. قـــد ظهـــرت نزعـــة التنـاص عنـده منـذ الروايـة الأولى تلـك الرائحـة. ولـو أن صـنع الله ابـراهيم لم يسـتخدم التنـاص في روايتـه الأولى في صـورة كبـيرة، إلا أنـه مـن خصوصـية لازمـة لـروايات صـنع الله ابـراهيم منـذ البدايـة. وقـد اسـتخدم صـنع الله ابـراهيم التنـاص في صـورة بارزة في روايات ذات وبـيروت بـيروت وشـرف. قـد يكـون التنـاص في هـذه الـروايات مـن القصاصـات والجـذاذات المـأخوذة مـن الصـحائف والمجـلات. وفي روايات ذات يتكـون التنـاص ممـا سـوى القصاصـات مـن الصـحائف والمجـلات، مـن الإعـلانات وخطـب الشخصـيات المهمـة و المعروفـة مـن الـوزراء ورجـال الـدين. تتكـون روايـة ذات مـن تسـعة عشـر فصـلا مشـتملا علـى فصـل سـردي وفصـل وثائقـي. فهكـذا تكـون فصـول التنـاص كميـة كبـيرة مـن هـذه الروايـة، ممـا يبـدي لنـا أهميـة التنـاص عنـد صـنع الله ابـراهيم. وفي رويـة شـرف الصـادرة في سـنة 1997م يتـألف جـزء كامـل، الجـزء الثـاني، مـن التنـاص. يتكـون هـذا الجـزء مـن القصاصـات مـن الصـحف والمجـلات الـتي يقتصـها الـدكتور رمـزي لكـي يعلـم النـاس عـن فسـاد الطبقـة الحاكمـة واسـتغلال الشـركات الكبـيرة الأجنبيـة.وفي روايـة ذات قـد اسـتخدم صـنع الله ابـراهيم التنـاص كـأداة للسـخرية. في الواقـع، إن التنـاص يكـون أداة لازمـة للسـخرية في "ذات" صـنع الله

[352]زيتوني، الدكتور لطيف، معجم مصطلحات الرواية،ص64 .

ابـراهيم؛ وقـد تم اسـتخدامه لكـي يمكـن تصـوير وانتقـاد انعـدام العدالـة والاضـطهاد والفسـاد السـائد في الطبقـة الحاكمـة. قـد اسـخدم الروائـي القصاصـات الواقعيـة مـن الصـحف والمجـلات مزجهـا بقصـة ذات لكـي يزويـد بسـياق، ولكـي يسـخر بالنظـام السياسـي والاجتمـاعي. علـى سـبيل المثـال تقتـبس الروايـة في مكـان قـول الـرئيس حسـني مبـارك قولـه "لا عيـب أن هنـاك فقـراء في مصـر". ولكـن السـياق الـذي وضـع صـنع الله ابـراهيم هـذا الاقتبـاس يجعـل حسـني مبـارك يبـدو بليـدا. لا يزيـد صـنع الله ابـراهيم شـيئا في هـذا الاقتبـاس، بـل يقتبسـه حرفـا بحـرف، وهكـذا ينتقـد مبـارك بكلماتـه هـو. فالـذي يعمـل هـذا الاقتبـاس هـو أنـه يخلـق جـوا مـن المفارقـة: بينمـا كـان الفقـراء ينتظـرون أن يحـل قائـد وطـنهم مشـاكلهم، إن الـرئيس حسـني مبـارك يبـدو غـير مهـتم بشـقائهم، ممـا يجعـل كـل شـئي يبـدو لـدى القـراء عبثـا.[353] وفي هـذا الصـدد تحتمـل روايـة نجمـة أغسـطس مكانـة مميـزة إذ أن صـنع الله ابـراهيم اسـتخدم التضـمينات من كتـاب مائكـل انجلـو للتعبـير عـن المقاومـة ضـد القهـر السـلطوي، كمـا أنـه اسـتخدم التضـمينات مـن الثـائق التأريخيـة علـى المصـر القديمـة للتعبـير أن السـلطة السياسـية في التـأريخ كلـه قائمـة علـى القهـر واسـتخدام القـوة والخديعـة والكـذب. يسـتهدف صـنع الله ابـراهيم عـن طريـق هـذه التضـمينات أن يقـول أن السـلطة الناصـرية قائمـة علـى أسـاس كبـت الحـريات، وأن الحكومـة الناصـرية تعـاني مـن الفسـاد السياسـي والاقتصـادي والخلقـي. "وصـاح العمـال: "نحـن نمـوت جوعـا ولا يـزال أمامنـا ثمانيـة عشـر يومـا حـتى الشـهر

[353] Alkodimi, Dr. Khaled Akbar, SONALLAH IBRAHIM THE VOICE OF RESISTANCE: INTERTEXUALITY, SYMBOLISM AND THR ROOTS OF THE REVOLUTION. INTERNATIONAL JOURNAL OF ENGLISH AND EDUCATION.Volume:2, Issue:4, OCTOBER 3013.

القادم". وتجمعوا في أحد الميادين على مقربة من أحد الصروح يصيحون "لن نعود إلى أعمالنا. أبلغوا هذا إلى رؤسائكم المجتمعين هناك". وتوجه الجائعون جماعات كبيرة نحو الحوانيت ولكنهم لم يحاولوا اقتحامها. وقام أحدهم خطيبا: "لقد جئنا يدفعنا الجوع والعطش.ولم تعد لدينا ملابس نرتديها، و لم يبق لدينا زيت ولا سمك ولا خصار، أرسلوا لسيدنا فرعون أرسلوا لملكينا وسيدنا حتى يعطونا ما يمكننا من الحياة".[354] يمكنا أن نضع هذا الاقتباس مع اقتباس آخر في الرواية عن رمسيس الثاني، "انصتوا إلى كلماتي. ها هي الثروات التي تملكونها. أنا رمسيس الذي أخلق وأهب الحياة للأجيال... إن أمامكم الطعام والشراب وكل ما تشتهيه الأنفس... إني أدعم مركزكم لتقولوا أن حبكم لي هو الذي يدفعكم إلى العمل من أجلي...طالما أنتم على قيد الحياة فأنكم تعلمون من أجلي رجلا واحدا."[355] مما يوضح أن السلطة السياسية (الهدف هنا الحكومة الناصرية) قائمة على الدعاية والكذب.

الاسترجاع/الفلاشباك

معنى الاسترجاع

الاسترجاع أداة تقاطع الترتيب الزمي لسرد أحداث الوقائع. يتم اللجوء إلى الاسترجاع لتداعي ما فات سرده. فهكذا تذهب بنا أداة الاسترجاع إلى الماضي لكي

[354] ابراهيم، صنع الله، رواية نجمة أغسطس، الطبعة الثالثة، دار الفارابي، بيروت، 1980م،ص 155&156.

[355] المصدر السابق،ص195.

يـتم تزويـد الأحـداث المسـرودة بالسـياق والخلفيـة يسـتخد الروائـي تقنيـة الاسـترجاع لكـي يعطـي القـراء المامـا بمشـاعر ووجـدان الشخصـيات. يسـتخد الكتـاب للاسـترجاع أدوات الـذكريات وتراتيـب الأحـلام. "مخالفـة لسـير السـرد تقـوم علـى عـودة الـراوي إلى حـدث سـابق، وهـو عكـس الاسـتباق. وهـذه المخالفـة لخـط الـزمن تولـد داخـل الروايـة نوعـا مـن الحكايـة الثانويـة. لاشـيئ يمنـع أن تتضـمن الحكايـةُ الثانويـة بـدورها اسـترجاعا، أي حكايـة فرعيـة داخـل الحكايـة الثانويـة...أمـا وظيفتـه فهـي غالبـا تفسـيرية: تسـليط الضـوء علـى مـا فـات أو غمـض مـن حيـاة الشخصـية في الماضـي،أو مـا وقـع لهـا خـلال غيابهـا عـن السرد."[356]

قـد اسـتخدم الروائـي صـنع الله ابـراهيم تقنيـة الاسـترجاع فـو معظـم رواياتـه. في الحقيقـة نـرى أن حـدث سـردي في روايـة تلـك الرائحـة مصـحوب بصـورة مـن الاسـترجاع. يرجـع البطـل السـارد إلى ذاكرتـه ويتـذكر الوقـائع والمشـاعر مـن الفـترات قبـل تسـريحه مـن السـجن. وفي تلـك الرائحـة يضـع الروائـي صـور الاسـترجاع في حـروف ايطـاليكي. في هـذه الروايـة تكـون الاسـترجاع جـزءا مهمـا مـن الروايـة حيـث أنهـا تحتـل ربـع الروايـة وخاصـة يأتي في المواضـع الـتي يبـدو البطـل في الأحـوال العاطفيـة والوجدانيـة. تـبرز أهميـة الاسـترجاع في هـذه الروايـة مـن أن معظـم الأحـداث المسـرودة مصـحوبة باسـترجاع. مـثلا عنـدما تلتقـي عينـا البطـل بعيـني بنـت جميلـة في المـترو يتـذكر صـديقته الـتي كـان يحبهـا قبـل أن يعتقـل. "كانـت عيناهـا نجمتـين في فضـاء سـاكن. وكنـت سـابحا في الفضـاء، ضـائعا. وكـان بالليـل عنـدما

[356] زيتوني،ةالدكتور لطيف، معجم مصطلحات الرواية،ص19.

التقت عيوننا. وكانت عيناها تلمعان في الضوء. رأيت صورتي في بياضهما الواسع ورايتها في سوادهما العميق. كان ساعدها عاريا بجواري.وبشرتها مشربة بالحمرة وتبدو ساخنة. واشتقت أن أمد اصبعي وألمس ساعدها قليلا عند استدارته الممتلئة قبل الكتف..."[357]

وفي رواية تجمة أغسطس يرد الاسترجاع بصورة ملموسة. قد جاءت معظم الصور الاسترجاعية في صورة ذكريات البطل عن ماضيه في السجن أو الرحلة إلى السجن وتعذيبه هو وأصدقائه هناك، قد تعطينا الرواية عن طريق الاسترجاع ملاحظات عن الشعور الداخلية في نفس السادر. معظم هذه الذكريات عن الأحوال الوجدانية. فرحلته بالقطار إلى أسوان تذكره برحلة أخرى بالقطار وتلك رحلته هو وأصدقائه إلى سجن مصري. "كانت محطة الجيزة قد اخليت لنا تماما، وهبط عليها سكون شامل لا يقطعه غير صليل السلسلة الوحيدة التي تقيدنا جميعا وفحيح القاطرة التي تنتظرنا، وفي مدخل البناء الذي تضيئه مصابيح باهتة كانت بضع رؤوس تتطلع بفضول ولا تجسر على الاقتراب، وعندما حانت اللحظة أخذوا يدفعوننا بعنف والقيود تحز في أيدينا، وصعنا العربة بلا مصابيح أو مقاعد، وظللنا وقوفا طول الليل إذا أراد أحدنا أن يجلس جر الآخرين معه ووقعوا على وجوههم، وإذا أراد أن يتبول سحبهم معه إلى الركن حيث يحفون به عن يمين وعن يسار..."[358]

---

[357] ابراهيم، صنع الله، رواية تلك الرائحة، ص51&52

[358] ابراهيم، صنع الله، نجمة أغسطس، ص25&26.

تيار الوعي أو المونولوج الداخلية (المناجات الداخلية)

معنى تيار الوعي

إن تيار الوعي من أدوات السرد الحداثية. يستخدم تقنية تيار الوعي لرسم ما يخالجه من مشاعر وعواطف في داخل نفوس الشخصيت الروائية. تستهدف تقنية تيار الوعي سرد الخيالات حينما تمر بذهن الشخصيات. فهكذا يقوم تيار الوعي بقطع الترتيب الزمني لسرد الأحداث الروائية وتتداخل فيما بينها. والذي يسعى الكتاب عن طريق استخدام تقنية تيار الوعي هو تصوير كيف أن هذا العالم متشتت ومفككة، وكيف يمكن لنا تعبير الأفكار الداخلية للذين بعيدون منا. يستهدف تيار الوعي تعبير عن أن الانسان في اغتراب من أنفسهم ولا يعلمون عن أنفسهم إلا قليلا.

تيار الوعي: عبارة أطلقها عالم النفس وليم جيمس()

ليعبر عن الانسياب المتواصل للأفكار والمشاعر داخل الذهن.

واعتمدها نقاد الأدب من بعده لوصف نمط من السرد الحدبث

يعتمد هذا الشكل الانسيابي. برزت الرواية دائما في إبراز تجربة

الفرد الداخلية، ولم تقتصر على نقل الأفكار بل أفسحت في المجال

أمام الاستبطان () فنقلت الانفعالات والأحاسيس والذكريات

والاستيهامات()... ومنذ بداية هذا القرن بدأ مع جيمس

جويس()اتجاه نحو تركيز الواقع في ذهن شخص فرد، عاجز عن

توصيل كامل تجربته إلى الآخرين...هناك تقنيتان لتقديم الوعي الفردي في السرد:

- المناجاة الداخلية وفيها يجري خطاب الراويبضمير المتكلم ولكننا نكتشف أن المتكلم هو الشخصية، لا الراوي، وأنها تستخرج أفكارا تدريجيا كما تخطر لها.

- - الأسلوب غير المباشر الحر، وفيه يجري خطاب الراوي بضمير الغائب وبصيغة الماضي. ولكن هذا الخطاب يتقيد في مفرداته وأسلوبه بما يلائم الشخصية المروي عنها وتغيب عنه العبارات التي تربط الجمل السردي (من نوع: "تساءل"، "فكر في نفسه"،)هذا الأسلوب يعطي القارئ الانطباع بأنه يستمع مباشرة إلى أفكار الشخصية الحميمة من دون أن يتخلى الراوي كليا عن دوره.[359]

استخدم الكتاب عبارتي المونولوج الداخلي وتيار الوعي كمصطلحين مترافين، أولهما فرنسي وآخرهما أمريكي. ولكن العودة إلى التعريفات الأساسي التي وضعها رواد هذا المفهوم السردي تكشف عن تمايزظاهر بينهما.

[359] زيتوني، الدكتور لطيف، معجم مصطلحات الرواية،ص66

أول من استخدم عبارة المونولوج الداخلي كان إدوار دو جاردن() في روايته "الغار المقطوع" () ويعرف جاردن أسلوب المونولوج الداخلي بأنه "الخطاب غير المسموع وغير المنطوق الذي تعبر به شخصية ما عن أفكارها الحميمة القريبة من اللاواعي: إنه خطاب لم يخضع لعمل المنطق، فهو في حالة بدائية، وجمله مباشرة، قليلة التقيد بقواعد النحو، كأنها أفكار لم تتم صياغتها بعد"... وقد حاول ليون ايدل L. Edel في كتابه "القصة السيكولوجية The Psychlogocal Novel" التمييز بين المصطلحين، فدعا إلى تحديد المونولوج الداخلي بالسرد الوجداني الذي يركز وجهة النظر في وعي شخصية واحدة، ويضيق فيه الوعي إلى حدود الخواطر الشخصية، وينحصر فيه التعبير بالكلمات من غير أن يتعداها إلى الصور.[360]

تيار الوعي والمونولوج الجاخلي في روايات صنع الله ابراهيم

قد استخدم صنع الله ابراهيم تيار الوعي والمونولوج الداخلي في رواياته. وذلك من قبيل سعيه أن يتعدى الحبكة الروائية الاعتيادية التقليدية. فإن استخدام أداة تيار الوعي من تجديدات والتجريبات الشكلية في الرواية الجديدة لدى جيل الستينات.

[360] المصجر السابق، ص 163.

استخدم الروائي هذه التقنية كأسلوب التحليل النفسي. قد استخد الروائي تقنية تيار الوعي في رواية التلصص في صورة بارزة جدا. وخاصة حينما يتذكر الطفل السارد عن أمه الغائبة.

وأما المونولوج الداخلي، فإنه في نجمة أغسطس يكون أروع مثال له. حتى أن صنع الله ابراهيم نفسه لم يكتب بعده مثل هذا. المونولوج الداخلي في رواية نجمة أغسطس يشتمل على اثني عشرة صفحة، ويتكون من جملة واحدة مع استخدام كلمات العطف ومن دون علامات الوقف. ويتألف هذا المونولوج من كل من السرد والأحلام والتضمينات.

تكاثف الغبار وأشرفت قافلة القابلات على هوة المحجر الهائلة التي تألف جدارها من ثلاثة طوابق برز من منها شريط ضيق من الأرض استقرت فوقه حفارة كبيرة نقشت الحروف الروسية التي تشكل اسم الاتحاد السوفياتي على صندوقها الذي كان يدور فوق محوره في حركة سريعة وجرسه يدق محذرا وتدور معه الذراع الطويلة التي تنتهي بالكباشة ذات الأنياب الحديدية البارزة وتزمجر الآلة وتصر تروسها ثم يتوقف الصندوق عن الدوران وتمتد الذراع إلى الجبل وقد ازدادت طولا على وطول حتى تصطدم بسفحه الجرانيتي أكثر الصخور شيوعا وأساس القارات جميعا الذي تكون من مواد مصهورة صعدت من أعماق الأرض تجمدت عندما تعرضت للجو فتبلورت معادنها وتلاصقت دون أن تترك مكان لفراغات الهواء فأصبحت وسلة الضغط الأولى في بناء السد بعد أن

استخدم في بناء خزان أسوان ونحت منه مختار تمثال نهضة مصر وقبل ذلك نحت منه الفراعنة أبا الهول ومن ترسب فتاته تكون الحجر الرملي الذيبني منه رمسيس الثانيسلسلة معابده على شاطئ النيل بعضها شيد تشييدا والبعض الآخر نحت في الصخر الحي وتصدرته تماثيل فرعون في حجم خرافي يتطلع باسما إلى حيث تشرق الشمس لأنه كان يخشى غروبها في العالم السفلي وتضرع لأمون استجب لابتهالي يا أبي وسيدي اجعل الخصوبة تتفتح في كل أعضائي ولعلفي مقدورك أن تمنحني الملك لمأتي عام وقرنا بعد قرن هبت الرياح محملة بالرمال..."[361]

[361] رواية نجمة أغسطس، ص124&125.

نتائج البحث

إن صنع الله ابراهيم من أبرز نجوم لـ"جيل الستينات". تحت تأثير الأحوال السياسية السلبية السائدة في مصر وكذلك بحكم تأثرهم بقراءاتهم في الأداب الغربية أحس هذا الجيل بالضرورة الملحة في التغيير في الشكل والرؤى في الرواية العربية. جاء التغيير الجديد لدى هذا الجيل بعد نكسة 1967م، إلا أن صنع الله ابراهيم كان قد تمرد على رؤية وأسلوب الرواية الواقعية الجديدة قبل 1967م في روايته "تلك الرائحة" التي صدرت في سنة 1966م. مهم في هذا الصدد أن هذه الرواية تناقش الفن وواجبه أيضا حينما يسخر بنظرية "موبسان" أن الفن يجب أن يرسم عالما أجمل من عالمنا. وترجع أهمية هذه الرواية أنها أعلنت عما وكيف يريد صنع الله ابراهيم أن يكتب. ومهم جدا أن الروائي لم يغير من موقفه بعد نقد الكاتب الكبير يحيى حقي على هذه الرواية. فيمكننا أن نستخلص أن الروائي، على الرغم من كونه في العقد الثالث من عمره، كان واثقا مما أحدث من تغيير في الشكل والرؤى في روايته. وبالنسبة للتجريب الشكلي أحدثت هذه الرواية تغييرين أصبحا فيما بعد خصوصية مميزة في رواية جيل الستينات، وهما التناص والبطل المضاد بدلا من البطل التقليدي.كان مضاد البطل أليق للتعبير عن المناخ السلبي الذي تواجد في المجتمع المصري وقتذاك. وكما أن الرواية تتسم بأسلوب جديد لا يهتم بالترصيع والتجميل في اللغة وانتقاء المترادفات. وإنما الهم التعبر عن القبح بالقبح. فعمدا أو غير عمد تتواجد في هذه الرواية الركاكة أيضا، ربما للتعبير عن القبح بالقبح. ولكن من الناحية الأخر ى، إن الأسلوب الذي استخدمه الروائي في هذه الرواية جميل مختلب،

وخاصة لأن الرواية تعتمد على جمل قصيرة حادة. علينا أن نلقي نظرة على هذه الجمل في مستهل الرواية. "قال الضابط: ما هو عنوانك؟ قلت ليس لي عنوان. تطلع إلى في دهشة: إلى أين ستذهب أو أين تقيم؟ قلت" لا أعرف. ليس لي أحد. قال الضابط: لا لأستطيع ان أتركك هكذا. قلت: لقد كنت أعيش بمفردي. قال: لا بد أن نعرف مكانك لنذهب إليك كل ليلة. ليذهب معك عسكري. وهكذا خرجنا إلى الشارع أنا والعسكري. وتلفت حولي في فضول.هذه هي اللحظة التي كنت أحلم بها في السنوات الماضية." فعن طريق التغيير في الشكل والرؤى نجحت الرواية في التعبير عن الشعور بالإحباط والاغتراب.

إن رواية تلك الرائحة تتمحور على القمع الساسي في الفترة الناصرية، فإن البطل السارد للرواية يصادم بعد الانصراف إلى الحياة المدنية، بحقيقة سياسية لا يستطيع التعامل معها، فنراه في لحظة صدام بين الحلم والواقع، يواجه أزمة الحرية ويسقط في الفجوة العميقة بين رومانسية العمل الثوري وواقعية الحياة الآلية البليدة التي تمضي دون اعتبار لتضحياته، مما يدفعه إلى شعور عنيف بالاغتراب، ويعيش بعد ذلك حياة بلا هدف، لا يفعل شيئا سوى الاستمناء، لأنه لا يستطيع أن يكتب، كما لايستطيع أن يمارس الجنس. قد كان جمال عبد الناصر دون شك أحب وأعز وأشهر شخصية عربية في العالم العرب بأسره، فقد ولج بقوة بالغة الامبريالية الغربية في قناة السويس عام 1956 وأمم القناة، وكان في مقدمة قيادة حركة "العروبة" ومضادة الصهيونية، وكان يتمتع بتأييد شعبي واسع في البلدان العربية، إلا أن رواية "تلك الرائحة" تدعي بأن سحر

جمال عبد الناصرأصبح يذبل في الستينات من القرن العشرين، وعن طريق منزل البطل كسجين يدعي صنع الله أن شعبية عبد الناصر قاصرة على القمع وكبت حرية التعبير والدعاية.

تواصل رواية "نجمة أغسطس" تصوير السياسة القمعية في الفترة الناصرية. ترصد هذه الرواية للتناقض بين مشروع بناء "السد العالي" الذي يستهدف تحديث وتعصير وتصنيع وتنمية مصر وواقع الأحوال السياسية المصرية من الاستبدادية والأوتوقراطية والقمع واستخدام القوة والعنف وانعدام الديمقراطية وانعدام العدالة الاجتماعية. والذي نعثر عليه في جميع نواحي الرواية هو غلبة القمع السلطوي والقهر، وتفشي الفساد بين الطبقة السائسة الحاكمة، والطبيعة المفسدة للسلطة السياسية، والاستغلالية والنفعية، وعموم الإحساس بالإحباط والتسلط، وتفشي الكذب والخديعة في هذه الظروف الاستبدادية المطلقة.

وفيما يتعلق برواية "اللجنة" فإنها تتوخى تصوير الأحوال الاجتماعية والسياسية المصرية التي تغيرت كثيرا بعدما ما جاء الرئيس السابق المصري مُحَمَّد "أنور السادات" بتغييرين مؤثرين في السياسة المصرية: سياسة الانفتاح واتفاقية السلام مع اسرائيل. في الحقيقة رواية "اللجنة" هجاء ساخر لسياسة الانفتاح التي تم تبنيها وتنفيذها في عهد السادات. وفي هذه الرواية يقف مثقف يساري أمام محكمة كافكاوية، حيث يتعرض لامتحان على ثلاثة مراحل، يوضح من خلالها دور الشركات الكبرى المتعددة

الجنسيات، كشركة كوكا-كولا في استغلال مصر، والآثار السلبية لسياسة السادات الاقتصادية، كالفساد والاستغلال، وتزايد النفوذ الأمريكي. ومن باب التهكم تجعل الرواية القاص يلتهم نفسه في النهاية بدلا من أن يتمرد . يصور صنع الله إبراهيم في هذه الرواية أن سياسة الانفتاح أسفرت عن إفقار الشرائح الدنيا، كما أنها أدت إلى تدخل القوات الاستعمارية الغربية في السياسة المصرية. ولم تفد سياسة الانفتاح إلا القلائل من طبقة المقاولين الذين ترقوا عن طريق الفساد. وكما أن الرواية تصور التآمر بين االطبقة الحاكمة المصرية والشركات الأجنبية لاستغلال مصر.

ورواية "ذات" تحفل بالسخرية السوداء الواردة فيها والتعليقات المتهكمة التي توجهها إلى الحياة المصرية الحديثة. واصل الروائي في هذه الرواية تطوير مشروعه التجريبي في الشكل الروائي فنلمح فيها تقنية التناص والوثائقية التي ظهرت لديه في كل من "تلك الرائحة" و"نجمة أغسطس" و"اللجنة" على أوجها. وإن رواية "ذات" تعالج قضيتين مهمتين في المجتمع المصري، قضية التناقض الطبقي ومظاهر الاستهلاكية الفاخرة. فإن الفصول السردية والوثائقية كلتيهماتهتمان بتصوير ونقد اللامساواة والاضطهاد وفساد الطبقة الحاكمة، والقصاصات الأخبارية وقصة حياة ذات كلتاهما تستهدفان السخرية بالنظام السياسي والمناخ الاجتماعي والاقتصادي. يقدم صنع الله إبراهبم عن طريق قصة ذات والقصاصات كيف يعاني المجتمع المصري من الفساد السياسي والاقتصادي، والفقر واللامساواة وكيف أن الطبقات المهمشة تعاني من الاضطهاد الطبقي واللااعتناء السياسي، وكيف أن الطبقة الحاكمة همها الأساسي جمع وادخار الأموال ولو على

حساب الوطن والفقراء والمساكين. فذات واصدقائها وأقربائها من الطبقة المتوسطة تعاني من اللامساواة في كل مجال من مجالات الحياة، نمط الحياة والتعليم والصحة والأجور والسكن. وفيما يخص بنمط الحياة والسكن فإن الرواية تقدم التناقض والتباين بين الحياة التعيسة التي تعيشها ذات والطبقات الفقيرة والحياة الفاخرة الرغيدة التي تتمتع بها الطبقة الرأسمالية الحاكمة من الساسة ورجال الأعمال والقدوة الدينية. وعلاوة على التناقض الطبقي تعالج هذه الرواية النزعة الاستهلاكية التي غزت المجتمع المصري في أعقاب سياسة الانفتاح. يصور صنع الله ابراهيم في هذه الرواية أن المظاهر الناتجة من سياسة الانفتاح حولت مصر إلى مجتمع استهلاكي ظلت آثارها عليها لمدة طويلة. فبدلا من أن تؤدي هذه السياسة ونظام السوق الحر إلى حل مشاكل المجتمع المصري، إنما خلقت لها مشاكل كثيرة منها الاستهلاكية الضخمة. يستخدم صنع الله ابراهيم الرمزية لانتقاد هذه الاستهلاكية الفاخرة والمجتمع المصري الجديد الاستهلاكي حيث أصبحت الأزياء والمظاهر الخارجية أهم علامات طبقة ما . ففي بحثها عن الهوية الاجتماعية تندفع ذات إلى أهمية المظاهر الخارجية في مجتمع مهوس بالأزياء والموضات حيث الهوية تتفق مع الاستهلاك. فإذا كانت عملية الهدم والبناء (الرمز إلى الأزياء المظاهر الخارجية الجديدة من الاجهزة الالكترونية وتجميل البيت) أهم رموز الاستهلاك فإن ذات تلفت اهتمامها إليهما. عملية الهدم والبناء تمثل أوج الاستهلاكية والاعتناء بالأزياء والمظاهر الخارجية والفناء للسلع الجديدة. فعملية استهلاكها متأثرة بعملية الهدم والبناء في جيرانها حيث أنها رمز مهم للمنزلة الاجتماعية خلال ذلك.

وروايـة "شـرف" تحكـي قصـة أشـرف عبـد العزيـز سـليمان. شـرف شـاب في أوائـل العشـرين مـن عمـره ينتمي أسـرة مـن الطبقـة المتوسـطة الـتي شُـو ّهت حياتهـا بعوامـل الانفتـاح الاقتصـادي ونظـام السـوق الحـرة والخصخصـة والعولمـة والسياسـات النيولبراليـة. يـدور معظـم القصـة في السـجن حيـث يكتشـف عـالم الفسـاد والرشـاوى وأنـواع انتهـاك الحقـوق البشـرية. يمثـل عـالم شـرف في السـجن مـرآة عاكسـة للـدنيا خـارج السـجن المتوزعـة بـين طبقـات مالكـة و غـير مالكـة، حيـث يضـطر الجميـع إلى دفـع الرشـاوى لكـل مـا يريـدون أن يأكلـوا أو لكـل حركـاتهم في السـجن. و كـذلك، تعـبر الروايـة عـن كيفيـة قيـام الحالـة الاقتصـادية بأهـم الـدور في الحصـو ل على العدالـة و الحقـوق. وأكثـر مـا يهـم في هـذا الصـدد أن الروايـة ترصـد، إضـافة إلى الموضـوع الرئيسـي – شـرف الفـرد المصـري والمجتمـع المصـري- لمعظـم القضـايا الاجتماعيـة والسياسـية مـن البطالـة والعطالـة، والفقـر والبـؤس والتكـاليف المعيشـية المتصـاعدة، والأصـولية والتطـرف في الـدين والعنـف باسـم الـدين، والأزمـات السياسـية والاجتماعيـة والاقتصـادية الـتي جلبهـا المتطرفـون في فهـم الـدين، كمـا أنهـا ترصـد لفسـاد رجـال السياسـة والأعمـال و البيـوروقراطيين و إهمـالهم لمصـالح الطبقـات المهمشـة والـوطن لمصـالحهم الذاتيـة وقلـة ولاء الطبقـة الحاكمـة إلى الـوطن، إضـافة إلى غـزو العولمـة والاستعمار الجديـد على المجتمـع المصـري و العـربي وتواطـؤ الحكـام العـرب مـع القـوات الغربيـة المستعمرة في هذا.

ومـا سـبق في هـذا البحـث يتضـح لنـا أن المصـاعب الاقتصـادية و تكـاليف المعيشـة و مشـاكل الحيـاة مـن جـراء السياسـات الاقتصـادية السـيئة قـد تكـون الهـم الأساسـي و

الفكرة المركزية في معظم روايات صنع الله ابراهيم. فمن هذا المنطلق تحتل رواية "التلصص" مكانة مميزة بين روايات صنع الله ابراهيم لأنها أقل سياسية و أكثر ذاتية بالنسبة إلى معظمها حيث أن هذه الرواية تلج العالم الذاتي للبطل السارد الطفل وأبيه وعلاقتهما مع الجيران. إن الرواية ترسم المجتمع المصري والحكومة المصرية من وجهات عديدة من ثرثرة الناس على الشوارع و نكاتهم عن الملك والقصر وأحاديثهم عن السياسة والساسة وتصوير الدور الذي يلعبه الكتاب والعلماء والصحافة، وتظاهرات الناس والطلاب والنساء ونشاطات الإخوان المسلمين- "يتساءل "علي صفا" يا ترى الإخوان المسلمين ناويين يقتلوا مين بعد وكيل محكمة الاستئناف. وترينا الحقائق المرة التي تمتلئ بالنفاق والزيف والخداع على لسان صبئ برئ، كما أنها تضم الإشارات والتلميحات إلى الكثير من الحوادث و الحقائق السياسية والاجتماعية و الاقتصادية من الأسعار الباهظة والمصاعب الاقتصادية وتكاليف المعيشة الغالية جدا إلى الحرب في فلسطين والكفاح لإجلاء الانجليز وتظاهرات الطلاب ضد الانجليز والملك في وقت واحد. والرواية تكشف عن التناقضات المتواجدة في المجتمع من الناحية الأخري التي تناقض كلا من الدين و العقلانية الحديثة لأن المعتقدات الشعبية و الخرافات الشائعة تكون جزءا مهما من عادات وأخلاق المجتمع حتي الآن. فهذا "ماجد" أفندي يتزوج من جنية تبدل شكلها حسب رغبته.

المصادر والمراجع

إبـراهيم، صـنع الله، تلـك الرائحـة وقصـص أخـرى، دار الهـدى للنشـر والتوزيـع، الطبعـة الثالثة، 2003.

إبراهيم، صنع الله، نجمة أغسطس،درا الفارابي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1980.

إبراهيم، صنع الله، اللجنة، مطبوعات القاهرة، الطبعة الثانية، 1982.

إبـراهيم، صـنع الله، ذات، دار المسـتقبل العـربي، مصـر الجديـدة، القـاهرة، الطبعـة الثالثـة، 1998.

إبراهيم، صنع الله، شرف، دار الهلال، القاهرة، 1997.

إبـراهيم، صـنع الله، يوميـات الواحـات، دار المسـتقبل العـربي، مصـر الجديـدة، القـاهرة، الطبعة الأولى، 2003.

إبراهيم، صنع الله، التلصص، دار المستقبل العربي، مصر الجديدة، القاهرة، 2007.

إبـراهيم، صـنع الله، القـانون الفرنسـي، دار المسـتقبل العـربي، مصـر الجديـدة، الطبعـة الأولى، 2008

إبـراهيم، صـنع الله، وردة، دار المسـتقبل العـربي، مصـر الجديـدة، القـاهرة، الطبعـة الأولى، 2008.

إبـراهيم، صـنع الله، بـيروت بـيروت، دار المسـتقبل العـربي، مصـر الجديـدة، القـاهرة، الطبعـة الأولى، 1984.

إبـراهيم، صـنع الله، العمامـة والقبعـة، دار المسـتقبل العـربي، مصـر الجديـدة، القـاهرة، الطبعـة الأولى، 2008.

إبـراهيم، صـنع الله، أمريكـاني، دار المسـتقبل العـربي، مصـر الجديـدة، القـاهرة، الطبعـة الأولى، الطبعة الأولى، 2003.

إبراهيم، صنع الله، الجليد، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2011.

العـالم، محمـود أمـين، ثلاثيـة الـرفض والهزيمـة،: دراسـة نقديـة لـثلاث روايات صـنع الله إبـراهيم، تلـك الرائحـة، نجمـة أغسـطس، اللجنـة، دار المسـتقبل العـربي، مصـر الجديـدة، القاهرة، الطبعة الأولى، الطبعة الأولى، 1985.

عطيـة، أحمـد مُحَّد، الروايـة السياسـية، دراسـة نقديـة في الـروايات السياسـية العربيـة، مكتبـة مدبولي، القاهرة، 1981.

عبدالقادر، فاروق، في الرواية العربية المعاصرة، دار الهلال، القاهرة،1951

وادي، الدكتور طه، الرواية السياسية، الشركة المصرية العالمية للنشر-لونجمان، 2008.

البحـراوي، سـيد، الأنـواع النثريـة في الأدب العـربي المعاصـر: أجيـال وملامـح، الجـزء الأول، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2003.

شحيد، دكتور جمال، الذاكرة في الرواية العربية المعاصرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2011.

صالح، فخري، في الرواية العربية الجديدة، دار العين للنشر، الطبعة الأولى، 2010.

الورقي، الدكتور السعيد، اتجاهات الرواية العربية المعاصرة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2014.

فريد، دكتور ماهر شفيق، في الأدب والنقد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، 2007.

أبو عوف، عبد الرحمن، أوراق نقدية في الأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، 2006.

أبو عوف، عبد الرحمن، فصول في النقد والأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، 2009.

السكوت، حمدي، الرواية العربية، ببليوغرافيا ومدخل نقدي 1965-1995، الجامعة الأمريكية بالقاهرة، القاهرة، 2000.

فضل، الدكتور، صلاح، أساليب السرد في الرواية العربية، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، 2003.

الخطيب، أحمد موسى، الحساسية الجديدة؛ قراءات في القصة القصيرة، الأردن، الطبعة الأولى، 2008.

زيتـوني، الـدكتور لطيـف، معجـم مصـطلحات نقـد الروايـة، دار النهـار للنشـر، بـيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2002.

مـرتاض، عبـد الملـك، في نظريـة الروايـة: بحـث في تقنيـات السـرد، المجلـس الـوطني للثقافـة والفنون والآداب، الكويت، 1998.

أمـين، جـلال، وصـف مصـر في نهايـة القـرن العشـرين، دار الشـروق، القـاهرة، الطبعـة الأولى، 2000.

عـودة، الـدكتور مُحَمَّد عبـد الله، والخطيـب، إبـراهيم ياسـين، تاريـخ العـرب الحـديث، الأهليـة للنشر والتوزيع، عمان، 1989.

أمـين، الـدكتور جـلال، مـاذا حـدث للمصـريين، تطـور المجتمـع المصـري في نصـف قـرن 1945-1995، دار الشروق، 2013.

الأنصـاري، الـدكتور ناصـر، المجمـل في تاريـخ مصـر؛ الـنظم السياسـية والإداريـة، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثانية، 1997.

فضـل، الـدكتور صـلاح، منـاهج النقـد المعاصـر ومصـطلحاته، ميريـت للنشـر والمعلومـات، القاهرة، الطبعة الأولى، 2002.

محـذر، سـامية، أطلـس القـاهرة الأولى، مائـة عـام في شـوارع القـاهرة، دار الشـروق، الطبعـة الثانية،2012.

أمين، جلال، ماذا حدث للثورة المصرية: أسباب ثورة 25 يناير 2011، دار الشروق، الطبعة الثانية، 2013.

زهري، الدكتور أيمن، دفتر أحوال المجتمع المصري، مطابع الولاء الحديثة، 2006.

العيد، يمنى، تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي، دار الفارابي، الطبعة الثالثة، 2010.

العيد، يمنى، الراوي: الموقع والشكل، بحث في السرد الروائي، مؤسسة الأبحاث الروائية، بيروت، الطبعة الأولى، 1986.

مفقودة، الدكتور صالح، أبحاث في الرواية

العيد، يمنى، في معرفة النص، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1985.

عبد الرحيم، مُحَمَّد عبد الرحيم، دراسات في الرواية العربية، دار الحقيقة للإعلام الدولي، 1991.

العالم، محمود أمين، معارك فكرية، دار الهلال، 1970.

المجلات والدوريات:

كاهه، علي رضا وآخرون، الواقعية الجديدة ومكوناتها في رواية "نجمة أغسطس" مجلة دراسات في العلوم الإنسانية، 2012/1235.

بـرويني، خليـل وآخـرون، بنـاء الروايـة في نجمـة أغسـطس لصـنع الله إبـراهيم، مجلـة إضـاءات نقدية (فصلية محكمة) 2014/1393.

آرمـن، سـيد إبـراهيم ونهـاد، زهـرا باك، تيـار الـوعي في "التلصـص" لصـنع الله إبـراهيم، الـتراث الأدبي، السنة الثانية، العدد الثامن، 2017/24104.

الطـاهر ي، بديعـة، عنـف المتخيـل والواقـع، قـراءة في روايـة اللجنـة لصـنع الله إبـراهيم، وزارة الثقافة المغربية، 2009-2017.

الحصري، أحمد، كوكا كولا "زجاجة تحكم العالم" مصر، ديسمبر، 2015.

حمـداوي، جميـل، السـخرية في روايـة اللجنـة لصـنع الله إبـراهيم، الحـوار المتمـدن، العـدد 1714-2006.

النجـار مصـلح عبـد الفتـاح، حـول حقيقـة اللجنـة في روايـة اللجنـة، منتـديات اسـتار تايمـز، 2008.

عقال، جهاد، صنع الله إبراهيم: المقام الحر، الحوار المتدن، العدد: 1038/2004.

المراجع الانجليزية

Alam, Anwar, Liberalization, Islamic Movement and Democracy in Contemporary Egypt, in Bari, Zahurul (ed.), *Modern Egypt: Culture, Religion and Politics,* Shipra, Delhi, 2004.

Badawi, M. M., *A Short History of Modern Arabic Literature*, Clarendon Press, Oxford, 1993.

Bari, Zahurul (ed.), *Modern Egypt: Culture, Religion and Politics*, Shipra, Delhi, 2004.

Hopwood, Derek, *Egypt: Politics and Society 1945-1981*, George Allen & Unwin, London, 1983.

Lefebvre, Henri, *Everyday Life in the Modern World*. Trans. Sacha Rabinovitc, Athlone, London, 2000.

Marsot, Afaf Lutfi Al-Sayyid, *A History of Egypt: From the Arab Conquest to the Present,* Second Edition, Cambridge University Press, UK, 2007.

Masoud, Tarek, Egypt, in Ellen Lust (ed.). *The Middle East,* Sage Publication, New Delhi, 2014.

McDermott, Anthony, *Egypt from Nasser to Mubarak: A Flawed Revolution,*Croom Helm, London, 1988.

Mehraz, Samia, *Egyptian Writers between History and Fiction: Essays on Naguib Mahfouz,* Sonallah Ibrahim, and Gamal al-Ghitani, American U in Cairo P, Cairo, 1994.

Mehrez, Samia, *Egypt's Culture Wars: Politics and Practice*, Routledge, Landon, 2008.

Rahman, Fazzur, Changing Dynamics of Muslim Brotherhood in Egyptian Politics, in Anwar Alam (ed.). *Contemporary West Asia: Politics and Development,* New Century Publications, New Delhi, 2010.

Sawant, Ankush B., The State and Society in Mubarak's Egypt, in Bari, Zahurul (ed.), *Modern Egypt: Culture, Religion and Politics*, Shipra, Delhi, 2004.

Umari, Muhammad Salahuddin, Religious Deviations and Cultural Themes in Modern Arabic Litrature of Egypt, in Bari, Zahurul (ed.), *Modern Egypt: Culture, Religion and Politics*, Shipra, Delhi, 2004.

Vatikiotis, P. J. ,*The Middle East: From the End of Empire to the End of the Cold War,* Routledge, Landon, 1997.

Vatikitis, P. J. *The Modern History of Egypt*, Weidenfeld and Nicolson, London, 1969.

Starkey, Paul, *Sonallah Ibrahim: Rebel with a Pen,* Edinburgh University Press, Edinburg, 2016.

Meyer, Stefan G., *The Experimental Arabic Novel: Postcolonial Literary Modernism in the Levant*, State University of New York Press, New York, 2001.

DiMeo, David, *Committed to Disillusion: Activist Writers in Egypt from the 1950s to the 1990s*, The American University in Cairo Press, Cairo, 30 July 2016.

Assadi, Jamal and ‘Alia Al- Kassim Abu Reesh, *Narratives levels in Son’allah Ibrahim’s Sharaf,* IOSR Journal of Humanities and Social Sciences, Vol. 22, Issue 3, Ver IV (March. 2017) pp.21-30.

Creswell, Robyn.,*Sonallah Ibrahim: Egypt’s Oracular Novelist,PAGE-TURNER*, AUGUST 20, 2013.

Myers, Richard K., *The Problem of Authority: Franz Kafka and Nagib Mahfuz,* Journal of Arabic Literature, Vol. 17 (1986), pp. 82-96. http:// www.jstor.org/stable/4183134. Accessed 20 Sep. 2016.

Jr. Crabbs, Jack, *Politics, History, and Culture in Nasser’s Egypt*, *International Journal of Middle East Studies,* Vol.6, No. 4 (Oct.1975), pp.386-420, Cambridge University Press, http:// www.jstor.org/stable/162751 Accessed 13 Apr. 2016.

Stone, Christopher. *Georg Lukacs and the Improbable Realism of Sun’s Allah Ibrahim’s The Committee,*Journal of Arabic Literature, Vol. 41, No. ½, From Orientalists to Arabists: The Shift in Arabic Literary Studies, Eassys Dedicated to Roger Allen (2010). Pp. 136-147. http:// www.jstor.org/stable/20720607. Accessed 1 Mar. 2016.

Rakha, Youssef. *InExtremis: Literature and Revolution in Contemporary Cairo (An Oriental Eassy in Seven Parts),*The Kenyon Review, New Series, Vol. 34, No. 3 (Summer 2012), PP. 151-166. http:// www.jstor.org/stable/23266370. Accessed 20 Apr. 2016.

Hafez, Sabry, *The Transformation of Reality and the Arabic Novel’s Aesthetic Response,,* Bulletin of the School of Oriental

and African Studies, University of London, Vol. 57, No. 1,, In Honour of J.E.Wansbrough (1994), pp. 93-112. http:// www.jstor.org/stable/619498. Accessed 13 Apr. 2016.

Draz, Ceza Kassem, *In Quest of New Narrative Forums : Irony in the Works of Four Egyptian Writers: Jamal al-Ghitani, Yahya al-Tahir 'Abdallah, Majid Tubya, Sun'allah Ibrahim* (1967-1979), Journal of Arabic Literature, Vol.12 (1981), pp. 137-159. http:// www.jstor.org/stable/4183051. Accessed 14 Oct. 2016.

England, Sam, Review, *The Arab Studies Journal*, Vol.11/12, No. 2/1 (Fall 2003/spring 2004), pp.115-118. http:// www.jstor.org/stable/27933871. Accessed 20 Apr. 2016.

Heyworth-Dunne, J., Society *and Politics in Modern Egyptian Literature: A Bibliographical survey*, Middle East Journal, Vol. 2, No. 3 (Jul, 1948), pp.306-318. http://www.jstor.org/stable/4321990. Accessed 1 Mar. 2016.

Alkodimi, Khaled and Omar, Dr. Noritah, *Sonallah Ibrahim and Martin Amis : The Quest for Self in the New Market trends*,International Journal of Language and Literature, June 2015, Vol. 3, No.1, pp.180-191. DOI: 10.15640/ijll.v3n1a23.

Alkodimi, Khaled Abkar, *Sonallah Ibrahim The Voice of Resistance: Intertextuality, Symbolism and the Roots of the Revolution*,International Journal of English and Education. Vol. 2, Issue: 4, Oct. 2013. Accessed 22 Apr. 2016.

Bagley, F.R.C., *Egypt under Nasser*, International Journal, Vol. 11, No. 3 (summer, 1956), pp. 193-204. http:// www.jstor.org/stable/40198229. Accessed 9 Jan. 2017.

Naaman, Mara, *America Undone: Sonallah Ibrahim's Intra-Imperial Investigations*, Alif: Journal of Comparative Poetics, No.26, Wanderlust: Travel Literature of Egypt and the Middle East (2006), pp 71-93. http://www.jstor.org/stable/30197944. Accessed 20 Apr. 2016.

Kassem-Draz, Ceza, *Opaque and Transparent Discourse: A Contrastive Analysis of the <Star of August> and <The Man of the High Dam> by Son' Allah Ibrahim*, Aif-Journal of Comparative Poetics, No.2, Criticism and the Avant-Garde, (spring,1982), pp.32-50. http:// www.jstor.org/stable/521736. Accessed 20 Apr. 2016.

Hassan, Hamdy A., *State versus society in Egypt: Consolidating democracy or upgrading autocracy,*African Journal of poitical Science and International Relations, Vol. 4(9). Pp. 319-329, Dec. 2010. Accessed 24 Mar. 2017.

المحتويات

تقديم 1

الباب الأول: 15

صنع الله إبراهيم: عصره وحياته وأعماله 15

الفصل الأول: 16

الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية المصرية في عصر صنع الله ابراهيم 16

الأحوال السياسية 31

السياسة الخارجية 31

حرب 1973م 33

الأحوال السياسية الداخلية 35

الأحوال الاقتصادية والاجتماعية 37

الفصل الثاني 43

حياة صنع الله ابراهيم 43

التعليم والدراسة والنشاطات السياسية 47

جوانب أخرى من حياته 55

ميلانه إلى الأدب القصصي والروائي: 56

الفصل الثالث 60

أعمال صنع الله ابراهيم 60

الباب الثاني 76

القضايا السياسية كما تصورها روايات صنع الله ابراهيم 76

الفصل الأول..... 77

القمع السياسي في الفترة الناصرية 77

كما تصوره رواية "تلك الرائحة" 77

الخلفية السياسية والأدبية للرواية..... 79

aالنشر والطبع للرواية 82

ملخص القصة 85

تصوير السياسة القمعية في رواية "تلك الرائحة"..... 87

الفصل الثاني 95

مشاريع تنمية مصر وانعدام الحقوق الأساسية..... 95

السياسة المصرية كما تصورها رواية "نجمة أغسطس"..... 95

السد العالي 99

الرواية وجيزا..... 100

تلخيص القصة 103

التصوير السياسي في رواية "تجمة أغسطس"..... 106

تعبير المقاومة بالإبداع 121

الفصل الثالث:..... 124

السياسة المصرية في ظل الانفتاح والعولمة كما تصورها رواية "اللجنة"..... 124

تلخيص القصة 127

الأحوال السياسية المصرية كما تصورها رواية "اللجنة"..... 130

البطل 131
كوكاكولا والامبريالية 133
الدكتور 139
اللجنة 143
الباب الثالث: 147
القضايا الاجتماعية كما تصورها روايات صنع الله ابراهيم 147
الفصل الأول: 148
المجتمع المصري بعد الانفتاح كما تعكسه رواية "ذات" 148
القصة 149
الفصل الثاني: 170
القضايا الاجتماعية كما تصورها رواية "شرف" 170
العولمة وسياسة الانفتاح 179
عموم الفساد من أقسام كثيرة 183
العنف الديني في العصر الحديث 186
رواية "التلصص" لصنع الله ابراهيم 195
.رواية "التلصص" بين الذاتية والسياسية 198
القصة 200
معاني التلصص 207
التصوير الاجتماعي و السياسي في الرواية 209
التصوير السياسي 209

التصوير الاجتماعي 216

الباب الرابع: 220

صنع الله ابراهيم: فنه وأسلوبه 220

الفصل الأول: نوعية فن صنع الله إبراهيم 221

الأثرات على هذا الجيل..... 224

مضاد البطل 229

الفصل الثاني: 235

التقنيات السردية في روايات صنع الله ابراهيم 235

البنية السردية في روايات صنع الله ابراهيم 235

روايات قصيرة وروايات طويلة..... 235

مستو ى السرد في روايات صنع الله ابرهيم 236

معنى السرد 236

معنى مستوى السرد 238

مستوى السرد في روايات صنع الله ابراهيم..... 238

الحبكة ضئيلة جدا في روايات صنع الله ابراهيم..... 244

معنى الحبكة..... 244

الفصل الثالث:..... 247

المميزات الخاصة في تقنية صنع الله ابراهيم السردية..... 247

التناص 247

معنى التناص 247

التناص في رواية صنع الله ابراهيم 248

الاسترجاع/الفلاشباك 250

معنى الاسترجاع 250

تيار الوعي أو المونولوج الداخلية (المناجات الداخلية)..... 253

تيار الوعي والمونولوج الجاخلي في روايات صنع الله ابراهيم..... 255

نتيجة البحث 259

ببلوغرافيا 266

المراجع الانجليزية 272

Depiction of Society and Politic in the Novels of Son'allah Ibrahim

(Al-Tasweer al-Ijtimaii wa al-Siyasi fi Riwayat Son'allah Ibrahim)

Thesis submitted to Jawaharlal Nehru University in partial fulfillment
of the requirements for the award of the degree of

Doctor of Philosophy

Submitted by

Md. Wasique Hussain

Under the supervision of

Prof. Mujeebur Rahman

Centre of Arabic and African Studies

School of Language, Literature and Culture Studies

Jawaharlal Nehru University, New Delhi–110067

2017